الهجاء والهجاؤون

في الجاهلية

تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

الهجاء والهجاءون

في الجاهلية



تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

مطبعة أحمد مخيمر لشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب فى تاريخ فن الهجاء فى الشعر العربى ، نحوت فيه نحوا جديدا فى دراسته وتحديده ، فجعلت فيه أقساما لم يتعارف النقاد على إدخالها فيه واعتبارها منه ، كالهجاء السياسى والهجاء الأخلاقى والاجتماعى .

ولما كان الموضوع طويلا متشعب النواحى ، فقد رأيت من الأوفق أن أخرجه أجزاء مستقلة ، وهذا هو الجزء الأول منه فى العصر الجاهلى . وقد قدمت للكتاب بتحديد موضوع الدراسة مبينا وجه هذا التحديد . ولم أر بدآ من توضيح بعض المسائل العامة المتصلة بالعصر ، كالكلام عن الشعر ، وارتباط السحر به عامة وبالهجاء خاصة، وكالكلام عن صلةالشاعر بالقبيلة ، وعن القيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر . فقد رأيت فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالا بالحياة وبالواقع ، ورأيت أن الدارس لايستطيع أن يتعمقه من غير أن يوضح العصر وينير جوانبه .

وقد أدخلت فى هذا الجزء عصر النبوة والشعراء المخضرمين فجعلتهم جاهلين باعتبار نشأتهم وبيئتهم .

وكان سبيلى فيه وفيما يليه من الأجزاء أن أفرد بابا لكل قسم من أقسام الهجاء ، ثم أتبعه بترجمة لشاعر أو أكثر من شعرائه البارزين . وقد بذلت الجهد فى تقريب الشعر العربى إلى الذوق ، بتلخيص جمل من روائعه ، تلخيصا تبقى فيه الصور ، ويُستبعَد فيه الغريب من الكلمات والتراكيب ، التى تحول بين طلاب الأدب وبين تذوقه ، ورجوت أن أنجح فى تحبيبه إلى الناس ، وأحرك فيهم الشوق لقراءة الشعر نفسه فى مراجعه . ولست أزعم أنى قد احتفظت فى هذا التلخيص بكل مافى الأصل من جمال ، فمن الواضح أن شطرا

كبيرا من جمال الشعر يرجع إلى الوزن ، وإلى نظم الألفاظ فى هذا النسق الذى أصبح الكلام بفضله شعرا ، وأصبح قائله شاعرا . ولكنى أقنع بأن أكون قد قاربت الأصل ، وأرى نفسى قد وفقت إن كنت قد استطعت الاحتفاظ بروح الشعر وبلمحة من جمال صوره ، وإن كنت قد نجحت فى كشف هذا الستار الكثيف من الألفاظ الغريبة والاشارات المبهمة عن جوهره الدفين ، ونفض غبار الزمن وأكفان الأجيال عن جماله الأصيل .

والله الموفق والمستعان ؟

محمد حسين

رمل الاسكندرية فى ٢ يولية سنة ١٩٤٧

ما هو الهجاء

اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب وهو نقيض المدح كما كان يقول قدامة . وهذا تعريف واضح لايحتاج إلى شرح . ولكننا مع ذلك نريد أن نناقشه وأن نضع لهذا الفن حدوده من جديد . بل نحن نريد أن ننظر فى تقسيم الشعر العربى جملة لنرى إلى أى حد كان شيوخنا الأقدمون موفقين . فلعل عقم دراساتنا الأدبية راجع إلى خطأ أساسى فى تقسيم الفنون الأدبية وتبويبها .

فلنبدأ إذن باستعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربى :

أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربى فيما وصل إلينا أبو تمام (٢٣١ ﻫ) حين رتب مختاراته المشهورة بالحماسة فى عشرة أبواب هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء .

ثم جاء من بعده قدامة بن جعفر (٣١٠ ﻫ) فكان أول من حدد أقسامه على نسق على أخذه الناس عنه وتأثر به كثير من النقاد الذين خلفوه .

قسم قدامة الشعر إلى ستة أقسام فى كتابه « نقد الشعر » وهى : المديح ، والهجاء ، والنسيب ، والمراثى ، والوصف ، والتشبيه . ونجد تقسيما آخر فى كتاب ينسب إليه هو (نقد النثر) يجعل فيه الشعر أربعة أصناف : المديح والهجاء والحكمة واللهو . ويجعل لكل صنف منها فروعا تتفرع منه . فمن المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة . ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب . ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ . ومن اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون .

ثم خلف من بعده أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) فألف كتابه (ديوان المعانى) جمع فيه عيون الكلام من شعر ونثر وجعله اثنى عشر بابا : الباب الأول فى التهانى والمديح والافتخار . والثانى فى الخصال المحمودة ، ويمكن أن نضيفه إلى الأول وندخله فيه . والثالث فى المعاتبات والهجاء والاعتذار . والرابع فى الغزل وأوصاف الحسان . والأبواب الستة التى تلى ذلك كلها فى الوصف مقسما بحسب موضوعاته . فالخامس فى النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب . والسادس فى السماء والنجوم والشمس والقمر . والسابع فى السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين . والثامن فى السلاح والحرب. والتاسع فى القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة . والعاشر فى الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب وصفة سائر الحيوان . أما الباب الحادى عشر فهو فى ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمراثى والتعازى والزهد . والباب الثانى عشر وهو الأخير فى صفات أشياء مختلفة لم يرها داخلة فى قسم من الأقسام السابقة . ومجمل هذا التقسيم فيما نرى أن الشعر خمسة أقسام مديح وهجاء وغزل ووصف ورثاء . وهو نفس التقسيم الذى سبق إليه قدامة فى (نقد الشعر) . وإجمال هذه الأبواب فى خمسة أقسام شىء لم نأت به من عندنا ولكن أباهلال نفسه قد أشار إليه فى كتابه حين قال[١] « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثى . حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ويلى هؤلاء ابن رشيق (٤٥٦ هـ) . روى آراء الذين سبقوه فى تقسيم الشعر [٢] فنسب التقسيم الذى وجدناه فى نقد النثر بنصه وتفصيله لأستاذه عبد الكريم وروى تقسيم قدامة فى نقد الشعر مع شىء من التعديل . ألحق التشبيه بالوصف، فحذف القسم السادس ، وجعل الفخر مكان المراثى . ولما أراد

---

(١) ديوان المعانى ج ١ ص ٩١

(٢) العمدة ج ١ ص ٩٩ — ١٠٣ ، ص ١٥٧ — ١١٠

بعد ذلك أن يتكلم عن أبواب الشعر فى شىء من التفصيل جعله تسعة أقسام : النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستئجاز ، والعتاب ، والوعيد والانذار ، والهجاء ، والاعتذار. فهو قد زاد الافتخار وقدامة يدخله فى المدح ، وزاد باب الاقتضاء والاستنجاز ، وباب العتاب ، وباب الوعيد والإنذار ، وقدامة يدخلها فى الهجاء . ثم لم يجعل الوصف قسما ، وزاد باب الاعتذار وهو القسم السادس الذى أشار العسكرى إلى أن النابغة قد استحدثه .

هذا عرض سريع للذين تصدوا لتقسيم الشعر العربى . فلنناقش آراءهم فى إيجاز .

أما أبو تمام فهو يخرج الأبيات فى كثير من الأحيان عن أبوابها إلى أبواب لاتليق بها .وقد لاحظ هذا الخلط بعض المتقدمين كصاحب اليتيمة[١]. ولعل البحترى قد تنبه لهذا حين ألف حماسته فجاوز بأبوابها المائة والسبعين — وقد أعرضنا عن تقسيمه فلم نشر إليـه لأنه كما ترى لايصلح أن يكون تقسيما علميا — وفى حماسة أبى تمام عيب آخر . فهو يسلخ الأبيات من القصيدة فيضعها فى قسم من أقسامه ، دون نظر إلى وحـدة القصيدة وغرضها جملة . والواقع أن أبا تمام لم يكن ينظر إلى التقسيم بمقدار ما كان يهتم بجودة الاختيار وسهولة الحفظ والتعليق . ولذلك كانت مختاراته قصيرة . وقد جمعت قبله مختارات من الشعر العربى كالجمهرة والمفضليات والأصمعيات ، فكان أصحابها يروون القصائد برمتها . ومع ذلك فأبو تمام أصلح حالا من البحترى. فقد كان ربما اختار البيت أو البيتين فوضعهما فى قسم من هذه الاقسام المترامية التى لا تحصرها الذاكرة . ونحن مع ما نحرص على الإيجاز لانرى بدا من أن نتقدم ببعض الأمثلة على خلط أبى تمـام فى تقسيمه . فهو مثلا يذكر فى باب الحماسة أبيات جعفر بن علبة الحارثى[٢]

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣ : ٣٦٦ نقلا عن اليتيمة ٣ : ٤١٦

(٢) ص ١١

هواى مع الركب اليمانين مصعد   جنيب وجثمانى بمكة موثق

والواقع أنها ليست حماسة خالصة . فالنسيب غالب عليها. ويذكر فى هذا الباب أبيات أمية بن أبى الصلت(١)

غذوتك مولودا وعلتك يافعا   تعل بما أدنى إليك وتنهل

وهى ليست حماسة وربما كانت أليق بباب الهجاء أو الأدب . وكذلك القطعة التى تليها (٢)

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه   أم الطعام ترى فى جلده زغبا

ويذكر فى باب المراثى قصائد قيلت فى مناسبة قتيل ، وهى ليست من المراثى فى شىء ، ليس بينها وبين المرثية من صلة إلا المناسبة التى قيلت فيها . فمن ذلك أبيات أم الصريح الكندية(٣)

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا   بجيشان من أسباب مجد تصرما

ومما ذكره فى الرثاء وليس منه أبيات أبى الشغب العبسى فى سجن خالد القسرى (٤)

ألا إن خير الناس حيا وهالكا   أسير ثقيف عندهم فى السلاسل

أما باب الأدب فلعله يقصد فيه إلى الشعر الحكمى (نسبة للحكمة) أو الشعر التهذيبى ، ولكنه لايفرق فيه بين الحكمة التى تصدر عن القصد إلى النصح والتهذيب ، وبين الهجاء الذى يصدر عن الغضب والاشمئزاز والقصد إلى التشفى والانتقام . فما جاء فى باب الأدب وهو هجاء فى حقيقة الأمر أبيات القريعى (٥)

متى مايرِ الناس الغنى وجاره   فقير يقولوا عاجز وجليد

ومنها أبيات العباس بن مرداس (٦)

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفى أثوابه أسد مزير

(١) ص ٣١٤
(٢) ص ٣١٦
(٣) ص ٣٨٦
(٤) ص ٣٨٤
(٥) ج ٢ : ١٨
(٦) ج ٢ : ٢١

وكذلك أبيات مالك بن حريم الهمدانى (١)

أنبئت والأيام ذات تجارب — وتبدى لك الأيام مالست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه — ويثنى عليه الحمد وهو مذمم

وقد اضطر أبو تمام إلى إدخال شعر الخمر فى هذا الباب(٢) وكان حقه أن يكون فى باب مفرد له، ذلك بأنه لم يجعل فى كتابه مكانا لشعر اللهو والمجون. فهو لم يستوف فى تقسيمه كل أبواب الشعر.

أما باب الأضياف والمديح فهو لا يصلح أن يكون قسما من أقسام الشعر أصلا، لأن تفريقه على الأقسام الأخرى ممكن، فمعظمه يدخل فى الفخر فهو حماسة، مثل أبيات قيس بن عاصم المنقرى(٣)

إنى امرؤ لا يعترى خلقى — دنس يفنده ولا أفن

ومثل أبيات شقران مولى بنى سلامان بن سعد بن هذيم (٤)

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد — علىّ لإنسان من الناس درهما
ولكننى مولى قضاعة كلها — فلست أبالى أن أدين وتغرما

ومثل أبيات عمرو بن الإطنابة (٥)

إنى من القوم الذين إذا انتدوا — بدءوا بحق الله ثم النازل

وبعض هذا الباب يدخل فى الهجاء مثل أبيات عروة (٦)

إنى امرؤ عافى إنائى شركة — وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

ومثل أبيات حطائط بن يعفر (٧)

تقول ابنة العباب رهم حربتنا — حطائط لم تترك لنفسك مقعدا

ومثل أبيات جزْية بن النضر (٨)

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا — وما بنا سرف فيها ولا خرق

---

(١) ج ٢ : ٣١ — (٢) ج ٢ ص ٨٥ — ٩٠
(٣) ج ٢ : ٢٦٣ — (٤) ج ٢ : ٢٧٤
(٥) ج ٢ : ٢٨٩ — (٦) ج ٢ : ٣٠١
(٧) ج ٢ : ٣٤٢ — (٨) ص ٣٤٤

ومثل قصيدة عارق الطائى [١]

ألا حى قبل البين من أنت عاشقه   ومن أنت مشتاق إليه وشائقه

أما باب الصفات فهو قصير جدا لا يستغرق أكثر من ثلاث صفحات . مع أنه يتسع لأكثر من هـــذا . وكان حق الباب الذى يليه (باب السير والنعاس) أن يضم إليه .

أما باب الملح فبعضه هجاء ، وبعضه وضع للجد موضع الهزل ، فهو لاحق بالهجاء . فمن الهجاء قول امرأة [٢]

فقدت الشيوخ وأشياعهم   وذلك من بعض أقواليه
ترى زوجة الشيخ مغمومة   وتمسى لصحبته قاليـــة

ومن أمثله وضع الجد موضع الهزل [٣]

فإنك إذ ترى عَرَصات جُمْـل   بعاقبـة فأنت إذاً سعيد
لها عينان من إقط وتمر   وسائر خلقها بعد الثريد

ومنه :

يارب إن قتلتها فعـــدلها   فلن تموت أو تجيد قتلها

أما باب مذمة النساء وهو آخر أبواب الكتاب فكله داخل فى الهجاء .

ومع ذلك فقد كان أبو تمام موفقا من بعض النواحى على ماله من فضل السبق إلى التقسيم . فما وفق فيه جعل الحماسة قسما من أقسام الشعر . وقد فرق الذين جاءوا بعده هذا البـاب فى عدة أقسام ، فجعلوا منه المديح والفخر وشعر الحروب . ونظرة أبى تمـام إلى هذه الأقسـام مجتمعة فى باب واحد أشمل وأوضح . فالواقع أنها تصدر جميعا عن الحماسة والإعجاب ، وهى تصور المثـل الأعلى للشاعر ممثلا فى ممدوحه أو فى نفسـه وقبيلته أو فى فـكرة من الأفكار . وقد كان لأبى تمام بعض العذر فى هذا الخلط لأن معظم مختاراته جاهلية ، والشعر الجاهلى مختلط ، تجد فيه النسيب والرثاء والحماسة والهجاء فى القصيدة الواحدة .

---

(١) ج ٢ ص ٣٤٧ – ٣٥٠   (٢) ج ٢ : ٣٩٥   (٣) ج ٢ : ٤٠٣

كان اعتماد أبي تمام فى تقسيمه على فطرته السليمة وإحساسه الفنى، أما قدامة فقد اعتمد على عقله . وكان أبو تمام شاعرا صاحب ذوق ، أما قدامة فكان أعجميا صاحب منطق وفلسفة . ألف فى الفلسفة كتاب السياسة وفى المنطق صناعة الجدل . لذلك كان تقسيمه للشعر متأثرا بهذه الثقافة الفلسفية . فهو يطبق على الشعر صناعة المنطق من ناحية ، ويخضعه لقوانين الأخلاق من ناحية أخرى . يبدأ تقسيمه بالمدح ويعتبره أصلا للفنون الاخرى ، فالهجاء عنده ضد المدح ، والرثاء مدح ولكن الشاعر يخلط به شيئا يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أوعدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت ، وهو يعنى أول مايعنى بتعريف الفن الذى يتحدث عنه تعريفا منطقيا سليما فى أقل لفظ ممكن، ثم يأخذ فى شرح تعريفه ، فإذا فرغ من ذلك استخلص من التعريف ماينبغى أن يتوافر فى هذا الفن من الشروط والأركان ، ويمضى فى ذلك تاركا نفسه إلى حيث يسوقه هذا المنطق . فهو يقول فى النسيب بعد التعريف . (وإذ قد بان أن الذى قلناه على ماقلناه ، فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة) . ويقول فى المدح (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث أنهم ناس ، لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ،على ماعليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا) وعلى هذا الأساس الأخلاقى المحدد بحدود منطقية عنيفة تدور الأقسام الثلاثة : المدح والهجاء والرثاء . ومادام الهجاء عنده ضد المدح فينبغى إذاً أن يعتمد على نقض الفضائل النفسية . وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى . ثم يقول (ثم ينظر أقسام المديح وأسبابه ، فيجرى أمر الهجاء بحسبها فى المراتب والدرجات والأقسام . ويلزمه ضد المعنى الذى يدل عليه . إذ المديح ضد الهجاء) ومادامت المرثية هى المدحة لافرق بينهما إلا أن

الأولى لهالك والأخرى لحى ، فيجب أن تعتمد على الفضائل النفسية . فهو يقول فى الرثاء (وإذ قد تبين بما قلنا آنفا أنه لافضل بين المديح والتأبين إلا فى اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح) وواضح من الأمثلة التى قدمناها من كتابه مايلوح على ديباجته من المنطق العنيف الذى يفسد الأسلوب ، وواضح أيضاً أن رجلا كهذا لاصلة له بالشعر بل بالفن جملة . فإنما هو صاحب منطق وأخلاق . والكلام فى الشعر يعتمد أول مايعتمد على الذوق . وقد ذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان بارعا فى الحساب . والواقع أن براعته فى الحساب تعلل لنا طريقة فهمه للشعر فهو يفهمه فهما حسابيا . فالبيت من الشعر لايدل عنده إلا على أرقام ، فهذا بيت فى المدح قد اجتمعت فيه الفضائل الأربع فهو خير من بيت آخر فيه فضيلتان أو ثلاث . وهو يمثل للهجاء الجيد بقول الشاعر :

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا
وغدوا عليك مرجّلين كأنهم لم يفعلوا

انظر إلى هذا الرجل الذى يفهم الشعر بالأرقام ، ويزنه بموازين الأخلاق كيف يتصور الجمال فيهما . يقول (فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمد به أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق ، والبخل ضد الجود ، ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال : وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا . لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمية والقحة التى هى من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس فى أخلاق النفس) وماظنك برجل يعرِّف الشعر فى أول كتابه بقوله (هو كلام موزون مقفى يدل على معنى) .

كان من سوء حظ النقد أن قدامة أول من ألف فيه كتابا فتأثر به كثير من النقاد الذين جاءوا بعده . وحتى أولئك الذين كانوا ينفرون من المنطق والفلسفة وإقحامها فى الدراسات الأدبية لم يستطيعوا أن يتخلصوا من أثر

قدامة ويتحرروا من قيوده . فهذا أبو هلال العسكرى وهو شاعر، يعتمد فى كتبه فى البلاغة والنقد على الذوق ، قد تأثر بكتاب قدامة فى نقد الشعر، برغم مايبدو من أنه نافر من أسلوبه فى دراسة الشعر . هو يتجافى فى (ديوان المعانى) عن تقسيم قدامة ، ويبتعد عن التحديد المنطقى العنيف فى التعريف والتقسيم ، ويضع بين يدى القارىء كثرة من النصوص شعرا ونثرا ، يروض بها ذوقه ، ويصقل ملكاته . ولكنه مع ذلك واقع تحت تأثير قدامة . نحس هذا فى كثير من مواضع كتابه . فهو يفرد من ديوان المعانى بابا لخصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحلم والحزم والعقل ومايجرى مع ذلك. وواضح من عنوان هذا الباب أنه ينساق من غير أن يشعر إلى نظرية الفضائل الأربع عند قدامة . وتأثره بهذه النظرية يبدو فى مواضع أخرى من كتابه . فهو يقول فى بيت أبى العميثل[١] :

فاصدق وعف وجد وأنصت واحتمل   واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

(وقد جمع هذا البيت جميع خصال المدح) مع أن البيت كما ترى نظم لا جمال فيه . ويقول[٢] بعد أن يروى أبياتا للبحترى (لم يبق وجه من وجوه المدح فى الجود والشجاعة وتصوب الرأى ومضاء العزيمة والدهاء وشدة الفكر إلا قد اجتمع ذكره فى هذه الأبيات . ولم أعرف أحدا يستوفى مثل هذه المعانى فى أكثر مدائحه إلا البحترى) ويقول فى باب الهجاء[٣]

وأبلغ الهجاء ما يكون بسبب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعلم والعقل ومايجرى مجرى ذلك . وليس الهجاء بقبح الوجه وضؤولة الجسم وقصر القامة ومافى معنى ذلك بليغا مرضيا . وروى فى بعض مواضع من كتابه أمثلة قدامة بعينها . فروى فى باب المدح أبيات الحطيئة[٤] .

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها   وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

---

(١) ج ١ ص ٣٨   (٢) ص ٥٧
(٣) ج ١ : ٢٠٢   (٤) ج ١ : ٣٨

ويقول بعدها (ولعمرى إن معانى هذه الأبيات أبكارليس للعرب مثلها. وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيئة . وهى جامعة لخصال المدح كلها)

ويروى فى باب الهجاء بيتى قدامة اللذين أشرنا إليهما منذ قليل[١]

إن يغدروا أو يفجروا   أو يبخلوا لا يحفـــلوا
وغدوا عليك مرجليـــــن كأنهم لم يفعـــلوا

ويقول (هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع فى الأمهات)

وبعد فتقسيم أبى هلال يمكن أن يرد آخر الأمر إلى تقسيم قدامة ، فالباب الأول والثانى فى المديح ، والثالث فى الهجاء ، والرابع فى النسيب ، والأبواب الستة التى تليه فى الوصف ، والباب الحادى عشر فى الرثاء ، والباب الأخير فى أشياء متفرقة رآها غير داخلة فى باب من أبواب كتابه .

ثم جاء بن رشيق وكان شاعرا صاحب ذوق ممتاز يتجلى فى حسن اختياره وفى جمال أمثاله التى أوردها فى كتاب العمدة ، فسار على نهج قدامة وتأثر به تأثراً عميقاً ، فهو يردد فى باب المديح كلام قدامة فى الفضائل النفسية ، ويمضى على آثاره مبينا مايتفرغ من كل فضيلة منها، ثم لايزال يروى آراء قدامة مستقصيا، حتى يذكر ما ينتج من تركيب بعضها مع البعض ، فالصبر على الملمات ونوازل الخطوب والوفاء بالإيعاد يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، والبر وإنجاز الوعد وما أشبه ذلك يحدث من تركيب العقل مع السخاء . . وهكذا إلى أن ينتهى من كل الأمور المنطقية التى تنتج عن هـذا التركيب . وكل هذا كلام لاموضع له فى النقد .

ولم يقف تأثره بقدامة عند هذا الحد من رواية بعض آرائه واستحسانها، بل تأثر به فى تقسيم الشعر ، فجعل المدح أصلا لتقسيمه كما جعله قدامة . فالفخر عنده هو المدح نفسه غير أن الشاعر يختص به نفسه ، والرثاء مدح أيضا ولـكن الشاعر يخلط به مايدل على أن المقصود به ميت ، والهجاء يعتمد على

---

(١) ص ١٨٢

المدح أيضا فهو ضده لايختلف فى أصوله عنه ، فليس بينهما من فرق إلا أن الشاعر ينقض فى الهجاء مايقال فى المدح ، فهو مثله يعتمد على الفضائل النفسية الأربع . وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى .

وابن رشيق إن كان أعجميا كقدامة فهو أصفى ذوقا وأقوم طبعا . فهو صاحب شعر مليح واختيار تتجلى فيه سلامة الذوق . وفى كتابه التفاتات جميلة وملاحظات فنية حسنة . وإنما جنى عليه اعتماده على قدامة فى كثير من المواضع، وفتنته بمنطق أرسطو الذى كان بدع العلماء والمتعالمين فى ذلك الحين . ومع ذلك فأكثر مايعتمد ابن رشيق فى كتابه على الرواية ، فهو يعدد آراء الذين سبقوه من النقاد . ويستطيع القارىء أن يستخلص رأيه من بين هذه الروايات بما يعقب عليها مؤيدا أو معارضا ، منبها إلى مواضع الخطأ والانحراف عن الصواب .

ولسنا أول من يأخذ على قدامة أسلوبه فى دراسة الشعر وتقسيمه . فهذا هو الآمدى يتعرض له فى غير موضع من كتاب الموازنة ، فيسخف آراءه ويهجنه [١] . بل لقد ألف كتابا فى الرد على (نقد الشعر) سماه (تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر [٢]) .

لم يقع هؤلاء النقاد على الصفة الأساسية البارزة التى تميز الشعر وهى العاطفة . وعليها وحدها يجب أن يقوم التقسيم ، وخصوصا فى الشعر العربى الذى هو فى معظمه غنائى . فليس الشعر فى حقيقة الأمر إلا إبرازا للعواطف الإنسانية وتصويرا لانفعالات الشاعر وخلجات قلبه . فهو - كما يقول وردزورث - فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء .

فالعاطفة - كما يقول بول فاليرى - هى أول الشعر وآخره ، وأصل الفن وغايته . فالذى يتعرض لتقسيم الشعر يجب أن يعود إلى الأصل الذى صدر

(١) ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) معجم الأدباء ج ٨ : ٨٦

عنه ، وأن يرد هذا الإنتاج إلى مصدره الأول . والواقع أن تقسيم الشعر ـ والغنائى منه بنوع خاص ـ مهمة شاقة ليست بالهينة . فموضوع الشعر واسع جدا سعة الحياة نفسها، وألوانه متعددة تعدد أهواء النفس البشرية وخلجاتها، ثم هو فى بعض الأحيان غامض مختلط يصعب تخليصه وتمييزه وإرجاعه إلى عاطفة خاصة ، فقد يكون مصورا لمزاج من عواطف مختلفة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان . وهذا التناقض والغموض قد يكون فى نفسه مصدر جمال ، فالشعر متعدد الألوان والأشكال تعدد ألوان النفوس التى صدر عنها ، حتى ليكاد شعر كل شاعر أن يكون قسما قائما بنفسه مختلفا عما عداه من الأقسام . والناظر فى كتب النقد الغربى يجد أنه لم يبرأ من الخلاف الذى قدمنا بعض صوره عند نقادنا . ونحن نكتفى فى هذا المقام بتحديد القسم الذى سندرسه فى هذا الكتاب وهو الهجاء .

الهجاء أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء . وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب . فالهجاء لا يصطنعه ـ كما يقول برونوتيير(١) إلا وسيلة للتعبير عن طريقته فى الحس والتفكير، معارضا طرق الآخرين فى حسهم وتفكيرهم، تلك الطرق التى تثير بالمعارضة ذاتها غضبه أو سخطه واستشناعه أو خوفه واحتقاره أو استهزاءه . وواضح أنا قد تعمدنا فى تعريف الهجاء أن لا نجعله شعرا غنائيا فهو أدب غنائى أى أنه شامل للشعر والنثر . فهو غناء أولا وتصوير لعواطف شخصية ، وليس الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك . ونحن فى هذا التعريف نخالف المشهور عند نقاد العرب من وجهين . الوجه الأول أننا نجعله شاملا للشعر والنثر والمشهور أنه لا يكون إلا شعرا ، والوجه الثانى أننا نجعل موضوعه شاملا للفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد . ولكننا لا نعدم ما يؤيد مذهبنا عند نقاد العرب ومؤلفيهم . فالجاحظ

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية . مادة Satire

يسمى بعض رسائله النثرية هجاء فيقول فى مقدمة كتاب الحيوان[١] وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضيات . . . وبكل ما كتبت إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوفيق ، ومن هجاء لايزال ميسمه باقيا ، ومديح لايزال ناميا . . الخ » وصاحب العقد الفريد يجعل فى القرآن هجاء فيقول[٢] « قال الله تبارك وتعالى فى هجو المشركين (والشعراء يتبعهم الغاوون . الآية) » . وأبو هلال العسكرى يروى فى باب الهجاء شعرا أخلاقيا لايدخل فى الهجاء بمعناه الضيق عند قدامة وأشياعه . ويذكر فى هذا الباب نثرا مسجوعا فى أغلب الأحيان ولكنه يسميه ذما .

فمن أمثلة الهجاء الأخلاقى الذى ينصب على الجماعة ولا ينصب على الفرد مايروى لنفسه[٣]

كم حاجـــة أنزلتها بكريم قوم أو لئيم
فإذا الكريم من اللئـــيم أو اللئيم من الكريم
سبحان رب قادر قدّ البرية من أديم
فشريفهم ووضيعهم سيان فى شرف ولوم
قد قلّ خير غنيهم فغنيهم مثل العديم
وإذا اختبرت حميدهم ألفيته مثل الذميم
لا نفع فيه للصغيـــر من الأمور ولا العظيم

ومن أمثلة الهجاء نثرا قول بعضهم لرجل استضاف بخيلا (نزلت بواد غير ممطور ، ورجل غير مسرور ، فأقم بندم ، وارحل بعدم) . وقول أعرابى دخل بغداد (فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد ، إقبال حظهم إدبار حظ الكرم ، شجر فروعه عند أصوله ، شغلهم عن المعروف رغبتهم فى المنكر[٤] والنويرى فى نهاية الأرب يجعل النثر والهجاء الأخلاقى فى باب الهجاء فيقول[٥]

---

(١) ج ١ : ٣ (٢) ج ٦ : ١٤٥
(٣) ديوان المعانى ١ : ١٩١ (٤) ديوان المعانى ٢ : ١٠٣
(٥) ج ٣ : ٢٦٩

« وإن للشعراء والبلغاء فى الذم والهجاء نظما ونثرا سنورد منها طرفا ».
وهو يروى أبيات أبى هلال السابقة ويجعلها « مما هجى به أهل الوقت على الإطلاق » . ويجعل من الهجاء قسما هو هجاء أخلاقى ، كهجاء الحسد والسعاية بالبغى والغيبة والنميمة »

وبعد فمدلول الكلمة اللغوى واشتقاقها يعيننا على ما نذهب إليه ويتسع له . فالمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته أى تذمه وتشكو منه . وقد ورد فى الحديث (اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر فاهجه اللهم والعنه عدد ماهجانى ، أو مكان ما هجانى) والهجاء عند الزمخشرى مأخوذ من هجاء الحروف فهو تعديد للمعايب . فالمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحا إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه . وهو تفريع غريب. فالكلمة جاهلية قديمة ، وهى بأن تكون سابقة للهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة أشبه . على أنه إن كان كل مالحظ فى نقلها هو التعديد فلم لم يكن تعديد المفاخر والفضائل هجاء أيضا؟ الواقع أن فى المادة معانى أخرى هى أقرب لأن تكون أصلا للمعنى الأدبى . فالهجاة والهاجة الضفدع وهجو يومنا اشتد حره . وفى اليائى من المادة هجى البيت هجيا انكشف ، وهجيت عين البعير غارت . ومما هو قريب من المادة الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب ، والهَوج بمعنى الحمق والطيش والتسرع ، والهوجاء الريح التى تقتلع البيوت .

ونحن لا نستطيع أن نرجح معنى من هذه المعانى على أنه أصل للمادة فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع فهو قبيح الشكل بشع الصوت . وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ففيه معنى التنكيل والتعذيب . وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائى فهو يكشف عن سيئات المهجو . ولعل الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة مأخوذ من المعنى الأخير ، فالذى يعدد حروف الكلمة يكشف عنها كما تكشف الريح عما بداخل البيت . معانى المادة على كل حال تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة

تحتمل الزيادة . وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبي بحيث يشمل غيرها من المعاني القريبة جداً من المعنى الأول . وهي وإن كانت قد أخذت شكلا ثابتاً بهذا المعنى الذي اصطلح عليه القدماء فما ينبغي لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق. والواقع أن الجاهليين حين قصروا الهجاء بمعناه الأدبي على شكله الشخصي كانوا محقين . فهم لم يعرفوا من أنواع الهجاء إلا هذا اللون . وقد نشأ الهجاء عندهم كما نشأ عند غيرهم من الأمم تنديدا بالمعايب الشخصية أول الأمر . ثم تقدم الهجاء عندهم كما تقدم عند غيرهم ، وارتفع عن الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة ، فكان منه السياسي ، وكان منه الأخلاقي ، وكان منه الديني. ولما ارتقى النثر وأخذ مكانه بين الفنون الجميلة التي يتأنق فيها أصحابها ، ويبالغون في صقلها وتهذيبها ، وأصبح أداة صالحة لتصوير العواطف ونقلها قوية مؤثرة ، كان منه الهجاء ، كما كانت منه فنون أخرى هي في أصلها مواضيع للشعر كالحماسة والوصف والرثاء . وكل ما في الامر أن النقاد لم يسمحوا لمدلول اللفظ أن يتطور بتطور الفن الذي يدل عليه ، أوهم لم يلتفتوا لذلك ، فظلوا يطلقون الهجاء إطلاقه القديم ، وسموا ما تفرع عنه وامتد منه ذما أو تهجينا أو زهدا أو أدبا . فإذا اكتشفنا نحن هذا الخطأ أو النسيان فما ينبغي لنا أن نتحرج ونزعم أن اللغة ليست ملكا لنا . فالقدماء أنفسهم قد سمحوا لمدلولات الألفاظ أن تتطور . والأدب نفسه قد تطور مدلوله منذ الجاهلية إلى عصرنا فضاق واتسع مرات .

الهجّاء يصور مثله الأعلى ، ولكنه يصوره خلال سخطه وغضبه أو اشمئزازه واحتقاره ، فهو يصوره بطريق غير مباشر حين يصوره المادح أو شاعر الحماسة — وليس المدح إلا حماسة في حقيقة الأمر — بطريق مباشر . فهذا الفن الأدبي الذي يصور المثل الأعلى للشاعر بالسخرية من نقيضه ، ينبغي أن يدرس مجتمعاً بعضه إلى البعض ، لأنه يصور ظاهرة فنية واحدة ، ولأنه

يصدر عن عاطفة واحدة ، ويتجه إلى هدف واحد . ونحن لا نبالى إذا جمعت هذه الأنواع الأدبية تحت جنس واحد أن تسمى ما تسمى . فلنسمها هجاء إن شئنا ، ولنبحث لها عن اسم آخر إن أردنا أن نطلق لفظ الهجاء على هذا الشكل الأدبي الذى تعود القدماء أن يطلقوه عليه . فليست التسمية بالشيء المهم ، إنما المهم أن يقوم تقسيم الشعر ودراسته على أساس صحيح ، فلا نفرق منه ما ينبغى أن يجتمع ، ولا نجمع ما ينبغى أن يتفرق .

والأساس فى هذا الشكل الأدبي الذى نريد أن نسميه هجاء — لأنا لا نرى مانعا من هذه التسمية — أن الأديب يصور فيه مثله الأعلى لأن شيئاً قد عارض هذا المثل . وهـذا الشيء قد يكون شخصاً من الأشخاص أو نظاما من النظم أو فكرة من الأفكار . فإذا صور الشاعر عاطفته فقد يصورها منصبة على هذا الشخص أو هذا النظام ، وقد يعم بها الجنس أو النوع الذى يجمع هذا الفرد وغيره من الأفراد التى تخضع لنفس الحكم والتى تثير عند الشاعر نفس العاطفة بتعارضها مع مثله الأعلى .

وهنا يجب أن نشير إلى فرق دقيق بين نوعين من الأدب لا ينبغى أن نخلط بينهما : هما شعر الهجاء والشعر التهذيبي (أو الأدب) كما كان يسميه بعض نقادنا القدماء . فالشعر التهذيبي يقصد به الوعظ والإرشاد ، أما الهجاء فيرمى به صاحبه إلى العقوبة والانتقام . فالأول يقدم درساً فى الأخلاق أو الدين أو الفلسفة ، فى هدوء المعلم أو الواعظ والمبشر ، يزجيه الأمل فى الإصلاح. أما الهجاء فهو شريعة القصاص — كما يقول أرنولد — من المجرمين الذين لا تنالهم يد القانون القصيرة . فالهجّـاء يرى أن هناك طائفة من المجرمين ، قد غلظت طبائعهم بما أشربوا فى قلوبهم الباطل والإثم والغرور ، حتى ما يؤثر فيهم نصح أو تحذير . فهو ينشر على الناس مخازيهم ، ويجعلهم أضحوكة ومثلة ، وقد لا يرجو من وراء عمله هذا أن يصلحهم أو يطهرهم . فالعلاقة بين الشعر التهذيبي والشعر الهجائى هى كالصلة بين المدرسة والمحكمة . أحدهما يسعى

لتكوين الفضيلة ونشر الحكمة . والآخر ينزل عقابه بالرذيلة ويهتك الستر عن الحماقة والسفه . دافع الشاعر التهذيبي رغبة صادقة فى الاصلاح ، ودافع الهجاء شهوة الغضب والانتقام . وقد تصور الهجاء الانجليزى (Pope) مهمة الهجَّاء تصوراً حسناً حين قال : —

Hear this and tremble, you who scaped the laws;
Yes, while I live, no rich or noble Knave,
Shall walk the world in credit to his grave;
To virtue only and her finds a friend;
The world beside may murmer or commend.

استمعوا إلى هذا وارتعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء — ما دبت فىّ الحياة —
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر فى ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالى ضج الناس من حولى ساخطين ، أو أثنوا مادحين .

* * *

ولكى يستبين الفرق واضحاً بين النزعة التهذيبية والنزعة الهجائية ، نقدم قطعتين من الشعر ، إحداهما لأبى العتاهية ، والأخرى للمتنبى ، ثم ننظر فى الفرق بينهما .

يقول أبو العتاهية :

الحرص داء قد أضـــــــر بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيـــــت الحرص صيره ذليلا
فتجنب الشهوات واحـــــذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفاً فى الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا جميلا

والمتنبي يقول :

فـؤاد ما تسليه المـدام وعمر مثل ما تهب اللئام (١)
ودهر ناسـه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرّغام (٢)
أرانب غير أنهمُ ملوك مفتحة عيونهم نيام (٣)
بأجسام يَحَرُّ القتل فيها وما أقرانها إلا الطعام (٤)
وخيل ما يخر لها طعين كأن قنا فوارسها ثمام
خليلك أنت لا من قلت خِلّي وإن كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل تجنب عنق صيقله الحسام (٥)
وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع إلا مستحق لرتبته أسامهم المسام (٦)

* * *

الفرق واضح بين الشاعرين، فالأول يقدم النصح للناس فى هدوء ، ليس فى نفسه أثر لحقد أو غضب ، لأن عيوب الناس لا تثير فيه إلا العطف ، فهو يحاول أن يأخذ بيدهم لينجيهم من العذاب ، ويدلهم على طريق السعادة ، وكله أمل فى النجاح . أما المتنبي فهو محنق مغيظ ، وهو كالأب الذى يعالج أخطاء

---

(١) يقول إن آماله ضخمة عريضة ولكن عمره قصير لا يتسع لتحقيقها وهو يشبه عمره فى قصره بعطية البخيل اللئيم .

(٢) الرغام التراب يقول إنه بين الناس كالذهب فى التراب .

(٣) يصف الناس بالغفلة ويشبههم بالأرانب تنام وعيونها مفتوحة .

(٤) يقول إنهم لايموتون فى حرب ولكنهم نهمون تقتلهم التخمة والشره للمأكل الذى لايحفلون بغيره .

(٥) يقول إن الناس لاعقول لهم ولذلك فهم لايحافظون على حق ولايرعون ذمة . ولو جاز أن يكون الحفاظ لغير العاقل لنبا السيف عن عنق صاقلة وصانعه إذا ضرب به .

(٦) يقول لو أن الأمور تجرى على الحق والعدل لكان الملوك سوقة والسوقة ملوك .

ابنه بالضرب بدل أن يعالجها بالنصيحة . ولكن الأب قد يرجو أن يصلح ابنه بالقسوة ، أما المتنبى فهو لا يفكر إلا فى نفسه . هو يريد أن يتشفى وينفس عن غضبه ، ثم لا يبالى بعد ذلك شيئاً .

وليس يفهم من هذا أننا نغض من قيمة الهجاء والهجائيين بما نصورهم فى هذه الصورة البشعة التى لا يستجيبون فيها إلا لشيطان الغضب . فالواقع أن فى الهجاء قوة بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدّام، الذى هو أول مايطالع المتصفح له . فهو حين يهاجم شخصا من الأشخاص أو نظاما من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور فى حقيقة الأمر حياة أخرى بأشخاصها ونظامها وأسلوبها، هى مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له . فالهجّاء له فلسفة فى الحياة يريد أن يؤديها إلينا . على أن الزمن الذى كانت تقاس فيه الفنون بمقدار ماتنفع وتفيد من الناحية المادية قد مضى ، وأصبح الشعور الصادق فى اللفظ الجميل هو قوام الشعر الصحيح — كما يقول فاليرى — ولم يعد الفن وسيلة لشىء ، ولكنه أصبح غاية فى نفسه . وكل مايطالب به الشاعر أن يكون دقيقا قويا فى المزاوجة بين إحساسه الفنى وبين الكلمات ، بحيث ينبجس شعره أنشودة رائعة وأثراً كاملا لما فى نفسه .

يقسم النقاد الهجاء إلى ثلاثة أقسام : هجاء شخصى وهجاء أخلاقى وهجاء سياسى .

فالهجاء الشخصى يعتمد على مهاجمة الأفراد . وهو أقدم أنواع الشعر الهجائى . وهو فى معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية ، بعيد عن العدل والإنصاف ، لأنه لا يرتقى إلى عناصر الحياة العامة إلا فى القليل من نواحيه، فهو أقرب للسباب، وأدنى إلى أن يتورط فى الفحش . ومثل هذا الشعر قد يعجب المعاصرين ويسترعى انتباههم، فيرددونه شامتين أو ساخطين ، ولكنه يفقد جزءاً كبيراً من قيمته بتداول العصور ، فلا يتحمس له الناس ولا يجدون فيه المتعة ، إلا بمقدار ما يشتمل عليه من نادرة طريفة ، أو سخرية مسلية

أو نكتة مضحكة. وأكثر ما يكون الهجاء الشخصى ناجحاً إذا استطاع فيه الشاعر أن يخفى حقده نحو الأفراد، فيبدو غضبه منصبا على رذائل سائدة وحماقات منتشرة، لاتعرض فيها أسماء الأشخاص إلا على سبيل التوضيح والمثال، كالذى نجده عندالجاحظ فى «البخلاء». ولسنا بحاجة إلى تقديم أمثلة شعرية لهذا القسم، فهى كثيرة معروفة فى الشعر العربى القديم.

أما الهجاء الأخلاقى، فموضوعه الجرائم الأخلاقية أوالدينية، والمفاسد الاجتماعية، والعادات القبيحة، والعيوب الإنسانية على وجه العموم. وقد يعم به الهجّاء جنسا من الأجناس لا يعين منه أفراداً، كالذى نجده فى شعر المعرى من السخط على المرأة أو رجال الدين، فهو لا يعنى فيه امرأة مقصودة أو رجلا يعينه من رجال الدين، ولكنه يرى رذائل مصورة فى بعض من عرف من أولئك وهؤلاء، فيدفعه السخط والاشمئزاز إلى التعميم. وبعض شعر المعرى يبدو مظلما مملا لا يروق المتفائلين، لأنه يبدو وكأنه لا يصدر عن سخط أخلاقى، ولكن عن كراهية ونفور من الجنس البشرى.

انظر ما يقول فى هجاء رجال الدين[١]

وقد فتشت عن أصحاب دين ... لهم نُسُك وليس لهم رياء
فألفيت البهائم لا عقول ... تقيم لها الدليل ولا ضياء
وإخوان الفطانة فى إختيال ... كأنهم لقوم أنبياء
فأما هؤلاء فأهل مكر ... وأما الأولون فأغبياء
فإن كان التقى بَلَهاً وعياً ... فأعيار المذلة أتقياء[٢]

ولاحظ ما يسودها من سخط على الجنس البشرى كله. فهو لا يصب سخطه على المتدينين وحدهم، ولكنهم يشمل به المتدينين وغير المتدينين. فالمتدين أبله موصوم بالرياء، وغير المتدين ماكر يملأه الكبر والغرور.

---

(١) اللزوميات ١ : ٤٢

(٢) الأعيار جمع عير وهو الحمار. يقول لو كان كل مايتطلب فى التقى أن يكون أبله غبياً لكان الحمار أحق شيء بأن يوصف بالتقوى.

وانظر مايقول عن الوعاظ فى موضع آخر(١)

رويدك قد غُررتَ وأنت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف ... يُعلُّ كأنما ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى ... فمن جهتين لا جهة أساء

وفى موضع ثالث(٢)

أقيمى لا أعد الحج فرضا ... على عجز النساءِ ولا العذارى
وفى بطحاء مَكة سرُّ قوم ... وليسوا بالحُماةِ ولا الغيارىَ
وإن رجال شَيْبةَ سادنيها ... إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعا ... إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم ... ولو كانوا اليهود أو النصارى

أما تحامله على المرأة فهو معروف مشهور منه(٣)

خصاؤك خير من زواجك حرة ... فكيف إذا أصبحت زوجا لمومس
وإن كتاب المهر فيما التمسته ... نظير كتاب الشاعر المتلمس(٤)
فلا تُشهدَن فيه الشهود وألقه ... إليهم وعد كالعائر المتشمس(٥)
ولبسك ثوب السقم أحسن منظرا ... وأبهج من ثوب الغوى المنَمَّس(٦)
وإنك إن تستعمل العقل لا يزل ... مبيتك فى ليل بعقلك مشمس

(١) اللوزميات ١ : ٥٠
(٢) اللزميات ١ : ٦١ (٣) اللزوميات ٢ : ٣٥
(٤) المتلمس شاعر جاهلى حقد عليه عمرو بن هند ملك الحيرة لهجائه فاحتال لقتله بأن أرسله بكتاب إلى عامله فى البحرين يأمره بقتله : ولكن المتلمس توجس الشر ففض الكتاب فى الطريق وقرأه فنجا بنفسه
(٥) العائر الفرس الذى أفلت من صاحبه من عار الفرس يعير إذا أفلت وذهب على وجهه . والمتشمس المستعصى الممتنع
(٦) المنمس المحتال

وله فى اللزوميات قصيدة طويلة تبلغ ستة وتسعين بيتا معظمها فى هجاء المرأة . فهى أشبه بأهجية جوفينال السادسة . ومنها [١]

فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات
ولكن الأوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك من نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وأرزاءٍ يجئن مصممات
وإن تُعطَ الأناثَ فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ويلقين الخطوب ملوحات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وليس عكوفهن على المصلى أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حسانك إن توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات
وإن جئن المنجم سائلات فلسن عن الضلال بمنجمات
ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائى فغرن مهتمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات
فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفيتهنَّ مذممات
ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب إن أضيفت إليه السِّن جاء بمعظمات

وواضح فى كل هذه الأهاجى مايغشيها من تشاؤم وكراهية للنوع البشرى.

ومن الهجاء الأخلاقى قول بشار :

خير إخوانك المشارك فى المر فأين الشريك فى المرِّ أينا
الذى إن شهدتَ سرك فى الحى وإن غبت كان أذنا وعينا

---

(١) اللزوميات ١ : ١٧٧ — ١٨٣

مثل سر الياقوت إن مسه النـــار جلاه البلاء فازداد زينـــا
أنت فى معشر إذا غبت عنهم   بدلوا كل مايزينـك شينـا
وإذا مارأوك قالوا جميعـا   أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودا صحيحا   عاد كل الوراء زورا ومينـا

والفرق واضح بين المرارة القاسية التى تسم شعر المعرى، وبين النقد الذى هو أدنى للحكمة الأخلاقية عند بشار :

والنوع الثالث من الهجاء هو الهجاء السياسى . وهو يتميز عن سابقيه بأن صاحبه يرى مثله الأعلى فى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب ، فهو يهاجم كل ما يتعارض مع هذا المثل من نقائص ومعايب تتمثل فى أنصار حزب آخر . وهو يزعم فى كل هذا — صادقاً أو متصنعاً — أنه يهـاجم فى سبيل الفضيلة والحق . ونستطيع أن نلحق بهذا القسم الهجاء الدينى والهجاء القبلى . أما الهجاء الدينى فنجد له أمثلة فيما كان بين شعراء المسلمين وشعراء قريش أول ظهور الاسـلام . وأما الهجاء القبلى فهو فى الواقع ليس شعراً سياسياً بالمعنى الدقيق ، ولـكنه يصور الشعر السياسى فى طوره البدائى عند العرب . فالعرب فى جاهليتهم لم يعرفوا نظام الدولة ، ومن ثم لم تـكن لهم أحزاب منظمة تتقيد ببرامج خاصة . ولـكن العربى مع ذلك كان يحمل لقبيلته من القداسة والاجلال ، مثل ما يحمل المواطن لوطنه بل أشد . وكان للفرد على قبيلته من الحقوق ، ما يشبه حق المواطن على وطنه. فهى مكلفة بحمايته من كل اعتداء . وهو بعد هذا مسئول أمامها ، مرتبط بها ، لارأى له إلا مارأت ، وهو يضع سيفه ولسانه فى خدمتها . ولها أن تحرمه من جنسيته بأن تتبرأ منه وتعلنه طريداً .

فمن الشعر السيـاسى قول ابن بقيلة (وهو من اليمنية الذين ارتدوا عن الإسلام عصبية على نزار[١] :

(١) الطبرى ٢ : ٥٦٦

أبعد المنذرين أرى سواماً — تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى — قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس — كجرب المعز فى اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد — علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم — فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدى الخرج بعدخراج كسرى — وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال — فيوم من مساءة أو سرور

ومنه قول حنظلة الكاتب فى فتنة عثمان(١)

عجبت لما يخوض الناس فيه — يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم — ولاقوا بعدها ذلا ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى — سواء كلهم ضلوا السبيلا

وقول حسان(٢):

أتركتم غزو الدروب وراءكم — وغزوتمونا عند قبر محمد
فبلئس هدى المسلمين هديتم — ولبئس أمر الفاجر المتعمد
إن تقدموا نجعل قرى سرواتكم — حول المدينة كل لين مذود
أو تدبروا فلبئس ماسافرتم — ولمثل أمر أميركم لم يرشد
وكأن أصحاب النبى عشية — بدن تذبح عند باب المسجد
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه — أمسى مقيما فى بقيع الغرقد

ومنه قول الشاعر يخاطب أم المؤمنين فى فتنة على ، حين طالبت بدم عثمان ، وكانت قد حضت على قتله(٣)

منك البداء ومنك الغير — ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الأمام — وقلت لنا إنه قد كفر

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧
(٢) الطبرى ٢ : ٤٤٧
(٣) الطبرى : ٣ : ٤٧٧

فهبنا أطعناك فى قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

ومنه قول الشاعر العلوى فى يوم صفين[1]

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى ... تهدر فى دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على ... كدابغة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب ... لأنقاض العراق بها رسيم
وقومك بالمدينة قد أبيدو ... فهم صرعى كأنهم الهشيم
وليس أخو الترات بمن توانى ... ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيا ... لجرد لا ألف ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى ... يبىء بها ولا برم جثوم

ومنه قول الشاعر الخارجى عيسى بن فاتك التيمى[2]

فلما أصبحو صلوا وقاموا ... إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم ... سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القوم ولوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكبيرة ينصرونا

(١) الطبرى ٣ : ٥٦٣

(٢) الكامل ٢ : ٥٧

ومنه قول أعشى همدان فى فتنة المختار (١)

شهــــدت عليكم أنكم سبئية وأنى بكم باشرطة الشرك عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فنيا وإن سعت شبام حواليه ونهد وخارف
وإنى امرؤ أحببت آل محمـد وتابعت وحيا ضمنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شمطها والغطارف

(١) الطبرى ٤ : ٥٥٠

الخصائص الفنية للشعر الهجائى

الهجّاء ناقد بطبعه عياب، تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم بأكثر مما تسترعيه فضائلهم، فهو لا يحس مثله الأعلى بطريق مباشر، ولا يفطن إليه إلا عن طريق ما يعارضه ويثيره، فكأنه لا يهتدى لنفسه إلا بالقدر الذى يدفعه إليه حقده وغضبه. فهو لا يكتشف ذوقه ومواهبه إلا عن طريق السخط، فإذا مات فى نفسه السخط، وسكت عنه الغضب، فقد معهما كل ظل من ملكاته. محاسن الناس لا تثيره ولا تحرك نفسه. فهو يقول الشعر لأنه مغيظ. وقد تساءل جرفينفال فى أهجيته الأولى عن السبب الذى يدعوه إلى الهجاء، ثم أجاب عن ذلك بأن الغضب يدفع إلى الشعر. ولقد يكفى أن يفتح إنسان عينيه فى بساطة، ليعرف أن من الصعب أن لا يقول هجاء.

الهجّاء ساخط على المجتمع ثائر على ما فيه ضيق به. وهذا الشعور مركوز فى نفسه، مستقر فى باطنه. فهو يحول بينه وبين إدراك الجانب المضىء من الحياة. فهو كالثور الذى لا يحركه إلا منظر الدم. هو جلاد لا يرى من عمله تعليق النياشين على صدور الأكفاء، ولكنه يصب سوطه على ظهور المجرمين.

ولو تتبعنا تاريخ الهجائين فى الآداب المختلفة لرأيناهم قد قاسوا من الحياة ما بغضها إليهم، وحقرها فى نظرهم، وجعلهم يتطيرون بكل شىء فيها. فالهجاء نتيجة عقدة نفسية، وربما كان فى كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص.

كان الحطيئة دميم الخلقة مغموز النسب. وكان جرير متواضع النشأة والنسب. وكان بشار مشوه الخلق وكان أبوه مولى مهينا. وكان الجاحظ أسود قصيراً دميما. ولو تتبعنا شعراء الموالى فى العصر الأموى لوجدناهم فى معظمهم هجائين. منهم أبو عطاء السندى (١) وزياد الأعجم (٢) والرماح

(١) الشعر والشعراء ٢٩٦، الأغانى ١٦ : ٨١

(٢) الشعر والشعراء ٢٩٨، والأغانى ٢ : ٢٦٣

ابن يزيد [١] وأبو العباس الأعمى [٢] وبشار . وكذلك شأن الهجائين فى مختلف الآداب . فنى الأدب اللاتينى نجد أن جوفينال كان موتوراً لاقى فى نشأته الأولى كثيراً من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء ، يضع نفسه تحت حمايتهم وينال عطاءهم لقاء شعره . وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يعتمد عليهم فى حياته . فترك ذلك فى نفسه مرارة لاذعة، تبدو فى قوله (إنه لخير للإنسان أن يكون كل ما يملكه ضباً واحداً من أن يكون له قصر فى روما) . وكان مارشيال مضطرباً معذباً مدة إقامته فى روما ، وقد اضطر آخر الأمر أن يعود — غير آسف — إلى وطنه فى اسبانيا . أما استاذهما هوارس فقد كان أبوه رقيقاً معتقاً . وقد مرت بحياته أزمات كاد يموت فيها جوعا . ولم يستطيع أن يحصل على عيشه إلا كاتباً للنائب الذى يتولى تحقيق قضايا القتل والإفلاس (Quaestor) .

وكذلك كان شأن الهجائين فى الأدب الأنجليزى. كانت حياة بوب (Pope) مرضاً طويلا كما يصفها هو . فقد كان عاجزاً عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة . وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطراً أن يلبس نوعا مزدوجا من الفرو تحت قميصه المبطن الكثيف . وكان أحد جنبيه متقلصا لايستطيع الوقوف منتصباً إلا إذا شدّ وسطه بنطاق من نسيج صلب . وكان لنحول ساقيه يضطر للبس ثلاثة أزواج من الجوارب ، لا يستطيع ارتداءهما أو نزعهما بغير مساعدة . وكان ينتابه مع ذلك كله صداع منهك يحطم ما بقى من قواه . وقد قضى بعد موت أمه حياة مُوحشة مقفرة لأنه لم يتزوج .

وكذلك كانت حياة صديقه سويفت (Swift) مؤلف رحلات جاليفر (Galliver's Travels) . فقد نشأ يتيما مات أبوه قبل مولده ، فتولى عمه

---

(١) الشعر والشعراء ٢٩٨

(٢) الأغانى ١٥ : ٥٩

تربيته ولم ينل لقمة العيش فى أول حياته إلا بعد تعب شديد . وقد قضى الأعوام السبعة عشر الأخيرة من عمره فى وحشة محزنة، ويأس من الحياة شديد ، بعد أن فقد أعز أصدقائه ، وتعاورته الأسقام والأوجاع . وفى هذه الوحدة الموحشة والضيق الشديد، كتب قصته الهجائية التى هى أروع ما كتب، فكانت أقسى ما رمى به الجنس البشرى من هجاء . وأى هجاء هو أقسى، وأى سخرية هى أنكى، من القسم الرابع الذى يتصور فيه أرضاً تحكمها الخيول، ويقوم فيها الآدميون ، أو (الياهو) كما يسميهم السادة الخيول، مقام الخدم ويعتبرونهم أحط أنواع الحيوان .

ولم يكن حظ جونسون (Johnson) أحسن حظاً من زميليه، فقد كان طفلا سقيما، وأول ما تعيه ذاكرته من حياته المشئومة أن الملكة آن لمسته لتشفيه من مرض خبيث كان الناس يزعمون أنه لا يشفى إلا بلمس الملوك (King-evil داء الملوك) . وكان بصره يعانى من الأمراض الرمدية . وكان جسمه موضوعا للأمراض العصبية والتشنجية . وقد بدء محاولته الأولى فى سبيل العيش حاجباً أو عريفاً فى مدرسة .

كل هذا يعلل لنا الميول الهجائية فى الهجائين، ولكنه لا يعلل لنا نبوغهم . فالسخط وحده قد يخلق هجاء، ولكن هذا الهجّاء لا ينبغ ويتفوق حتى تتوافر فيه صفات أخرى. وأول هذه الميزات وأبرزها دقة الملاحظة . فالهجّاء طلعة بصير يفطن إلى أدق التوافه وألطفها مما يحيط به ، وهو ينظر إلى كل ما حوله بعين الناقد الذى يلتمس العيوب ، فهو سىء الظن بالناس فى معظم الأحيان . وقد لا يحتاج الهجّاء إلى أن يكون عميق التفكير أو ممتاز الخيال، ولكنه لا يكون ناجحاً إلا إذا رزق العين الناقدة التى تحسن اختيار مواطن الضعف ، وتعرف أين تضرب فريستها . والهجّاء لا يرزق الذيوع والشهرة إلا إذا كان فى أسلوبه لذع يعتمد على الذكاء والفطنة . فهو لا يؤدى فكرته أداء مباشراً صريحاً ، ولكنه يشير إليها فى حذق، ويلمح إليها فى لباقة،

ويسخر من فريسته مداعبا . فجرير حين يهجو تيما بالجبن لا يقول فى صراحة إنهم يفرون من ميدان القتال، ولكنه يقول :

ترى الأبطال قد كلموا وتيم صحيحو الجلد من أثر الكلوم

وابن الرومى يقول فى نفس المعنى .

لا يعرف القرن وجهه ويرى قفـــاه من فرسخ فيعرفه

وابن الرومى من الهجائيين الممتازين باللباقة ويقظة النكتة . انظر إلى هذه الدعابة المضحكة والفكاهة الحـــلوة ، التى هى خليقة أن تغرى الناس بالحرص على الشعر فى قوله .

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والغـــدر
فتى وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر

ثم انظر إلى مايصف به نفسه من دمامة الخلقة .

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيـــه مساجد الجمع

ومارسيال يهجو شاعرا بتفاهة شعره فلا يقول له ذلك بصراحة ، ولكنه يتلطف فى أدائه فيقول :

تسألنى باپوميليانوس كيف فاتنى
أن أبعث إليك بشعرى الكثير
وعـــذرى أنك فى مقابله
قد تبعث إلى ببعض شعرك

والهجّاء مع هذا ماهر فى التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقبح الصور ، وأبعثها على الضحك والاستهزاء . ومن الهجّائيين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية فى الحس اللفظى تلتئم فيها الألفاظ (من حيث هى حروف تتوالى) بالصور التئاما عجيباً . ولا نكاد نعرف هجّاء عربيا

يعدل جريرا فى هذه الناحية . فهجاؤه يستفز القارىء للضحك قبل أن يروى فى معناه ويحققه . انظر إلى قوله .

ترى التيمي يزحف كالقرنبي   إلى سوداء مثل قفا القدوم

واعتبر غرابة الصورة وقبحها المضحك ، والتئام هذا مع الألفاظ التى تستجعل القارىء بالضحك أول ماتصافح سمعه . ولعل تكرار القاف ودورانها فى البيت مما يعين على ذلك ، ثم انظر إلى قوله :

كأنى إذ فزعت إلى أحيح   فزعت إلى مقوقية بيوض

أوزة غيضة لقحت كشافا   لقحقحها إذادرجت تفيض

واعتبر دوران القاف فى هذه الأبيات أيضاً . ثم استمع إلى قوله فى أم الأخطل

تغلى الخنانيص والفول الذى أكلت   فى حاوياوَىْ ردوم الليل مجعار

كيف يضحكك البيت قبل أن تتفهم معناه ، فإذا تعرفت إليه لم تجده شيئا. فهى تأكل الفول وصغار الخنازير فتضطرب فى أمعائها .

والهجاء — مع هذا كله — يعتمد على التأثير السريع والوضوح الخلاب . فأسلوبه يمتاز بالبساطة التى لا اثر فيها للتكلف. وقد يجمل فيه الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة العامية والحديث الشائع المتداول بين العامة . أما الفكرة العميقة، والفن الشعرى السامى، الذى يصدر عن الجهد الطويل، والإمعان فى التروى والتفكير ، فهو يذهب بشطر كبير من قوته وتأثيره . لم يفسد هجاء الفرزدق شيء كالتكلف . ولم يضعف هجاء أبى تمام شيء كالعمق والإبعاد فى الخيال ، ولعل هذا هو مايعنيه صاحب زهر الآداب بقوله (وأصحاب المطبوع أقدر على الهجاء من أهل المصنوع ، إذ كان كالنادرة التى إذا حدثت على سجية قائلها ، وقربت من يد متناولها ، وكان واسع العطن ، كثير الفطن ، قربت القلب من اللسان ، والتهبت بنار الإحسان[1]).

---

(١) زهر الآداب ٣ : ٥٣

الهجاء نقد للحياة . فهو يأخذ مادته من الواقع ولا يستمدها من الخيال أو التفكير . ولذلك كانت أبرز صفاته الواقعية البعيدة عن الإسراف فى الصناعة، والتى تقوم على تجارب الحياة ودقة الملاحظة لما يجرى فيها من أحداث . فهجاء المعرى فى لزومياته ليس إلا ملاحظات من صميم الواقع ، يندد فيها بالضعف الإنسانى فى شتى مظاهره من خداع ونفاق وغرور ورياء وقسوة وأنانية . فهذا رجل غليظ القلب يحمِّل حماره المسكين فوق مايطيق ، فإن عجز عن الحمل فرزح تحته أو ونى وفتر ، أحال عليه ضربا وجلدا :

لقد رابنى مغدى الفقير بجهله على العير ضربا ساء مايتقلد
يحمله مالا يطيق فإن ونى أحال على ذى فترة يتجلد
يظل كزان مُفتر غير محصن يقام عليه الحد شفعا فيجلد
تظاهر أبلاد الرزايا بظهره وكشحيه فاعذر عاجرا يتبلد

وهذا آخر يحتضر، ولكن الغرور لا يفارقه ، فهو يحرص على أن يوصى قبل موته ، وكأنه سيعود إلى الدنيا بعد أيام . .

يوصى الفتى عند الحمام كأنه يمر فيقضى ساعة ويعود
ومايئست من رجعة نفس ظاعن مضت ولها عند القضاء وعود

وذاك واعظ منافق يجلس إلى الناس، فيحرم عليهم الخبائث، وينهاهم عن الشر . وهو يأتى أغلظ الآثام عن عمد :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف يعل كأنما ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهن الكساء

وتلك امرأة مغرورة تؤمل أن يكون ابنها شيئا مذكورا، وترجو من حياته خيراً كثيراً ، فهى تأتى به إلى المنجم تسأل كم تراه يعيش ، والمنجم أجهل الناس بالغيب ، ولكنه حريص على أن يطيل فى عمره ليشبع غرورها ، فهى

لا تجزل له العطاء إلا إذا سخا فى تقدير سنه . فيزعم لها أنه سيعيش مائة سنة، ثم تنصرف الأم بوليدها، فيأتى عليه الموت لشهره . وهذه فتاة تسعى جاهدة لتجد زوجا، ظنا منها ان فى ذلك الخير ، وهى إن كانت عفة طاهرة فلعلها أن لا تقع على طاهر عف ! والناس يكرهون البنات ويحبون البنين، ويتصور أحدهم أن هذا الابن سيعلى من قدره فى الحياة ،وأنه سيسبق به الدنيا، فكانه المهر ينزل به إلى السباق مختالا ، وإنما هو وهم الإنسان وسفهه ، فليس أعدى للرجل من ولده . . .

سألت منجمها عن الطفل الذى في المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخـــذ درهما واتى الحمام وليدها فى شهره
قلب الزمان فرب خود تبتغى زوجا وتبـــذل غاليا فى مهره
إن كانت امراة الفتى فى طهرها فلعله لم يأتها فى طهـــره
كـره الجهول بناته وسايله أجنى لمـا يغتاله من صهره
أعدى عدو لابن آدم خلته ولد يكون خروجه من ظهره
وسفاهة الإنسان موهمـة له بذ القوارح فى الرهان بمهره

هذا هجـاء لا يقوم إلا على تقرير الواقع، وتقديم صور من الحياة ، كل قيمتها فى صدقها، وفى قدرة الشاعر على التقاطها من شتى الصور المتشابكة فى الحياة ، وانتشالها من بين أخلاط المناظر ، وأكداس المحسوسات . يبرزها للقارىء ماثلة مجسمة ، فكأنه يراها للمرة الأولى ، وهى تحت بصره وسمعه ، يمر بها فى كل يوم .

وإذا أعدنا النظر فى كل هذا الهجاء لم نجد فيه نصيبا كبيرا للخيال أو الصناعة الشعرية ، فهو كلام أشبه بالنثر ، يقرر الأشياء كما هى، كل عمل الخيال فيها هو التلفيق، وجمع أجزائها المبعثرة من هنا ومن هناك ،يلائم بينهـا ليخلق منها صورة كاملة .

والواقع أن التعمق فى الخيال،والإسراف فى الصناعة الشعرية، وفى تكلف

الجزالة وسمو العبارة، يضعف الهجاء ويفقده قيمته، لأنه يباعد بينه وبين الواقع، ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفقاً وإصابة فى هذا الفن، فهجاء أبى تمام فاتر لأنه يقوم على الصناعة، ولا يقوم على تقرير الواقع. انظر إليه كيف يبعد فى التكلف حين يهجو أبا المغيث فيقول :

هب من له شىء يريد حجابه ما بال لا شىء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أرانى سامعا أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

وحين يتناول نفس المعنى فى موضع آخر فيقول :

لا تكلفن وأرض وجهك صخرة فى غير منفعة مؤونة حاجب
ما كنت أول آخر فى قدرة أثرى فصغر قدر حق الواجب
خذ من غدى الجانى بخزيك ضعف ما أعطيتنى فى صدر أمسى الذاهب

ثم أنظر إليه فى هجائه لعياش لما يئس من عطائه، وإلى إفساده هجاءه بالإغراب فى التشبيه والتعمق فى الخيال :

محت نكباته سبل المعانى وأطفأ ليله سرج العقول
رجاء حل من عرصات قلبى محل البخل من قلب البخيل
فأجدى موقفى بنداك جدوى وقوف الصب فى الطلل المحيل
وأعكفت المنى فى ذات صدرى عكوف الدمع فى الخد الأسيل

فهذا شعر لا يفهم إلا بعد تدبر وروية وإعمال فكر. والهجاء يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول مايقرأه، فهو كالنكتة، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها.

وقد كان الأخطل — مع مكانته الشعرية — أقل زملائه الثلاثة حظا من هذا الفن، لأنه كان يجوّد شعره ويعنى بتسويته، ويذهب به مذهب الفخامة والتسامى. فهو لا يعيش مع الناس، ولا يستمد هجاءه من خصمه، ولكنه

يأخذه من فنه الشعرى . فبينما نرى جريرا يعتمد على الواقع وعلى دقة الملاحظة حين يهجوه بالبخل فيقول :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى   حك استه وتمثل الأمثالا

نجد الأخطل يعتمد على فنه وخياله حين يتناول نفس المعنى فيقول :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولى على النار

بيت جرير يستند إلى الواقع . فالصورة التى يقدمها حية لأنها من صميم الحياة . هذا الرجل البخيل قد تولته الحيرة ، وتملكه الاضطراب، حين نزل به الضيف، ولذلك فهو يكثر من هذه الحركات العابثة ،التى تصور رجلا لايدرى ماذا يصنع . فهو يتنحنح لأنه لايدرى ماذا يقول . قد حل به الرجل فى موعد الطعام ، وهو لا يريد أن يطعمه ، فبأى حيلة يصرفه ؟ فهو يحك بيده بعض أجزاء جسمه فى اضطراب ظاهر . ويصرف الضيف إلى التمثل ببعض الأمثال، لعله يجد فى ذلك مخرجا . هذه صورة حية لاشك، تستند إلى الملاحظة الدقيقة لما خفى من الحركات النفسية ومظاهرها الجسمية، تجعل الهجاء صورة ناطقة متحركة من الحياة .

أما بيت الأخطل فهو يقوم على الصناعة وحدها ، وليس فيه من الواقع شىء . فهو يستوحى خياله هذه الصورة الغريبة التى تجمع ألوانا من معانى البخل والامتهان والدناءة . لا يكاد قوم جرير يسمعون نباح الكلب ، حتى يعلموا أن ضيفا قد طرقهم، فيسرعون إلى النار يطفئونها . وهم يطفئونها بطريقة عجيبة ، يطلبون إلى أمهم العجوز أن تبول عليها ، مع ما فى ذلك من الامتهان لها والابتذال لحرمتها . والنار من الضئولة والتفاهة بحيث تكفى بولة عجوز لإطفائها . وهذه صورة — على مافيها من البراعة الفنية — أبعد الأشياء عن الحياة وعن الذى يحدث فيها بالفعل .

ويهجو الأخطل ابن بدر معيرا إياه هربه فى بعض الوقائع ، فينصرف إلى فنه الشعرى، يجوده ويختار له أروع الألفاظ ، ويصف الفرس ورا كبها

أجمل وصف وأبرعه . ولكنه ينسى أنه يهجو وأنه يهجو ليوجع خصمه ويشهر به . يقول :

ونجّى ابن بدر ركضُه من رماحنا ... بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر
إذا قلت نالته العوالى تقاذفت ... به سوحق الرجلين سابحة الصدر
كأنهما والآل ينجاب عنهما ... إذا هبطا وعثا يعومان فى غمر
كأن بطبيها ومجرى حزامها ... أداوى تسح الماء من حور وفر
فظل يفديها وظلت كأنها ... عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر
وظل يجيش الماء من متفصد ... على كل حال من هزائمه يجْرى
يُسِر اليها والرماح تنوشه ... فدى لك أمى إن دأبت إلى العصر
وبالله لو أدركنه لاضطرنه ... إلى صعبة الأرجاء مظلمة القعر
فوسد فيها كفه أو لحجلت ... ضباع الصحارى حوله غير ذى قبر

وهذا شعر رائع من الناحية الفنية ، ووصف ممتاز ، ولكنه هجاء ضعيف لايترك فى الخصم أثرا . وأين هو من هجاء جرير فى بساطته الواقعية الموجعة وتهكمه اللاذع، حين يقول :

حملت عليك حماة قيس خيلها ... شعثا عوابس تحمل الأبطالا
مازلت تحسب كل شىء بعدهم ... خيــلا تشد عليكم ورجالا
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم ... فسبى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتنا ... يامار سرجس لا نريد قتالا
هلا سألت غثاء دجلة عنكم ... والخامعات تجمع الأوصالا
ترك الأخيطل أمه وكأنها ... منحاة ساقية تدير محالا
ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ... ما لم يكن وأب له لينالا
خل الطريق فقد رأيت قرومنا ... تنفى القروم تخمطا وصيالا
إن حرموك لتحرمن على العدا ... أو حللوك لتؤكلن حلالا

والواقعية فى الهجاء تستند فى كثير من الأحيان إلى دقة الملاحظة، التى

تجعل أجزاء الموضوع واضحة ، وتعين الشاعر على اختيار الصور اللاذعة التى تؤذى خصمه، وتجعله أضحوكة بين الناس . فمن أمثلة هذا الشعر الهجائى الذى يقوم على دقة الملاحظة ، قول يحيى بن نوفل :

وأما بلال فـذاك الذى يميل الشراب به حيث مالا
يبيت يمص عتيق الشراب كمص الوليد يخاف الفصالا
ويصبح مضطربا ناعسـا تخال من السكر فيه احولالا
ويمشى ضعيفا كمشى النزيف تخال به حين يمشى شكالا

هـذا هجاء يقوم على الملاحظة الدقيقة لحالات الثمل ، واستخراج الصور اللاذعة من هذه الملاحظة . فهو يصور ذلك السكير الذى يلصق كأس الخمر بفمه ، ولايزال يرشفها فى تؤدة ،ولايطيق بعدها عنه ، كأنه الطفل الرضيع لا يطيق الفطام . ثم يصوره فى اضطرابه إذا أصبح مدوخ الرأس مطرقا ، وقد أثقل الخمار أجفانه ، فبدا وهو يقاوم النوم ويحاول فتح عينيه الثقيلتين وقد رنق فيهما النعاس، كأنه أحول . وهو إذا مشى لم يكد يستطيع نقل رجليه فهو يمشى متئدأ كالذى ألح عليه النزيف فأضعفه ، تضطرب رجلاه وتتداخلان ، كأنه دابة قيدت رجلاها بشكال .

ومن هذا الشعر الذى يقوم على دقة الملاحظة قول شاعر الحماسة :

وإذا مررت به مررت بقانص متشمس فى شرقة مقرور
للقمل حول أبى العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى دروز قميصه فذ وتوأم سمسم مقشـور
ضرج الأنامل من دماء قتيلها حنق على أخرى العدو مغير

فقد استطاع الهجاء أن يرسم صورة هزلية حية لهذا الرجل القذر ،الذى جلس فى الشمس ينتفض من البرد ، وقد خلع عنه ملابسه ، وراح يطارد هذه الحشرات التى لا تكاد تنتهى ، وقد التصقت بمواضع الخياطة من ردائه فرادى وجماعات كأنهـا سمسم مقشور . وهو مستغرق فى عمله قد تضرجت

أنامله من دماء هذه الحشرات التى يفركها بينها ، ولكنه حنق قد أصابه الملل لهذا الجيش الضخم من الحشرات الذى لا يكاد يستطيع أن يفرغ منه ، فهو لا ينفك ينقض فى غيظ على ما تبقى منها .

ومن هذا النوع قول شاعر الحماسة :

لا تنكحن الدهر ماعشت أيِّماً مخرمة قد ملّ منها وملت
تحك قفاها من وراء خمارها إذا فقدت شيئا من البيت جُنّت
تجود برجليها وتمنع درها وإن طلبت منها المودة هرت

فقد صور هذه العجوز الدميمة الفانية أدق تصوير وأبشعه . فنحن نتصور اضطرابها حين تحاول أن تتذكر شيئاً أودعته فى هذا المكان أو ذاك من البيت ، فلا تسعفها ذاكرتها التى أضعفتها الشيخوخة . فيجن جنونها ، وتظل فى حيرتها واضطرابها تحك قفاها من خلف الخمار الذى يغطى رأسها المتهدج فيزيدها قبحاً على قبح ، ويضاعف ما كساها الهرم من بشاعة المنظر .

ويهجو المتنبى ابن كيغلغ فيقول :

وجفونه ما تستقر كأنها مطروفة أو فُتّ فيها حصرم
وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
وتراه أصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذب مايكون ويقسم

فقد صور هذا الرجل أبعد الناس عن الرزانة أو الوقار الذى ينبغى لمن فى مثل مقامه . فهو كثير الحركة فى غير موجب ، تضطرب عيناه فى حركة عصبية دائمة ، كأنهما مطروفتان ، أو كأنما أصابهما حصرم ، فهو جاهد فى تخليصهما منه بموالاة فتحهما وإغلاقهما . وهو كثير الإشارات ، لا يكاد يستقر فى مجلسه إذا تحدث . فإذا ضحك قام وقعد ، وماج واضطرب ، مصوتا مغربا فى الضحك ، كأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم . وهو أصغر ما يكون فى نظر جليسه إذا تكلم ، لأن كلامه يكشف عن جهله وتفاهة عقله . وهو كثير الحلف ، وأكثر ما يحلف أبعد ما يكون عن الصدق .

كل هذه الصور تقوم على الملاحظة الدقيقة لأدق الحركات وألطفها . وهى مستمدة من صميم الواقع ومن قلب الحياة الجارية .

ومن مظاهر هذه الواقعية فى فن الهجاء، أن المثل التى يقوم عليها ويستند إليها مستمدة من تقاليد العصر ، ومن العرف الجارى بين الناس . فالهجاء — والشخصى منه بنوع خاص ، وهو شطر كبير من شعر الهجاء فى الأدب العربى — لا يبالى أن يخالف القيم الأخلاقية ، فيهجو بالدمامة والرثاثة والفقر، وأن يتورط فى الفحش والسباب ، ويهبط إلى التبذل فى المعانى والألفاظ . ذلك لأنه يقصد إلى الإيجاع والتشهير بالمهجو بين أهل عصره . وهذا هو النجاشى يهجو تميم بن أبىّ بن مقبل، بما لا بأس عليه منه عند أصحاب الأخلاق فيقول :

قبيّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يرون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

وأبعد منه فى المناقضة لأصحاب الأخلاق ، ما يهجو به قريط بن أنيف قومه حين يقول :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

واستناد الهجاء إلى قيم الحياة الواقعة يجعله عرضة لأن يفقد قيمته بتغير الزمن واختلاف الظروف ، فلا يخلد منه إلا ما يستند إلى عاطفة إنسانية عامة، أو نكتة مضحكة، أو دعابة ساخرة . ومن أمثلة ذلك الهجاء هجاء الحطيئة الذى يقوم على المفاضلة ، والذى هو فى معظمه تقرير لوقائع كانت معروفة فى ذلك العصر ، مثل قوله فى هجاء الزبرقان:

أتحصر قوما أن يجودوا بمالهم فهلا قتيل الهرمزان تحاصره
فلا المال إن جادوا به أنت مانع ولا العز من بنيانهم أنت عاقره

ولا هادم بنيان من شرفت له قريع بن عوف حلفه وأكابره
فإن تك ذا عز قديم فإنهم ذوو إرث مجد لم تخنهم زوافره
وإن تك ذا شاء كثير فإنهم ذوو جامل لا يهدأ الليل سامره
وإن تك ذا قرم أزب فإنهم يلاقى لهم قرم هجان أباعره
قروا جارك العيمان لما تركته وقلص عن برد الشراب مشافره
همو لاحمونى بعد فقر وفاقة كما لاحم العظم الكسير الجبائر

هذا شعر ليس فيه إلا تقرير الواقع والاستناد إلى القيم الاجتماعية التى كان يعيش عليها الناس فى ذلك الوقت . وهو شعر لانجد فيه اليوم من الروعة ما كان يجده فيه أهل عصره . ومع ذلك فقد كان يوجع الزبرقان ويمضه ألما، حتى لقد استعدى على الحطيئة عمر فسجنه . وكان موضع الإيلام فى هذا الشعر أن الشاعر يستغل ما بين المهجو وبين بنى عمومته من تنافس فى الشرف فيفضلهم عليه، ويقرر أنهم خير منه، وأنهم آووه وأطعموه حين قصرهو عن ذلك. وهذا هو مذهب الحطيئة الذى اشتهر به فى أهاجيه ، والذى نهاه عنه عمر، وهو استغلال لما عرف به العرب من التنافس والتكاثر والتفاخر .

ولما كان الهجاء الشخصى بعيداً جداً عن الاستناد إلى عاطفة إنسانية عامة، كان أخلده وأبقاه ما غلبت عليه الدعابة التى تغرى الناس بروايته والتندر به . والدعابة شيء موهوب غير مكسوب . فهى مركبة فى طباع الهجائين الممتازين، الذين لا تكاد عينهم تقع على الشيء، حتى تتدفق عليهم ألوان من الصور الفكهة، والأخيلة الساخرة، التى تسعفهم بها البديهة . وهى خاصة لاتدر على التفكير وإعمال العقل وكد المخيلة . فالصورة تلمح فى ذهن الهجّاء الساخر الفطن، فتسعفه بالنكتة الصائبة، بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله . وهذه الخاصة تصور ذكاءا لماحا، وهدوءا فى الطبع، وبروداً فى الأعصاب، يحتفظ بروح المرح بعيدة عن أن يطغى عليها الغضب فيفسدها ويذهب بها .

يرد ابن الرومى على شاعر هجاه فيقول له : لماذا تهجونى ؟ أليس يكفيك

فى هجائى أن آدم يجمعنى وإياك ؟ ثم يزعم أن إبليس لم يمتنع عن السجود لآدم إلا لأن هذا المهجو كان فى صلبه

أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى		مناسبنا فى ملتقى منه واحد
فلا تهجنى. حسبى من الخزى أننى		وإياك ضمتنى ولادة والد
فلو لم تكن فى صلب آدم نطفة		لخر له إبليس أول ساجد

ويهجو آل وهب لبخلهم فيزعم أنهم كثيرو الضراط . ثم هو يعجب لتناقضهم . فهم يسمحون بالضراط ولا يشدون رباطه ، بينما يشحون بالمال فيشدون عليه الرباط . ثم هو يمضى فى دعابته الساخرة فيقول : هلا صررتم على الضراط وحبستموه كما تصرون على الدراهم وتحبسونها ! فان لم تفعلوا فاسمحوا بتلك كما سمحتم بهذى . ولكن هيهات فأنتم لاتنشطون للعطاء . وإنما تفرطون فى شىء واحد هو الضراط . فعدلاً فى الحكم وسوّوا بين الأشياء .

يا آل وهب حدثونى عنكم		لم لاترون العدل والإقساطا
ما بال ضرطتكم يُحَل رباطها		عفوا ودرهمكم يُشَد رباطا
صروا رباطكم المبدَّد صركم		عند السؤال الفلس والقيراطا
أو فاسمحوا بنوالكم وضراطكم		هيهات لستم للنوال نشاطا
لكنكم أفرطتم فى واحد		وهو الضراط فعدلوا الأسفاطا

والمتنبى يهجو كافورا فيداعبه هازلا ، ويسخر منه متشمتا ، فيقول : من أين يتعلم هذا الأسود المخصى المكارم ؟ أمن قومه البيض ؟ أم من آبائه الصيد ؟ أم من النخّاس تدمى أذنه فى يده إذ يعرضه للبيع طالبا فيه فلسين ، فيستكثرهما المشترى ، ولايراه أهلا لأن يدفع فيه مثل هذا القدر ؟ ويمضى فى هذه السخرية معتذرا عنه فيقول : إن كويفيرا أولى الناس بعذر . فإن كرام الناس من البيض لتعجز عن الجميل وتقصر هممهم دونه ، فكيف نطالب به كافورا وهو عبد خصىّ !

من علم الأسود المخصىّ مكرمة		أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه فى يد النخاس دامية | أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللئام كويفير بمعذرة | فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة | عن الجميل فكيف الخصية السود

ويذهب به هذا المذهب فى قصيدة أخرى فيقول : إنى لأداريك فأريك الرضا وفى النفس ما فيها من الهم . ثم يعجب لهذا الأثيم، كيف جمع الله فيه الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخسة والجبن . ويقول : كل هذه المخازى فى واحد ! (أشخصا لحت لى أم مخازيا؟) إنى لأبتسم فى حضرتك، فيخيل لك غباؤك أنى أضحك اغتباطا برؤياك ،وما أنا ضاحك إلا من نفسى إذ أرجو من مثلك الخير ! ويمضى فى التندر به فيقول : ما أعجب رجليك فى سوادهما ! إنهما لتبدوان فى نعل وإن كانتا عاريتين . وإن قبح كعبيهما ليذكرنى ماضيك يوم كنت عبدا يسخرك سيدك فى حمل الزيت . وكأنى أراك فى ثوبك الخلق، تحمل الزيت، وقد لطخ جسدك، وبدت رجلاك عاريتين مشققتين . فإن لم أكن قد استفدت بالرحلة إليك مالا ،فقد استفدت التاهى بالنظر إلى مشفريك ! ومثلك حقيق أن يرحل إليه من بلاد بعيدة ! ومثلك حقيق أن يضحك البواكى من ربات الحداد الثاكلات !

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا | وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أمينا وإخلافا وغدرا وخسة | وجبنا. أشخصا لحت لى أم مخازيا !
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة | وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى | رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
ويذكرنى تخييط كعبك شقه | ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
فإن كنت لا خيراً أفدتُ فإننى | أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة | ليضحك ربات الحداد البواكيا

ويهجو أبو نواس رجلا اسمه إسمعيل بالبخل، فيقول إن أحدا لا يستطيع أن يزعم أنه رأى خبز إسمعيل . فهو كآوى لا وجود له، وإنما يعرف الناس ابن آوى!

على خبز إسمعيل واقية البخل فقد حل فى دار الأمان من الأكل
وماخبزه إلا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى فى حزون ولاسهل

ويتندر بهـذا الرجل فى موضع آخر، فيزعم أنه يجمع أنصاف الأرغفة وما يتبقى على المائدة من كسر الخبز ، فيلفقها بعضها إلى بعض ويرفوها ، حتى تصبح أرغفة من جديد . وهو يعجب لبراعة الرفاء الذى رفاها . ثم يزعم أن لهذا الرجل البخيل مذهباً جديداً فى الماء أيضاً ، فهو لا يسقى ضيفه الماء العذب خالصاً كما يشربه هو ، ولـكنه يقدمه له مخلوطا بماء البئر ، ويخص نفسه بالماء الصرف !

خـبز إسماعيل كالوشـى إذا ما شُقَّ يرفا
عجبـاً من أثر الصنـعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هـذا ألطف الأمة كفا
وله فى المـاء أيضاً عمـل أبدع ظرفا
مزجه العذب بماء البئـر كى يزداد ضـعفا
فهو لا يعطيك منـه مثـل ما يشرب صرفا

ومن مظاهر هذه الدعابة وصورها ، التلميح إلى المعنى والإشارة إليه ، فى رفق يكشف عن المقصـود دون التصريح به . وهو أسلوب تظهر فيه هبة الفنان ولطف صناعته فى علاج موضوعاته . فجرير حين يتهم نساء مجاشع ، لا يسمى فعلهن باسمه ، ولـكنه يلمح إليه بما يكشف عنه . فهو يقول إنهن يقمن بعد أن ينام الناس فتنبحهن الكلاب . وليس قيامهن لصلاة الوتر .

إذا قامت لغير صـلاة وتر بعيـد النوم أنبحت الـكلابا

و يتساءل : خبرونى ما شأن برزة إذ نذرت لله أن تصوم شهر محرم كله إن لم يطلع القمر ؟ وهى تتمنى غياب القمر — بالطبع — لأنه يفضحها ، ويكشف عما تفعل .

ما بال برزة فى المنحاة إذ نذرت صوم المحرم إن لم يطلع القمر ؟

ويهجو شاعر الحماسة رجلا بالقصر ، فلا يصرح بذلك ، ولكنه يتصور أن بيضة قد خرجت منه فسقطت على الأرض ، ثم يزعم أن هذه البيضة لا تنكسر لقربها من الأرض :

وأقسم لو خرت من استك بيضة ... لما انكسرت لقرب بعضك من بعض

ومن مظاهر هذه الموهبة أيضاً ، براعة الربط بين الصور . لا يكاد ابن الرومى يرى رجلا ذا لحية طويلة ، حتى تستدعى إلى مخيلته صورة حمار قد ربطت فى رقبته مخلاة :

إن تطل لحية عليك وتعرض ... فالمخالى معروفة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها إلى لطارت ... فى مهب الرياح كل مطير

ويتصور الأخطل طفلا من بنى العجلان يبكى فى طلب الطعام ، وقد ملت أمه صياحه فألقته فى أقصى الخباء ، فراح يدلك عينيه وهو مستمر فى صياحه ، فيذكره ذلك بمنظر خفاش قد انكمش فى ركن مظلم منطويا على نفسه :

وقد غبر العجلان حيناً إذا بكى ... على الزاد ألقته الوليدة فى الكسر
فيصبح كالخفاش يدلك عينه ... فقبح من وجه لئيم ومن حجر

وينظر جرير إلى الرجل القصير من بنى مجاشع ، الممتلىء سمنا ، وقد ضخمت عجيزته حتى أثقلته عن السير ، فينفرج فمه عن ضحكة عريضة ، إذ يذكره ذلك بمنظر برذون خصىّ ، قد تردّى فى الوحل ، فراح يقلع رجليه ويخلص نفسه منه جاهداً :

يفيش ابن حمراء العجان كأنه ... خصىّ براذين تقاعس فى الوحل

أو يستدعى إلى مخيلته صورة بغل ضخم قد جثم فوقه خرجان . وكأن هذا الرجل القصير المكتنز ، فى عجيزته الكبيرة ، بغل قد حمل خرجين ، لا يكاد ينهض للسير بهما إلا فى مشقة .

من كل منتفخ الوريد كأنه   بغل تقاعس فوقه خرجان

* * *

كل هذه الخصائص التى قدمناها تباعد من وجوه كثيرة بين الهجاء وبين الشعر عامة، فبينما يصدر الشعر عن الكد والإجهاد، فيزيده عمق الخيال جمالا فى الصور، وتضفى عليه الصناعة والملاءمات اللفظية حلاوة فى الموسيقى، نجد أن الهجاء يقوم على البساطة فى التعبير، تتلفه المعانى الغريبة والأخيلة البعيدة والصور المختارة والملاءمات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة. وبينما تقوم الصناعة الشعرية على التأنى والروية، والترفع عن ألفاظ السوقة وعبارات الدهماء، نجد أن الهجاء يقوم على التصوير اللماح، ونقل الحياة الواقعية بغير تهذيب، وبلغتها الشعبية فى بعض الأحيان. وقد يحسن الغموض فى الشعر إذا كان ملهما مثيراً، كالذى نجده فى صور الشعر الرمزى، ولكن مثل هذا الغموض متلف للهجاء، لأنه يقوم على الوضوح الخلاب.

لذلك كله، كان طبيعياً أن يتحول هذا الفن — الذى يقوم على نقد الحياة كما قدمنا — شيئا فشيئا من الشعر إلى النثر، حتى ينتهى به الوضع إلى أن يصبح فنا نثريا خالصا فى هذا العصر، فيأخذ شكل المقالة حينا، وشكل القصة أو التمثيلية الكوميدية فى حين آخر.

الهجـــاء والسحر

جاء فى دائرة المعارف الأسلامية فى مادة « الهجاء [1] »

«الهجاء فى أصله سحر أو لعنة، واشتقاق الكلمة غير معروف بالضبط. ولكنها قد تعنى فى أصلها شيئا قريبا من الرقية. وأصول الهجاء مرتبطة بفكرة قديمة، تزعم أن بعض الأفراد الذين لهم نفوذ خاص، إذا تلفظوا بكلمات، كان لها من القداسة والسلطان، ما يجعل لها تأثيرا دائما على الأفراد أو الأشياء التى تنصب عليها كلماتهم. وعلى ذلك فقد كان الشاعر فى أصل الهجاء، يطلع على الناس بقوة شعره السحرية، التى يوحيها الجن إليه».

هذا رأى يربط بين الهجاء والسحر. ويقتضينا تحقيقه أن نتصور الظروف التى أحاطت بنشأة الشعر، والأطوار المختلفة التى تناوبته.

مر الفن الكلامى فى أطوار مختلفة قبل أن يستوى شعراً كامل الأوزان، على الصورة التى وصلتنا قبيل الأسلام. وفق الأنسان فى زمن من الأزمنة لا نكاد نعرفه، ولا نستطيع تحديده، إلى ضرب من ضروب القول، امتاز من بين سائر الكلام، بنوع من التنغيم والنظام، ترتاح له الأذن، وتهتز له النفس، ففرح به، ولهج بتكريره، وتناقله الناس، فأغراه ذلك بتجويده وتثقيفه، لا يخضع فى ذلك إلا لقانون الحس الفطرى والذوق البدائى، والناس من ورائه يشجعونه، بما يرى من أثر كلامه فيهم، وتعلقهم به، وتردده على ألسنتهم. ولم يكن ذلك عمل فرد أو أفراد، ولكنه كان عمل الأجيال على يد طائفة ممتازة موهوبة، وجدت فى نفسها القدرة على أن تصوغ تجاربها وعلمها بما يحيط بها، ألحاناً فى حدود مدلولات الألفاظ ومعانيها التى تواضع عليها الناس.

---

(١) اعتمدت هنا على النسخة الانجليزية.

ولم يكن العربي فى هذه الأزمان يفهم من مدلول الشعر ما نفهم منه اليوم، بعد أن حددناه بحدود من الأوزان والقيود . فقد كان مدلوله فى نفسه أعم وأشمل . كان الشعر عندهم ضرباً من الكلام المنغم المثير ، تتعاطاه طائفة ممتازة من بينهم ، اصطلحوا على تسميتهم بالشعراء ، لأنهم علموا ما لا يعلمون ، وفطنوا إلى ما لا يفطنون ، فقد كان كل علم شعراً — كما يقول صاحب القاموس — ولم تكن فتنتهم بهذا الضرب من ضروب القول الذى سموه شعراً ، لما فيه من وزن وتنغيم ، ولكنهم فتنوا أيضاً بما تميز به من النفاذ إلى حقائق الأشياء ، وأسرار الكون ، وحكمة الدهور . فلم يكن عجيباً أن يسموا هذه الطائفة « شعراء » . فقد كانوا هم العلماء حقاً . فالحكيم الذى ينطق بالعبرة والأمثال شاعر . والكاهن الذى ينفذ إلى حجب الغيب شاعر . والرجل الذى يصور ماخفى ودق من مواطن الجمال وخفايا النفوس شاعر أيضاً . وظل الناس يحفظون هذه الآثار ويتناقلونها معجبين بها ، حتى جاء عصر التدوين ، واكتشف الدارسون أن فى شعرهم نوعا من الوزن، حاولوا تحديده وضبطه ، فسموا ما استقام على هذه الموازين شعراً ، وأخرجوا ما لم يستقم عليها فسموه سجعا أو أمثالا ، وأصلحوا بعضه حتى يستقيم على ما عرفوا من أوزان.

فالأمثال كقولهم : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، « إن البلاء موكل بالمنطق » ، « قطعت جهيزة كل خطيب » . والسجع مثل خطبة قس المشهورة.

أيها الناس :

إسمعوا وعوا .

أنظروا واذكروا .

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج .

ألا إن أبلغ العظات، السير فى الفلوات ، والنظر فى محل الأموات .

إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا .
ما لي أرى الناس يذهبون ، فلا يرجعون .
أرضوا هناك بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
يا معشر إياد :
أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد .
أين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد ، وغره المال والولد .
أين من طغى وبغى ، وجمع فأوعى ، وقال أنا ربكم الأعلى .
ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا ؟
في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر .
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر .
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر .
لا يرجع الماضي إلىّ ولا من الباقين غابر .
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر [١] .

مثل هذا كان شعراً في عرف العربي الجاهلي . والقرآن أيضاً كان شعراً في نظره . وقد احتاج النبي إلى أن ينفي ذلك أكثر من مرة ، ونزل به القرآن في أكثر من موضع ، مما يدل على تمكن هذا الوهم من نفوسهم .

ولم تكن أوزان الشعر الذي عرفه الجاهليون مستقيمة في كل الأحيان على المقاييس التي وضعها أصحاب العروض فيما بعد . روى ابن إسحق في بناء مسجد المدينة : وارتجز المسلمون وهم يبنونه : « لا عيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » وليس هذا عند العروضيين بشعر ولا رجز . ولكنه كان شعراً في عرف الجاهليين . ودليلنا على ذلك ما يروى صاحب السيرة من عدول النبي عنه — وقد كان لا يقول الشعر ولا يرويه — فكان

(١) راجع الملزمة الثانية من الروائع للبستاني في كلامه عن الانشاد .

يقول معهم : « لاعيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم المهاجرين والأنصار[٢] »

وروى ابن إسحق فى السيرة قصيدة لأمية بن أبى الصلت يبكى زمعة بن الأسود وقتلى بدر ، ثم يقول ابن هشام : « هذه الرواية لهذا الشعر مخلطة ليست بصحيحة البناء » . ثم يرويها مستقيمة الأوزان عن خلف . ولعل الرواية الأولى هى الصحيحة والرواية الثانية قد أصلحها خلف .

ولا يزال لدينا مع ذلك آثار قليلة تصور بعض الشعر الذى لم تكتمل أوزانه . مثل قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

ومثل قول المرقش الأصغر .

لابنة العجلان بالجو رسوم لم يتعفين والعهد قديم

ومثل قول امرىء القيس :

رب طعنة مسحنفرة ، وطعنة مثعنجرة .
وجفنة مستحيرة ، حلت بأرض أنقرة .

وقوله :

تطاول الليل علينا دمون ، دمون إنا معشر يمانون .
وإننا لقومنا محبون

وكذلك قول الشماخ :

قالت ألا يدعى لهذا عراف لم يبق إلا منطق وأطراف
وريطتان وقميص هفهاف وشعبتا ميس براها إسكاف

وليس هذا الذى يسميه العروضيون زحافات وعللا، إلا تفسيراً لشذوذ هذا الشعر فى بعض الأحيان، عن الأوزان التى استنبطها العروضيون فيما بعد .

وجد النـاس السجع أولا فتغنوا به . ورددوه فى حروبهم أفراداً وجماعات ، مصوراً لما يجيش فى صدورهم من حمية وحماس ، يشحذون به الهمم ، ويثيرون به النفوس . ورددوه فى عملهم اليومى ، وهم على الآبار

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٢

يمتحون المـاء ، أو فى الفلوات يسوقون الإبل ، يروحون به عن نفوسهم ، ويخففون بنغماته الحلوة ووقعه المريح ما يعالجون من نصب وتعب .

وأخذ هذا السجع يتطور نحو الكمال ، حتى استوت فقره رجزاً ، مثل قول الكاهن[1] .

« مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ، ذلت له البطاح ، ماينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ، ومُوِّت الرماح » فكله من وزن مستفعلن مستفعل . وقد أعان السجع على هذا التطور عاملان : العامل الأول ملاءمته لهذه الحركات المنتظمة ، التى يلازمها ويرتبط بها . والعامل الثانى الترفع الذى ينشأ عن طبيعة الموضوعات التى يعالجها ، وهى أسمى من الواقع المسف ، وأكثر تعلقا بالخيال السابح ، والطرب المستخف الراقص ، الذى يدفع إلى نوع من النظام الموسيقى، فى أدنى صوره إلى الكمال .

وعند ذلك فطن الناس إلى أصل من أصول النظم أخذوا أنفسهم به ، وهو تساوى الفقر وتوازيها . ثم راحوا يتسابقون فى حدود هذا القيد الجديد، كلما اهتدى أحدهم إلى ضرب من ضروب الوزن مضى فيه ، وسار الناس على أثره من بعده ، حتى استقرت الأوزان بحوراً مختلفة ،على الشكل الذى وصل إلينا قبيل الإسلام .

ولمـا تعقد الفن الكلامى ، ووصل إلى هذه الدرجة من الكمال ، لم يعد كل الناس قادرين عليه ، ولم يعد القادر عليه يستطيع أن يجمع بينه وبين عمله اليومى ، فاختصت بالشعر طائفة موهوبة، وقفت عليه جهدها . وعرف الناس لهم مكانهم منه ، فأعظموا فيهم قدرتهم عليه . وأصبح الشعر صناعة كسائر الصناعات ، يتتلمذ فيها الناشىء على الأستاذ ، فيلازمه ، ويروض أذنه وحسه بما يعى ويروى من شعر أستاذه، حتى تنضج فيه الملكة الشعرية .

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ١٤٣ .

وغلب على شعرهم نوعان من الوزن ، اصطلحنا على تسميتها فيما بعد بالطويل والبسيط . وإنما غاب هذان البحران لاتساعهما لتصوير العواطف المختلفة ، والمواضيع المتباينة ، التى يتنقل بينها الشاعر فى القصيدة الواحدة . فالشاعر يصف فى القصيدة الواحدة حبه وحزنه ، وحماسته وغضبه ، ويتأسى فى حبه وحزنه بأخبار من مضى ، وأحداث من غبر ، فيقص أطرافا من أخبارهم ، ويسجل فى حماسته تاريخ قبيلته ومجدها بما يروى من وقائعها ، ويصف فى أثناء هذه الجولات مايقع تحت حسه من صحراء وحيوان . وهو يلتزم فى كل هذا لوناً واحدا من النظام والوزن . لذلك كان البحر المتسع أكثر مايطاوعه ويلائم مايذهب إليه من سعة التصرف والتنقل بين القصص والغناء المختلف الألوان . وهذان البحران شبيهان بالوزن السداسى ، الذى اصطنعه الشعراء القدماء عند اليونان واللاتين فى شعرهم القصصى والهجائى (hexameter [١]) فكل منها يتكون من اثنى عشر مقطعاً صوتياً طويلا .

---

(١) الـ hexameter هو بحر غلب استعماله فى الشعر القصصى عند اليونان ، وعليه نظم هومير ملاحمه ، وقد نقله إلى اللاتينية إينيوس Enius (٢٣٩ — ١٦٩ ق . م) ولـكنه لم ينضج إلا على يد فرجيل Virgil الذى نظم عليه ملحمته المشهورة الانيادة Aeneid (٧٠ — ١٩ ق . م) . ويتكون الـ Hexameter من ستة وحدات عروضية (6 feet) الأربعة الأول dactyles يتكون كل منهما من مقطعين قصيرين ومقطع طويل (UU —) أو spondees (— —) والخامس dactyle (— UU) أو spondee (— —) والسادس spondee (— —) أو trochee (— U) فيكون البحر فى مجموعه :

— — UU — — — — — — — — —

أو

U — — — UU — UU — UU — UU —

ومجموع المقاطع الصوتية فى هذا البحر إثنا عشر مقطعاً صوتيا طويلا (باعتبار أن كل مقطعين صوتيين قصيرين يعادلان مقطعا صوتياً طويلا كما هو معروف فى علم الاصوات) .

ولو قابلنا هذا البحر بالبحر الطويل والبحر البسيط فى الشعر العربى لوجدنا أن كلا من البحرين يشتمل على نفس العدد من المقاطع الصوتية . فالبحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) ينحل إلى المقاطع الآتية :

فـ عو لن مـ فا عيـ لن فـ عو لن مـ فا عيـ لن

— — — U — — U — — — U — — U

والبحر البسيط ينحل إلى المقاطع الآتية :

مس تف ع لن فا ع لن مس تف ع لن فا ع لن

— U — — U — — — U — — U — —

كان الشاعر كما قلنا عالم القوم الذى ينفذ ببصيرته إلى مالا يرون ، ويصوغ بحكمته تجارب الأيام وموعظة الأزمان ، ويتسلط ببيانه على نفوسهم ومشاعرهم ، فيتصرف فيها ، ويذهب بها شتى المذاهب،غضباوحماسة ، وصبابة وحزنا . وكانت هـذه الطبقة تتميز عندهم بشىء من الغرابة تشذ به عن سائر الناس . كانوا يستعينون على الشعر بالتفرد والوحدة . وكان الليـل أحب الأوقات إليهم ، يعالجون فيه الإنتاج ، وقد هدأ الليـل ، وسادته وحشة الظلام الرهيب . وربما استجاب الشعر للشاعر وانثال عليه انثيالا عند أول نداء ، وربمـا هاج وماج ، واضطرب اضطراب الوحش الجائع قد حبسه القفص ، يلتمس إخراجه من نفسه ، فلا يدرّ درّه ، ولا يسيل سيله . ذلك بأن فى الشعر قدرا من الإلهام غير منـكور . والنفس الإنسانية غريبة فى ملكاتها ، غامضة فى حالاتها ، وفيما يطرأ عليها من صفاء وإظلام ، وانطلاق وانقباض . فربمـا صفت النفس الإنسانية فانطلقت فى سخاء ، ونفذت إلى الحقائق فى سهولة ويسر . وربما انقبضت فإذا هى جدبة مظلمة لا تجود بشىء. وهذه حالات لا تجرى على نظام ثابت أو قانون معروف تستجاب به ، فليس يتهيأ للشاعر أن يصفو ويسخو حين يريد ومتى شاء ، ولا هو حين يصفو ويجود يكون صفاؤه بقدر واحد فى كل حال . وقديما قال الفرزدق : أنا أشعر الناس عند الناس ، وقد يأتى على حين وقلع ضرس أهون عندى من قول بيت شعر [١] . لذلك دخل فى وهم هـذه الطائفة من الشعراء أن الشعر يأتى من مصدر خفى ، ويهبط من عالم بعيد . فتصوروا أن وراءهم شياطين يمدونهم بما يقولون . ورسخ هذا الوهم فى نفوسهم ، واستقر فى أذهان الناس ، فأكسبهم عندهم رهبة وجلالا . واختلط فى أذهانهم الشاعر والساحر والكاهن ، فهم جميعا ينتمون إلى دولة الظلام الغامضة الرهيبة ، ومن وراء كل واحد منهم قوة خفية تمده وتعينه . وأعان على هـذا الاضطراب والخلط

---

(١) العقد الفريد ٦ : ١٧٥

ما كان يجرى على ألسن السحرة والكهان من كلام شعرى منمق، يصوغون فيه أحكامهم ونبؤاتهم. فالسحر يقوم أول مايقوم على التأثير فى النفوس واسترها بها. والساحر يستعين على إلقاء الرهبة فى صدور الناس بالبخور، وبالتلاوات الغريبة التى يسمونها «التعاويذ» أو «العزائم»، يستغل بها مافى الكلام من خواص صوتية، فيشغل بها الحواس، ريثما ينفذ إلى النفوس، فيقر فيها مايشاء [1]. وقد كان الشعر عندهم شبيها بهذا فى تأثيره ونفاذه.

والقارىء للقرآن وللنصوص العربية القديمة يجد الأدلة الكثيرة على صحة ماذهب إليه. فالعرب أولا لم يفرقوا بين القرآن والشعر وتعاويذ السحرة. فكان النبى فى وهمهم شاعرا وساحرا وكاهنا فى آن معا. تشهد بذلك الآيات القرآنية الكثيرة:

«ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لسحر مبين» (الأنعام ٧ مكية)

«أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين» (يونس ٢ مكية)

«نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا» (الإسراء ٤٧ مكية)

«ما يأتيهم من ذكر من ربهم إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم. وأسروا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام. بل افتراء. بل هو شاعر. فيأتنا بآية كما أرسل الأولون» (الأنبياء ٢—٥ مكية)

«وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق! لولا أنزل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٨٠، ٤٠٦

إليه ملك فيكون معه نذيرا؟ أو يلقى إليه كنز؟ أو تكون له جنة يأكل منها ؟
وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » (الفرقان ٧—٨ مكية)

« وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (الشعراء ٢١٠—٢١٢ مكية)

ثم يجىء بعد ذلك ببضع آيات « قل أؤنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

(الشعراء ٢٢١—٢٢٧ مكية) . (١)

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هـذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا ما هـذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (سبأ ٤٣ مكية)

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » (يس ٦٩ — ٧٠ مكية)

« وإذا رأوا آية يستسخرون .وقالوا إن هذا إلا سحر مبين »

(الصافات ١٤ — ١٥ مكية)

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٥—٣٦ مكية)

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب » (ص ٤—٥ مكية)

---

(١) يجب ملاحظة أن الآيات ٢٢٤ — ٢٢٧ مدنية والسابق لها مكى . فالمكى ينتهى عند الآية « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » والتالى لذلك مدنى . وهو يصور شعراء النبى الذين يدافعون عن الاسلام منتصرين من شعراء قريش الذين يهاجمون الدعوة . والآية الأولى واضحة الدلالة فى الاشارة إلى ما كانت تعتقد العرب من أن لكل شاعر شيطانا .

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون .
أتواصوا به ! بل هم قوم طاغون » (الذاريات ٥٢ — ٥٣ مكية)

« يوم يدعّون الى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذّبون .
أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون » (الطور ١٣ — ١٥ مكية)

« فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر
نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين »

(الطور ٢٨ — ٣١ مكية)

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم . وكل أمر مستقر »

(القمر ٢ — ٣ مكية)

« ن، والقلم وما يسطرون، ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا
غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون »

(القلم ١ — ٦ مكية)

« إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . قليلا ما تؤمنون .
ولا بقول كاهن قليلا ما تذكّرون . تنزيل من رب العالمين »

(الحاقة ٤٠ — ٤٣ مكية)

« إنه لقول رسول كريم. ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثَمَّ أمين.
وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين .
وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ! إن هو إلا ذكر للعالمين »

(التكوير ١٩ — ٢٧ مكية)

* * *

كل هذه الآيات واضحة الدلالة فى اختلاط مفهوم الشعر والسحر فى أوهام العرب ! وواضحة الدلالة أيضا فى أن العرب لم يفهموا من الشعر إلا أنه كلام منمق، يؤثر فى المشاعر، ويهز النفوس ويحركها . ولذلك سموا القرآن

شعراً، وسموه سحراً . والسحر لغة هو كل ما لطف مأخذه ودق . وسحر كمنع خدع . فالملحوظ فى اشتقاق السحر اللغوى ، الخداع وقوة التأثير، وهو واضح فى الشعر . ويعين على ماذهب إليه قول لبيـــد ، وقد انقطع عن الشعر بعـد إسلامه (فى سورة البقرة وآل عمران غناء عن الشعر) والقارىء للسيرة يلاحظ أن النبى كان يتلو القرآن على الذين يعرض عليهم الإسـلام فيتأثرون به . فكان العرب يرون أن له من قوة التأثير ما للتعاويذ والسحر . وربما فرّوا من سماعه، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم، خشية التأثر به والوقوع تحت سلطانه . وهـذا هو الطفيل بن عمرو السدوسى ، يقدم مكة ورسول الله فيهـا — وكان رجلا شريفا شـاعرا لبيبا — فنستقبله قريش وتصده عن لقاء النبى، وتحذره من سماعه قائلين «وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا . فلا تكلمنه ،ولا تسمعنّ منه شيئا . ويستمع الرجل إلى نصيحة قريش، فيجعل فى أذنيه قطنا وقد غدا إلى المسجد ، حتى لا يبلغه شىء مما يقول . ولـكنه لا يلبث أن يقبل على النبى، فلا يكاد يتلو عليه القرآن حتى يؤمن[١] . وقد وصف العرب النبى بحلاوة المنطق، والغلبة على قلوب الرجال بما يأتى به[٢] ، ولم يفرقوا بين حالة الوحى التى ربما اعترته فيها الغيبوبة فتصبب وجهه عرقا ، وبين ما يصيب السحرة والـكهان من مثل هذه الحالات . وهذا هو عتبة بن ربيعة ، يلقى النبى فيقول له فيما يقول : « وإن كان هذا الذى يأتيك رئيّاً لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه . فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه . وهذا هو الرسول يستمع إليه، حتى إذا فرغ من حديثه تلا عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم .حم . تنزيل من الرحمن الرحيم

---

(١) السيرة ٢ : ٢٢

(٢) السيرة ٢ : ١٢٦

كتاب فصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) ويمضي فيها يقرأها ، حتى إذا بلغ السجدة سجد ، وعتبة ينصت إليه كالمأخوذ ، وقد ألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يسمع منه . فإذا عاد إلى قومه قالوا له : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه[١] » .

وأمام ما ذهب إليه العرب من أن القرآن شعر ، اضطر النبى أن يعدل عن الشعر ، لا يقوله ولا يرويه . وإذا رواه خالف بينه ، وقدم فيه وأخر ، حتى يخل بوزنه . فهو إذا روى مثلا قول ابن عباس[٢] :

فأصبح نهبى ونهب العبيد بين عيينه والأقرع

يقول : فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينه

وإذا ترنم مع المسلمين فى بناء مسجد المدينة قال : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » ، وهم يقولون : « الأنصار والمهاجرة[٣] » .

* * *

وقد كان فن الهجاء من أكثر الفنون الشعرية ارتباطا بالسحر فى أوهام العرب . ذلك لأن الخفاء والغموض اللذين لازما فن الشعر ، كانا أليق بالشر ، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف فى قلوب الناس . فقد كانت العرب تزعم أن لكل شاعر رئياً من الجن يسمونه تابعا أو هاجسا ، وذلك واضح فى قصصهم وفى شعرهم ، وواضح فى القرآن أيضا .

قال عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الجن منا وشذبنا قتادة من يلينا

وقال أبو النجم فى مراجزة العجاج من أرجوزته (تذكر القلب وجهلا ما ذكر) :

---

(١) السيرة ١ : ٣١٣ — ٣١٤ .

(٢) السيرة ٤ : ١٣٧

(٣) السيرة ٢ : ١٤٢

إني وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقال الأعشى ، في هجاء جهنام ، يذكر (مسحلا) شيطانه ، وما يهدى له من شعر :

فلما رأيت الناس بالشر أقبلوا   وثابوا إلينا من فصيح وأعجم
وصيح علينا بالسياط وبالقنا   إلى غاية مرفوعة عند موسم
دعوت خليلي مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم
حباني أخي الجني نفسي فداؤه   بأفيح جياش العشيات خضرم

وقال في موضع آخر يذكر شيطانه :

وما كنت شاحرداً ولكن حسبتني   إذا مسحل سدّى لى القول أنطق
شريكان فيما بيننا من هوادة   صفيّان جنى وإنس موفق
يقول فلا أعيي لشيء أقوله   كفاني لا عى ولا هو أخرق

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

فرَّ منّى هاربا شيطانه   حيث لا يعطى ولا شيئا منع
وأتاني صاحب ذو غيّث   زفيان عند إنفاد القرع
قال لبيك وما استصرختُه   حاقرا للناس قوال القذع
ذو عباب زبد آذيُّه   خَمِط التيار يرمى بالقلع
زغربىٌّ مستعز بحره   ليس للماهر فيه مُطَّلَع

وجرير يهجو الراعي وابنه بالقصيدة المشهورة (أقلى اللوم عاذل والعتابا) التي يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فيرحل الراعي وابنه ، حتى إذا وصل إلى قومه ،وجد الشعر قد سبقه إليهم فيما يقول الرواة ، فيقسم الراعي ما بلّغها إنس ، وإن لجرير لأشياعا من الجن ، ويتشاءم قومه به وبابنه[1] .

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٥٠

ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح . فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور، وينصب ماتضمنت من لعنة على المقصود بالإيذاء ، والهجاء كذلك كلمات تقال فيها معنى الشر واستمطار اللعنة . والساحر يتوسل إلى شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه على إلحاق الأذى بالمسحور ، والهجّاء يستلهم شيطانه الهجاء ويستعينها على المهجو . ولذلك غلب ذكر شياطين الشعر فى الهجاء بنوع خاص كما هو واضح فى الأمثلة التى قدمناها . ولأمر ما نسب الناس هذه القوة الخفية التى تمد الشاعر بالشعر للشر ولم ينسبوها للخير، فقالوا (شيطان الشعر) ولم يقولوا (ربة الشعر) كما تعود اليونان أن يقولوا .

وقد كان الشاعر إذا هجا ربما خرج على الناس فى زى غريب غير مألوف، وبالغ فى مسخ شكله وتشويه خلقته . قال الرافعى فى تاريخ الأدب [١] نقلا عن أمالى المرتضى ١ : ١٣٥ (وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم. فأرادوا تقديم لبيد ليرجز بالربيع بن زياد رجزا مؤلما ممضا — وكان هو الذى صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم — فحلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة . وغدوا به معهم فدخلوا على النعمان ، فقام وقد دهن أحد شقى رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة . قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل فى الجاهلية إذا أرادت الهجاء [٢] .

ونقل الرافعى كذلك عن الأغانى ج ٤ : ٣ : وكان زى حسان بن ثابت فى خضابه فكان يلوث شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ فى الدم . وروى الألوسى فى بلوغ الأرب [٣] (والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقى رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة).

لذلك كان العرب شديدى الخوف من الهجاء . وكانوا يرون بيت الهجاء متضمنا قوة خفية ، ولعنة تصيب من تحل به . يقول مزرد بن ضرار الذبيانى

---

(١) تاريخ الأدب للرافعى ٣ : ٢٣

(٢) وقد نقل نكلسون نفس الخبر فى كتابه (تاريخ الأدب العربى).

(٣) بلوغ الأرب ٣ : ٤٠٧

(أخو الشماخ بن ضرار) فى رجل من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاما من قومه فاشترى إبله بغنم ـ وهو هنا يندد بخدعة الرجل، طالبا إليه أن يرد الإبل، وقد صورها مصابة بالجرب وبمختلف الأدواء ،وكأنه يريد أن يشأمها وينزل بها اللعنة والبوار :

فيا آلَ ثوب إنما ذَوْدُ خالد ... كنار اللظى لا خير فى ذود خالد [١]
بهن دروء من نُحـاز وغدة ... لها ذربات كالثدى النواهد [٢]
جربن فما يُهـنأن إلا بغَـلقـة ... عَطيـنٍ وأبوال النساء القواعد [٣]
فلم أر رزءا مثله إذ أتاكمُ ... ولا مثل ما يهدى هدية شاكد [٤]

ويؤيد ذلك ما روى صاحب السيرة ،من أن أبا سفيان بن حرب ألقى ابنه معاوية أرضا، فرقا من دعوة خبيب ،حين قال وقد أخذوه ليصلبوه « اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحـدا » وقد كانت العرب تزعم أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه [٥] . وشبيه بهذا ماروى ابن الأثير فى يوم الكلاب الثانى ، من أن بنى تميم أسروا أحد شعراء بلحارث ، فلما أخذوه ليقتلوه شدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم [٦] . وكان الشاعر ربما عجز عن دفع مظلمة، أورد حق غصب منه ، فلا يستعين على ذلك الا بلسانه، فيهاب الناس هجاءه أكثر مما يخافون سيف الفاتك الجبار . وهذا هو زهير تنهب إبله ، فلا يجد فى نفسه القوة على استردادها ، فيهدد بالهجاء ، وكأنه يهدد بشىء خطير :

لئن حللت بجو من بنى أسـد ... فى دين عمرو وحالت بيننا فـدَك
ليأتينك منى منطق قذع ... باق كما دنس القبطيةَ الودك

---

(١) الذود الجماعة القليلة من الابل.

(٢) الدروء جمع دره بفتح فسكون وهو النتوء . النحاز داء يأخذ الدواب والابل فى رئاتها فتسعل سعالا شديدا . الغدة طاعون الابل . الذربات جمع ذربة بفتح فكسر وهو رأس الخراج .

(٣) جربن أصابهن الجرب . يهنأن يطلين . الغلقة شجر يدبغ به . عطين معطون لأنها لا يدبغ بها إلا بعد عطنها.

(٤) الشاكد المهدى والشكد الاهداء.

(٥) السيرة ٣ : ١٨٢

(٦) ابن الأثير ١ : ٣٨١

الشاعر والقبيـــلة

لم يزل أمر الشعراء يكبر فى عيون الناس ويعظم فى نفوسهم ، حتى احتلوا من قبائلهم مكاناً ممتازا ، وصار الناس يفدون على القبيلة مهنئين إذا نبغ فيها الشاعر وذهب صيته [١] . وأصبح الشعراء جزءا مهماً من النظام القبلى ، يتغنون بمفاخر القبيلة ، ويمجدون بطولتها فى حروبها ، ومآثرها فى سلمها ، ويصورون آمالها ومطامعها ، وما بينها وبين جيرانها من حلف أو عداء . يهاجون هذه ويمجدون تلك . وأفراد القبيلة جميعاً من ورائهم يحفظون هذا الشعر ويذيعونه ، مفاخرين به ومكاثرين . وربما عظم أمر الشاعر فى قومه ، حتى يصبح زعيمهم الذى يشير عليهم بالرأى فلا يخالفون ولا يشذون عنه . يقول ابن هشام فى إسلام الأنصار[٢] : « فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف — وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة — وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت — وهو صيفى — وكان شاعراً لهم قائداً ، يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام » . ويقول ابن الأثير إن زهير بن جناب الكلبى كان أحد من اجتمعت عليه قضاعة ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه ، ثم يروى له شعراً فى الحماسة[٣] . والشعراء الذين سادوا فى قبائلهم كثير ، منهم الكلحبة العرنى كان أحد فرسان بنى تميم وساداتها ؛ والجميح أحد فرسان يوم جبلة ؛ وبشامة بن عمرو خال زهير بن أبى سلمى ، كان أحزم الناس رأيا ، وكانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو ؛ والحصين بن الحمام المرى ، كان سيد قومه وذا رأيهم وقائدهم ورائدهم ، وهو من أوفياء

---

(١) العمدة ١ : ٤٩

(٢) السيرة : ٢ : ٨٠

(٣) ابن الاثير ١ : ٢٩٩

العرب ؛ وسلامة بن جندل ، كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمرو بن الأهتم السعدى ، كان من سادات قومه ، وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي فى وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدوانى شاعر فارس ، وهو أحد الحكماء المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثى كان فارساً ، وكان سيد قومه بنى الحرث بن كعب وقائدهم فى يوم الكلاب الثانى إلى بنى تميم ، وهو من أهل بيت معروف بالشعر فى الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن وعلة الجرمى ، كان هو وأبوه وعلة من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها ؛ وعوف بن الأحوص ، كان أبوه الأحوص سيدا فى قومه ، وذا رأيهم ، شهد يوم جبلة وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف من زعمائهم وقوادهم ؛ والمرقشان الأكبر والأصغر ، كان لهما موقع فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها ؛ والحرث بن ظالم المرى ، كان من أشراف بنى مرة وساداتهم ، وكان أفتك الناس وأشجعهم ؛ وضمرة بن ضمرة النشهلى كان خطيباً فارسا شاعراً شريفاً وسيدا ، وكان أحد حكام بنى تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبى حارثة المرى كان فارسا شريفا ، وكان رأس غطفان وبنى مرة ، وابنه هرم من أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعرا سيدا . وغير هؤلاء كثير . ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا لنزيل ما استقر فى أوهام كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى فى أخبار امرىء القيس والنابغة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزا فى قومه منيعا ، ما عاش مستغنيا كريما يضع لسانه فى خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم إذا احتاج لغيره ، وقبل على شعره الهبات ، شأنه فى ذلك شأن الناس جميعاً إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون[1] .

---

(١) راجع الحماسة والمفضليات فى هؤلاء الشعراء .

لأن شعرهم محدود فى نطاق القبيلة وما يتصل بها . روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[١] . » وأصدق مايصور مكان الشاعر من القبيلة قول هدبة بن الخشرم :

وإنى من قضاعة من يكدها   أكده وهى منى فى أمان
ولست بشاعر السفساف منهم   ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجاهم من سواهم   وأعرض منهم عمن هجانى

وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنتَ لم تعبأ برأى ولم تطع   لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتقى ذم العشيرة كلها   وتدفع عنها باللسان وباليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوطها   وتقمع عنها نخوة المتهدد
وتنزل منها بالمكان الذى به   يُرى الفضلُ فى الدنيا على المتحمد
فلستَ وإن عللت نفسك بالمنى   بذى سؤدد بادٍ ولا كرْب سيِّد

وكانت القبائل تعتمد فى حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح . ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمى :

وأصبحت أعددت للنائبـــــات عرضا بريئا وعضبا صقيلا[٢]
ووقع لسان كحد السنان   ورمحا طويل القناة عسولا[٣]

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧٠

(٢) العضب السيف.

(٣) عسولا كثير الاضطراب جيئة وذهابا .

وكما يقول حيان بن ربيعة الطائى:

لقد علم القبائل إن قومى ذوو جد إذا لبس الحديد
وأنا نعم أحلاس القوافى إذا استعر التنافر والنشيد
وإنا نضرب الملحاء حتى تولى والسيوف لنا شهود

لقى جرير الراعى فقال له : إن أهلك بعثوك مائرا وبئس والله المائر أنت . وإنما بعثنى أهلى لأقعد لهم على قارعة هذا المربد فلا يسبهم أحد إلا سببته . فإن على نذرا إن كحلت عينى بغمض حتى أخزيك [١] . وقد بلغ من حرص المحاربين على الشعر، بما يثير فى نفوسهم من حمية وحماس ، وما ينال من عدوهم ، أن استصحبوا معهم الشعراء فى حروبهم . فهذا هو صفوان بن أمية يقول لعمرو بن عبد الله الجمحى « ياأبا عزة إنك أمرؤ شاعر فأعنا بلسانك فاخرج معنا [٢] » . وقد خرج أعشى همدان على فرس بين يدى عبدالرحمن بن الأشعث، حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، وهو ينشد الشعر [٣]. وقال عمر ابن الخطاب للنبى فى أسرى بدر«يارسول الله دعنى أنزع ثَـنِـيَّـتَـىْ سهيل بن عمرو ، ويدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا [٤] » .

ولما كانت المهمة الأساسيه للشاعر هى الدفاع عن القبيلة ،غلبت الحماسة على شعرهم.حتى سمى أبو تمام مختاراته الجاهلية المشهورة بالحماسة ، لغلبة هذا الباب على سائر شعرهم ، فقد كان الشاعر يتغنى بقوة القبيلة ، ويشيد بمجدها ، وقديم عزها ، ومكانه منها ، ويتعرض فى أثناء ذلك لأعدائها هاجيا ، ولحلفائها مثنيا مادحا . لذلك اختلط الهجاء فى العصر الجاهلى بالحماسة فكان الشعر مزاجا قويا من الحماسة والغضب، يصور المثل العليا للحياة فى ذلك الوقت إيجابا وسلبا .

---

(١) الأغانى ٢٠ : ١٧٠
(٢) السيرة ٣ : ٦٥
(٣) الطبرى ٥ : ١٤٧
(٤) السيرة ٢ : ٣٠٤

وكان فى نُظُمهم قدر كبير من الاشتراكية التى تلغى شخصية الفرد، وتجعل إرادة القبيلة ومصلحتها فوق إرادته ومصلحته، فليس له وجود حقيقى إلا باندماجه وفنائه فيها. فكان الشعر مزاجا عجيبا من الغناء والقصص، لا هو بالذاتى الخالص، ولا هو بالموضوعى المحض. هو موضوعى إن اعتبرنا فيه تصوير القبيلة وحروبها وتاريخ أبطالها، فالشاعر هنا مؤرخ أو قصاص يحيط بالأنساب والمثالب وتاريخ الحروب بين القبائل، ويتسقط الأخبار من هنا ومن هنالك، فيها التافه، وفيها الخطير، وبعضها يمس الجماعة، وبعضه يتصل بالأفراد. ثم هو شعر ذاتى إن اعتبرنا الشاعر جزءا لا يتجزأ من القبيلة، فهو إذ يصور هذا كله، إنما يصور نفسه وعواطفه، التى لا يمكن أن تعتبر شيئا مستقلا عن عواطف الجماعة التى يعيش بينها ويفنى فيها.

وقد اعتمد الشعر فى معظمه — الهجائى منه والحماسى — على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية، كالكرم، والشجاعة، والوفاء للجار، واتصال السؤدد فى الأجداد، وعزة الأهل، ومنعة القبيلة، وشدة بطشها. لذلك كان لا بد لدارس هذا الشعر من أن يحيط بالأنساب ويتصور المثل التى مجدوها وأكبروها. أما الأنساب فهى مبسوطة فى مراجعها. وأما القيم الأخلاقية والاجتماعية فى الجاهلية فهو ما سنتحدث عنه الآن.

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في الجاهليـــة

لم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة بأهلها ، ولم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متناصفين . فالحياة تقوم على التنافس الشديد ، والعنف الذى لاهوادة فيه ، والقسوة التى لاتلين . والقارىء لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة فى كل صورها هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه . فكل مانالته يد القوى فهو حق له . الفضيلة عندهم هى الرجولة ،والشجاعة،والإقدام، وركوب المخاطر والأهوال ، والتجليد المكاره والخطوب . للقوى صفوة الحياة ومتاعها ، وللضعيف الفضل والعفو . فالضعف فى كل مظاهره هى الجريرة الوحيدة التى يعير بها الرجل ، ويذوق من جرائها الهون والنكال . لم يكن للخيّرين الوادعين مكان . وإنما كان المكان الأول للظالم الغاشم، الذى ينتزع نصيبه من معترك الحياة جريئا معتديا ، ويستخلصه عزيزاً مقتدرا .

يقول زهير :

ومن لايذُدْ عن حوضه بسلاحه ‏ ‏ يُهَدَّمْ ومن لايَظْلِم الناسَ يُظْلَمِ

ويقول طرفه :

فلو كنتُ وَغْلاً فى الرجال لضَرَّنى ‏ ‏ عداوةُ ذى الأصحاب والمتَوَحِّد

ولكنْ نفى عنى الرجالَ جراءتى ‏ ‏ عليهم وإقدامى وصدقى ومَحْتِدى

ويقول سعد بن ناشب :

تُفنِّدنى فيما ترى من شراستى ‏ ‏ وشدة نفسى أمُّ سعد وما تدرى

فقلت لها إن الكريم وإن حلا ‏ ‏ لَيُلْفَى على حال أمر من الصبر

وفى اللين ضعف والشراسة هيبة ‏ ‏ ومن لم يُهَبْ يُحمَلْ على مركب وعر

وما بىَ على من لان لى من فظاظة ... ولكننى فظ أبىٌّ على القسْر (١)
أقيم صَغَاذى المَيْلِ حتى أرُدَّه ... وأخطمُه حتّى يعود إلى القَدْر (٢)
فإن تعذليى تعذلى بى مُرَزَّءاً ... كريم ثَنا الإعسار مشتَرَكَ اليسر (٣)
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمة ... وصمَّم تصميم السُّرَيجِىِّ ذى الأثْر (٤)

يغير النفر القوى على النفر الضعيف، فيجليه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله ومتاعه، ويخلفه على نسائه. كما يقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السحاب بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

ويقول مُجَمِّع بن هلال:

وعاثرةٍ يوم الهُيَيْمَى (٥) رأيتها ... وقد ضمها من داخل القلب مَفْزَعُ
لها غَلَلٌ فى الصدر ليس يبارح ... شجىً نَشِبٌ والعين بالماء تَدمَع
تقول وقد أفردتها من حليلها ... تعستَ كما أتعستنى يا مُجَمِّعُ
فقلت لها بل تعْسَ أمِّ مجاشع ... وقَومِكِ حتى خدُّكِ اليوم أضرع (٦)

وربما أعوزهم النهب، فأغاروا على إخوتهم وأبناء عمومتهم، كما يقول القطامى:

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نَهْبٌ حيث كانا
أغرن من الضباب على حُلول ... وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

ويلقى الرجل الرجل، فيسلبه إبله ومتاعه. ويرد القوى الماء فيشرب صفوه، وينتظر الضعيف خلو المورد، قانعاً بالطين والكدر، كما يقول عمرو بن كلثوم:

---

(١) القسر القهر على كره.

(٢) أقيم صغاذى الميل أى أقيم عوجه. خطم الدابة أمسكها بالخطام يقصد أنه يكبح جماحه.

(٣) العذل اللوم والتعنيف. الثنا الخبر. يقول إن افتقرت حسنت سيرتى ولم يروا الناس عنى إلا كل خير، وإن أثريت أشركت الناس فى ثرائى ولم أنفرد به

(٤) السريجى السيف. الأثر فرند السيف.

(٥) الهييمى اسم اليوم الذى أسرت فيه هذه المرأة.

(٦) يقول لها بل تعس قومك (مجاشع) وتعست الأم التى ولدتهم، لأنهم ضيعوك وتركوك سبية ذليلة.

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كَدَراً وطينا

وكما يقول جرير :

إن الزحام لغيركم فتحينوا وِرْدَ العشِىّ إليه يخلو المنهل

ويقضى القوى الأمر ،والضعيف مخلف لا تصغى له أذن ، ولا يقام لرأيه وزن ، كما يقول الأخطل :

مخلفون ويقضى النـاس أمرهم وهم بغيب وفى عمياء ما شعروا

وكما يقول جرير :

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا هو قُرَيْط بن أنَيْف، لا يعير قومه إلا الحلم والإحسان ، وأنهم ليسوا أصحاب شر وعدوان :

لكنّ قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشّرّ فى شىء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنساناً

وإنما يريد قُرَيْط من قومه أن يكونوا كالذين وصفهم بقوله :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زَرَافات ووحداناً

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهاناً

قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبى :ما مبلغ عزكم ؟ قال : لا يُطْمَع فينا ولا نُؤْمَن . قال فما مبلغ حفاظكم ؟ قال يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه، كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك مثلك من يصف قومه . وقال عبد الملك بن مروان لابن مُستَطاع العَنْبَرى أخبرنى عن مالك بن مسمع . قال لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف ، لا يسألونه فى أى شىء غضب (١)

---

(١) العقد الفريد . ١ : ١٠٥ .

كان تميم بن أبيّ بن مقبل يهاجى النجاشى الشاعر ، فهجاه النجاشى فأوجعه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب . فاستدعاه عمر فسأله : يانجاشى ما قات له ؟ قال : ياأمير المؤمنين قلت مالا أرى فيه عليه بأساً . وأنشده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة　　　فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إن كان مظلوما استجيب له . وإن لم يكن مظلوما لم يستجب له

قالوا : وقد قال أيضاً :

قُبـيِّلة لا يغدرون بذمة　　　ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك .

قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشيةً　　　إذا صدر الوُرَّادُ عن كل منهل

قال عمر : ذلك أقل للزحام.

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومَهم　　　وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : يكفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه .

قالوا : فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقوله　　　خذ القَعْب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم .

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسْوة　　　الهجين ورهط الواهن المتذلّلِ

فقال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه . وجلده ثم حبسه .

فالعربُ لا يحقرون الظالم لظلمه ، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه . فهذا رجل ينتصر لجار له نهبت إبله ، ثم يضعف عن حمايته ، إذ يعدو عليه المغتصب بقومه ، ويسترد ما اغتصب ، فيعيره الشاعر قائلا :

أغرَّكَ يوما أن يقال ابنُ دارم　　　وتُقصَى كما يُقصىَ من البرْكِ أجرب

قضى فيكم قيسٌ بما الحقُّ غيرُه　　　كذلك يخزوك العزيز المُدرَّبُ

فأدِّ إلى قيس بن حسان ذودَه وما نيل منك التمرُ بل هو أطيب
فإن لا تصل رحم ابن قيس ابن مرثد يعلِّمْك وصلَ الرحِم عضبٌ مجرَّب

هؤلاء قوم لا يسألون الضارب لم ضربت ، ولكنهم يسألون الباكى لم بكيت . وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التى نرمق بها اللص وقاطع الطريق . ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب ، ما دام يسعى جهرة ، ولا يدب دبيبا ، ويتستر متزاورا .

ولم يكن يستغيث بالسلطان إلا الضعيف العاجز . أما القوى فهو كما يقول الشَّمَيْذَر الحارثى :

فلسنا كمن كنتم تصيبون سَلّةً فنقبل ضيما أو نُحكِّمَ قاضيا (١)
ولكن حكم السيف فينا مُسلَّطٌ فنرضى إذا ما أصبح السيفُ راضيا

وكما يقول عروة المرادى :

أرجِّل جُمَّتى وأجر ذيلى وتحمل شكَّتى أفُنٌ كميتُ (٢)
وأمشى فى سراة بنى غطيف إذا ما ساءنى أمر أبَيْت

وإن أحدهم ليرفض حكم الملوك . وهذا هو شبيب بن عوانه الطائى يقول :

قضى بيننا مروان أمْسِ قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعِفْتها ولكن أتت أبوابه من ورائيا

وقد صورت جماعة الصعاليك المثل العربية العليا فى ذلك الوقت أصدق تصوير . فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا فى ركوب المخاطر والأهوال ، ولا يرى الحياة الهادئة الوادعة خليقة بالرجال .

لحى الله صعلوكا إذا جَنَّ ليلهُ مضى فى المشاش آلفاً كلَّ مجزَر (٣)
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قِراها من صديق مُيَسَّر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحُتُّ الحصى عن جنبه المتعفر

---

(١) سلة أى سرقة فى تستر وخفاء . (٢) الشكة السلاح .

(٣) المشاش الأرض الوعرة. يذم الرجل الذى كل همه الطعام، يركب الوعر باحثاً عن مواضع الذبح .

يعين نساء الحى ما يستعنّه ... ويمسى طليحاً كالبعير المحسَّر (١)
ولكنّ صعلوكاً صحيفةُ وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنوِّر (٢)
مُطلاًّ على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر (٣)
إذاَ بعدوا لا يأمنون اقترابه ... تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّر
فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميداً وإن يستغن يوما فأجدر

وليست حياة الرجال عند تأبط شراً إلا تلمساً للقتال والنزال، واضطرابا فى الصحارى والقفار، ويقظة مستمرة فى الليل والنهار. إن نامت العينان فالقلب يقظان. فالرجل العظيم:

قليل غِرَار النوم أكبرُ همِّه ... دمُ الثأر أو يلقى كَمِياً مسفَّعاً (٤)
يُماصعُه كلٌّ يشجع قومَه ... وما ضربه هام العدا ليُشَجَّعا (٥)
قليلَ ادخار الزاد إلا تَعِلَّة ... فقد نشز الشُّرْسوف والتصق المعا (٦)
يبيت بمَغنَى الوحش حتى ألفْنَهَ ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مَرْتَعاً (٧)
على غِرة أو نُهزة من مُكانس ... أطال نزال القوم حتى تسعسعا (٨)
ومن يُغْرِ بالأعداء لا بدَّ أنه ... سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعاً
وإنى وإن عمِّرْتُ أعلم أننى ... سألقى سنان الموت يبرق أصلعا

(١) المحسر المعي وكذلك الطليح. يقول إنه لا عمل له طول يوم إلا خدمة النساء والجلوس بجوارهن. فلا يأتى المساء إلا وقد أنهكه التعب.

(٢) القابس الذى يقتبس النار، والمتنور الذى يطلبها من بعيد. يصف وجهه بالتهلل والبريق الذى يصور المضاء والعزم.

(٣) المنيح والسفيح والوغد أسماء قداح لانصيب لها فى الميسر، وإنما توضع ليكثر بها القداح. وهو يشبه زجر الناس لهذا الصعلوك بزجر اللاعبين لهذا القدح الذى لاحظ له، لايريد أحد أن يكون من نصيبه.

(٤) الكمى المتكى بالسلاح أو المتستر به. المسفع المتغير لون الوجه من كثرة الأسفار.

(٥) يماصعه يجالده وينازله.

(٦) الشرسوف مقاطع الأضلاع التى تشرف على البطن. المعا الأمعاء. يصفه بالنحافة وبالتجلد على الجوع.

(٧) المغنى مكان الاقامة من غنى بالمكان أقام به. يقول إن الوحوش قد ألفته لطول صحبته لها.

(٨) الغرة الغفلة والنهزة الفرصة. وتسعسع ولى أى أنه قد نحل ومضى معظمه.

أما أبو النشناش فهو يفتخر باللصوصية ، ويعجب من الفتى يرضى بالفقر ، والمغانم مبذولة للمغامر ، ومن راكب ليل يخفق ، وفى سواده عون لكل فاتك .

ونائية الأرجاء طامسة الصُّوَى ... خَدَتْ بأبى النَشناش فيها ركائبه (١)
ليكسب مجداً أو ليدرك مغنما ... جزيلا وهذا الدهر جَمٌّ عجائبه
وسائلة ، بالغيب عنى وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه

فالعربى يعيش للنزال والقتال، ويحارب من أجل الحياة . المكان الأول للفارس المقاتل ، وللسوقة حياة الصناعة والزراعة المستقرة الآمنة ، التى لاتكلف صاحبها مغامرة ولا زحاما . وهذا هو الأعشى يعير إياداً أنهم أهل زرع فيقول :

لسنا كمن جعلتْ إيادٌ دارَها ... تكريت تنظرُ حبَّها أن يحصَدا
قوما يعالج قملا أبناؤهم ... وسلاسلا أجُداً وبابا مؤصدا

وعير جرير الفرزدق أن جده كان حداداً فى كل مكان من النقائص .. وعير الفرزدق آل المهلب أنهم يمنية أصحاب سفن وتجارة .

وكم لك يا ابن دُحمة من قريب ... مع التُبَّانِ ينسَبُ والزيار (٢)
يظل يدافع الأقلاع منها ... بملتزم السفينة والحِتار (٣)
إذا نُسبتْ عمان وجدتَ فيها ... مذاهب للسفين وللصرارى (٤)
أولئكَ معشر أقعَوا جميعا ... على لؤم المناقب والنِّجار

---

(١) الصوى الأعلام من الأحجار توضع على الطريق فى الصحراء ليهتدى بها السالك إلى الطريق . يقول إن هذه الصحراء مخيفة لأن الرمال قد طمست أعلامها .

(٢) دحمة أم يزيد بن المهلب . التبان سراويل قصيرة يلبسها النوتية لاتستر إلا العورة . الزيار القلس وهو حبل السفينة .

(٣) الحتار من كل شىء حرفه وما استدار به وحلقة الدبر . يقول إنه يدافع الأقلاع بهذا الموضع من جسمه .

(٤) الصرارى الملاح .

وافتخر الأخنس بن شهاب التغلبي بأن قومه لا يركنون إلى المدن كما يفعل المستضعفون، ولكنهم يتنقلون في الصحراء، يفرضون أنفسهم على منازل الغيث بقوتهم، تحيط بهم خيلهم، يكرمونها فلا يسقونها إلا اللبن في الصباح وفي المساء.

ونحن أناس لاحجاز بأرضنا — مع الغيث ما نُلْفَى ومن هو غالب
ترى رائدات الخيل حول بيوتنا — كمعزَى الحجاز أعجزَتها الزرائب
فيُغْبَقْنَ أحلابا ويُصْبَحن مثلها — فهن من التَعداء قُبٌّ شوازب (١)

وإنها لمفخرة للعربي أى مفخرة أن يموت على فرسه محاربا. وأبغض شيء إلى نفسه أن يموت على فراشه. يقول السموءل بن عاديا:

وما مات منا سيد حَتْفَ أنفه — ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُبات نفوسُنا — وليست على غير الظُبات تسيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم — ولا ينكرون القول حين نقول

من أجل ذلك كان أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه. وإن أحدهم ليطعم فرسه، ويجيع عياله. وهذا رجل من تميم يتحدث عن فرسه (سكاب) فيقول:

أبيت اللعن أن سكاب عِلْقٌ — نفيس لا تعار ولا تباع
مُفَدَّاةٌ مكرمة علينا — يجاع لها العيال ولا تجاع

بل لقد بلغ من إعزاز العربي لفرسه أن يفضلها على زوجه. فالأعرج المعنى يخاطب زوجته حين لامته في أن سقى فرسه (الورد) بعض اللبن، فيقول: إن فرسه يفضلها ساعة الفزع، فهى تجرى نخيب الفؤاد، حاسر الرأس، قد أخذ منها الفزع. أما هو فيجده طوع أمره مُيسَّراً يجزيه ما أسلف عنده وما صنع له:

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ — تلوم وما أدرى علام توَجَّعُ
تلوم على أن أمنح الورد لقحةً — وما تستوى والورد ساعة تفزع (٢)

(١) القب جمع أقب وهو دقيق الخصر. الشوازب جمع شازب وهو الضامر.
(٢) اللقحة الناقة التى بها لبن والورد إسم فرسه.

إذا هى قامت حاسراً مُشمعلّة ... نخيبَ الفؤاد رأسَها ما يُقنّع (١)
وقمت إليه باللجام مُيَسَّرا ... هنالك يجزينى بما كنت أصنع

ومن أجل ذلك أحب العرب كثرة النسل واعتزوا به، فكانت المرأة أكرم ما تكون على زوجها إذا كثر نسلها من البنين. فهى فى نظرهم مصنع حربى لإنتاج الذخائر. قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد):

ويقول أُنَيف بن زَبّان الطائى فى وصف قومه.

أبى لهم أن يعرفوا الضيمَ أنهم ... بنو ناتق كانت كثيراً عيالها

وقد كانت هذه الحياة المضطربة الكثيرة الحركة تتطلب الخفة والنشاط، لذلك كرهت العرب فى الرجل أن يكون سمينا مكتنزا، ورأوا فى السمن والاكتناز آثار النعمة والترف، والركون إلى الكسل والخمول. وأحبوا فيه أن يكون نحيلا خفيف اللحم، من أثر السهر، واقتحام الأهوال، وطى الرمال، والصبر على المكاره ساعة النزال. فالرجل ذو الخطر كما يقول تأبط شرا:

سَبّاق غايات مَجْد فى عشيرته ... مرَجِّعُ الصوت هَدًّا بين أَرْفاق (٢)
عارى الظنابيب مُمْتَد نوَاشرُه ... مِدْلاج أدهم وأهى الماء غسّاق (٣)

أو هو كما تقول زينب بنت الطَثرية فى رثاء أخيها يزيد بن الطثرية:

فتى قُدَّ قَدَّ السيف لا متضائل ... ولا رَهل لبّاته وأباجله (٤)

ويقول شاعر الحماسة معتذرا عن سمنه:

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها ... عهدتك دهراً طاوى الكشح أهضما
فإما ترينى اليوم أصبحت بادنا ... لديك فقد أُلفَى على البزْل مِرجَما (٥)

---

(١) مشمعلة مسرعة فى الجرى. يصفها فى فزعها وقد سقط الخمار عن رأسها وجدت فى الهرب.

(٢) الأرفاق الرفاق يقول إن صوته يجلجل بينهم مدويا حين يأمر وينهى.

(٣) الظنبوب عظم الساق. يقول إن عظم ساقه عار من اللحم لنحوله. النواشر عروق ظاهر الذراع. وهى ظاهرة لقلة لحمه. الادلاج سير الليل كله يقول إنه كثير الأسفار فى الليل. الأدهم الليل المظلم. واهى الماء شديد المطر. غساق شديد الظلمة.

(٤) الأباجل العروق.

(٥) البازل الناقة التى ظهرت أنيابها والجمع بزل.

ويقول الأعشى فى مدح قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سَعْىَ امرىء ... إذا بِطنةٌ راجعته سكن
ترى همه نظراً خصرَه ... وهمك فى الغزو لا فى السمن(١)

قال عبد الملك بن مروان(٢) ما كنت أحب أن أحدا ولدنى من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمى مسَّ الحق والحقُّ جاهد
لأنى إمرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد(٣)
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعكس هذه الصورة التى يحبونها فى الرجل كان يستحب فى المرأة . كانوا يصورونها وقد تراكم عليها الشحم ، فهى لا تكاد تقوى على حمل جسمها . وكانوا يرون هـذا السمن مظهر الترف والنعمة . فالمرأة المترفه يحميها رجل قوى ، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان ، ويكفيها أن تمتهن وتهان ، ويجلب لها الثروة والمال من كل مكان .

يقول المُرَارُ بن مُنقِذ فى وصف النساء :

قُطُفُ المشى قريبات الخطى ... بُدَّناً مثل الغمام المُزْخِرّ(٤)
يتزاورن كتقطاء القطا ... وطعمن العيش حلوا غير مر(٥)
فهى هيفاء هضيم كشحها ... فخمة حيث يُشدُّ المؤتزَر
يَبهَظُ المِفْضَلَ مِن أردافها ... ضفِرٌ أُرْدِفَ أنقاءً ضفر(٦)

(١) يقول : حين يكون هم الخامل أن ينظر فى خصره ليرى هل سمن أم لا ، لا يكون همك إلا الغزو .

(٢) العقد الفريد ١ : ١٨١ .

(٣) يقول إن هذا الرجل المعجب بسمنه إنما أمتلأ لحما لأنه يأكل وحده ، أما أنا فأشرك الناس فى طعامى .

(٤) القطوف المتقاربة الخطو . المزخر المرتفع . والغمام إذا ارتفع رق وصفا .

(٥) القطو تقارب الخطو .

(٦) يبهظه يملؤه . المفضل الثوب الذى تلبسه المرأة وحده فى خلوتها .

وإذا تمشى إلى جاراتها　　لم تكد تبلغ حتى تنبهر
يُضرَب السبعون فى خلخالها　　فإذا ما أكرهَتْه ينكسر
ناعمَتها أم صدق بَرَّة　　وأب بَرٌّ بها غيرُ حكِر
فهى خَذْواء بعيش ناعم　　بَرَدَ العيش عليها وقُصِر

ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان　　نحاذر أن تفارق أو تهونا
أخذن على فوارسهن عهداً　　إذا لاقوا فوارس معلَمينا
لَيَستلِبُنَّ أبدانا وَبيْضاً　　وأسرى فى الحديد مقرَّنينا [١]
إذا ما رُحْنَ يمشين الهوينا　　كما اضطربت متون الشاربينا
يقُتْن جيادنا ويقلن لستم　　بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا　　لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائنَ مثلُ ضرب　　ترى منه السواعد كالقُلِيا [٢]

ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعُنف فى نفس العرب ، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت ، وهى مكرهة على ذلك غير مدفوعة بالشهوة العنيفة ، كان ابنها أنجب . وكان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها . ويقولون (إن ولد المذعورة لايطاق) . وقد وصفت أم تأبط شرا ابنها فقالت : أما والله إنه لشيطان . ما رأيته قط مستثقلا ولاضاحكا ، ولاهم بشىء مذ كان صبيا إلا فعله ، ولقدحملت به فى ليلة ظلماء، وإن نطاقى لمشدود[٣]. وفى هذا يقول أبو كبير الهذلى :

حملت به فى ليلة مزءُودة　　كرها وعقد نطاقها لم يحلل [٤]
فأتت به حُوشَ الفؤاد مُبَطَّناً　　سُهُداً إذا مانام ليل الهوْجَل [٥]

---

(١) الأبدان الدروع ،والبيض الخوذات .
(٢) القلون جمع قلة وهى خشبة يلعب بها الصبيان .
(٣) شرح الحماسة ١ : ٨٤ ، ٨٥ .　　(٤) الزؤد الذعر والمزءود المذعور .
(٥) حوش الفؤاد وحشيه لحدته وتوقده . مبطن ضامر البطن . سهد كثير السهر . الهوجل الثقيل الكسلان أو الأحمق .

فإذا نبذت به الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طُمُور الأخْيَل[1]
وإذا يهب من المنام رأيته كرُتُوب كعب الساق ليس بمَزْمل[2]
وإذا رميت به الفِجَاج رأيته يهوى مخارمها هُوِيّ الأجْدَل[3]
صعب الكريهة لا يرام جنابه ماضى العزيمة كالحُسام المصقل
يحمى الصحاب إذا تكون كريهة وإذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّل[4]

وكانت العرب تمدح فى الرجل أن يكون جلدا صبورا على المصيبة، لأن الجلد من آثار القوة والتماسك ومغالبة الزمن. فالاستسلام للجزع والحزن ضعف لا يجمل بالرجل القوى. يقول بعض بنى قيس بن ثعلبة فى وصف قومه بالتجلد.

ولا تراهم وإن جَلَّتْ مصيبتهم مع البكاة على من مات يبكونا

ويقول عمرو بن معد يكرب:

كم من أخ لى صالح بَوَّأتُه بيدىَّ لحدا
ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاى زَنْدا
ألبسته أثوابه وخُلقْتُ يوم خلقت جَلْدا
أغْنِى غناء الذاهبين أُعَدُّ للأعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

ويقول ابراهيم بن كُنَيْف النبهانى:

فإن تكن الأيام فينا تبدلت بنُعْمى وبؤسى والحوادثُ تفعل
فما لَيَّنَتْ منا قناة صليبة ولا ذللتنا للتى ليس تجمل

---

(١) الطمور الوثب وفرس طمر وثاب. الأخيل المتكبر المعجب بنفسه.

(٢) رتب رتوبا قام وانتصب. مزمل ضعيف سمى بذلك لتزمله فى ثوبه وقعوده عن الحرب.

(٣) الأجدل الصقر.

(٤) العيل جمع عائل وهو الفقير.

ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تُحَمَّل مالا يستطاع فتحمل
وقَيْنَا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هُزَّل

وإنا لنجد الجاهلى يتغزل ، فيصور صاحبته ولها زوج قد غلبه عليها ، أو يصورها وحولها حراس غلاظ شداد ، لا يخلص إليها إلا بعد إعمال حيلة وجهاد . حتى الحب لم يكن إلا نوعا من المقاتلة والصراع ، ورغبة فى الظفر والامتلاك .

يقول الأعشى :

وَمصَاب غادية كأن تجَارَها ... نشرَتْ عليه برُودَها ورحالها
قد بتُّ رائدها وشاة محاذر ... حذراً يُقلُّ بعينه أغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها ... حتى دنوت إذا الظلام دنالها
فرميت غفلة عينه عن شاته ... فأصبتُ حَبَّة قلبها وطحالها

لم يكن التمدح بالخمر والميسر والنساء لما فيها من متع الجسم ، ولكنه كان عندهم مظهرا من مظاهر الفتوة والشباب — والشباب قوة ، ولامتلاك اللذة نشوة — كان العربى يتمدح بالخمر لأنها ، كما يقول عمرو بن كلثوم :

تجور بذى اللُّبانة عن هواه ... إذا ماذاقها حتى يلينا
ترى اللَّحِز الشحيح إذا أُمرَّتْ ... عليه لماله فيها مُهينا
إذا صَمَدَتْ حُمَيَّاها أريبا ... من الفتيان خِلْتَ به جنونا

أو كما يقول حسان :

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأُسْداً مايُنَهْنِهُنَا اللقاء

فالعربى إذا تحدث عن لذاته وتغنى بها ، رأيت فى حديثه حماسة وقوة ، هى حماسة الفاتك القادر ، وقوة المنتصر الظافر . يقول مجمع بن هلال :

وخيل كأسراب القطا قد وَزعتها ... لها سَبَلٌ فيه المِنَيَّة تلمع
شهدتُ وغُنمٍ قد حَوَيْتُ ولذة ... أصبتُ .وماذا العيش إلا التمتع

ويقول الأعشى :

ولقد لبست العيش أجمع وارتديتُ من الإبارة
وأصبتُ لذات الشباب مُرفّلا ونَعمتُ ناره
ولقد شربت الراح أُسْقَى من إناء الطَّهْرَ جَارَهْ

ويقول طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أحضُرَ الوَغَى وأن أشْهدَ اللذات هل أنت مُخْلدِى
فإن كنتَ لاتسطيع دفع منيتى فدعنى أبادِرْها بما ملَكتْ يدى
فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدِّك لم أحـفل متى قام عُوَّدى (١)
فمهن سبقُ العاذلات بشَربة كُمَيْتٍ متى ماتُعْلَ بالماء تُزبدِ
وكرى إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبا كسيد الغضا نبهته المتوردِ (٢)
وتقصير يوم الدَّجن والدجنُ مُعجِبٌ ببهكنَةٍ تحت الطِراف المعمَّد (٣)

ويقول حسان بن ثابت :

ومُمسك بصداع الرأس من سُكُر ناديته وهو مغلوب فَفَدّانى (٤)
لما صحا وتراخى العيش قلت له إن الحياة وإن الموت مثْلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مَشْرَبُه واعلم بأن كلُّ عيشٍ صالح فان

ويقول المرقس الأكبر :

ياخولُ ما يدريك رُبَّتَ حُرَّة خَوْد كريمة حَيِّها ونسائها
قد بِتُّ مالكها وشاربَ رَيِّةٍ قبل الصَّباح كريمةٍ بسِبابها

---

(١) العود من يعوده فى مرضه أو يحضره عند موته . يقول إنه لايبالى متى يموت لولا حرصه على ثلاث خصال، فصلها فى الأبيات التالية ، وهى الخمر وإغاثة المستغيث والنساء . وهذه الخصال الثلاث هى عنده لوازم الفارس وهمُّ الفتى .

(٢) المضاف الذى أضافته الهموم يناديه مستغيثا به . المحنب الفرس المعوجة الساقين . السيد الذئب والغضا شجر . المتورد الذى يرد الماء .

(٣) الدجن الغيام . البهكنة الضخمة التامة الخلق . يلهو فى هذا اليوم الجميل بمثل هذه الحسناء ، يقطع الوقت بمغازلتها تحت خباء مرفوع بالعمد . وكلما ارتفع عمود الخباء كان ذلك أضخم له وأدل على شرف صاحبه ، لأن بيوت السوقة والفقراء قصيرة العمد لاصقة بالأرض .

(٤) مغلوب غلبته الخمر . فدانى جعل نفسه فداء لى مجاملة وتأدبا فقال جعلت فداك

لم يكن العربى يرى فى اللذات محرما ومباحا . كل لذة فهى مبذولة للفائز ، وإنما يفوز باللذة الجسور . فالفرق الأصيل بين حديث الجاهلى عن لذته ، وحديث العباسى عنها ، أنا نرى فى الأول صورة الرجل المالك لها ، المتصرف فيها . بينما نرى فى الثانى صورة الرجل الذى تملكه اللذة ، فيستسلم لها منقاداً .

فبينما يتسلى الجاهلى عن حبه كما يقول المسيب بن علس:

فَتسلَّ حاجتها إذا هى أعرضت بخَميصة سُرُح اليدَين وَساع

وكما يقول الأعشى :

فميطى تميطى بصُلب الفؤاد وَصُول حبال وكَنَّادها

نجد العباسى وقد ذل وهان ، وكست حديثه ضراعة من لم يعد يملك أمره ، كما يقول العباس بن الأحنف :

خذوا لى منها جرعة فى زجاجة ألا إنها لو تعلمون طبيبى
وسيروا فإن أدركتم بى حُشاشة لها فى نواحى الصدر وَجسْ دبيب
فرشُّوا على وجهى أفق من بليتى يثيبكم ذو العرش خيرُ مثيب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبينى بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حليفَ صفيح مُطَبق وكثيب
فرُشُّوا على قبرى من الماء واندبوا قتيلَ كعَابٍ لا قتيلَ حروب

ولم يكن الكرم ممدوحا لأنه من آثار الرحمة والعطف ، ولكن لأنه مظهر السيادة والتفضل ، والقوة والاستعلاء . فالكريم هو القوى الذى يجود مما تجدى عليه السيوف والرماح . وهو لا يدخر المال ، لأنه لا يخشى الفقر ، ولا يشفق من المستقبل، ما دام يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت ظالماً ومقتدراً .

يقول الأعشى فى مدح هوذة :

وفى كل عام أنتَ جاشمُ غزوةٍ تشد لأقصاها عـزيمَ عزائكا
مورِّثـةٍ مالاً وفى المجد رفعةً لما ضاع فيها من قُروء نسائكا (١)

ويقول فى مدح إياس بن قبيصة :

وفى الحرب منـه بلاء إذا عَوانٌ توقَّدَ أجـزالهُا (٢)
فـآب له أُصُلاً جامل وأسـلاب قتلى وأنفالهـا
إلى بيت من يعتريه الندى إذا النفس أعجبهـا مالُهـا

ويقول فى مدح قيس بن معد يكرب :

وأبيض كالسيف يعطى الجزيل يجود ويغزو إذا ماعَدِمْ
تضيَّفْتُ يوماً على ناره من الجود فى ماله أحتكم

ويقول المرقش الأكبر :

أموالنا نقى النفوس بهـا من كل ما يدنى إلى الذَّمْ
لا يُبْـعِد الله التلبُّب والغـارات إذ قال الخميس نَعَـم (٣)

وقال سبرة (٤) .

أعيَّرْتَـنا ألبانها ولحومهـا وذلك عار يا ابن رَيْطَة ظاهر
نُحاِبى بها أكفاءنا ونهينها ونشرب من أثمانهـا ونقامر
وتكسبها فى غير غدر أكفُّنا إذا عُقِدت يوم الحفاظ الدوائر (٥)

---

(١) القرء الحيض أو المدة بين الحيضين . يقول إن الغزو يورثك مالا ومجداً يعوضك عن هجرانك نساءك فى الحرب .

(٢) العوان من الحروب التى قوتل فيها مرة . أجذال جمع جذل بكسر الجيم وهو ما عظم من أصول الشجر .

(٣) يقول إن قيمة المال فى أن ينفقه صاحبه فيما يكسبه الحمد . ثم يقول بارك الله لنا فى الحروب والغزوات التى نكسب منها هذا المال . النعم الجمال . يصيح الجيش حين يراها هذه نعم . فيغيرون عليها .

(٤) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٠

(٥) يقول إنه يكسب هـذه الجمال من الغارات — فى غير غدر — وينفقها فى الهبات وفى إكرام الضيف وفى الخمر والقمار .

ولذلك كان قبول الهبة مظهراً من مظاهر الضعف . فالقوى لا يستجدى رزقه ، ولكنه يغتصبه اغتصاباً . وهذا هو الأعشى يعير يزيد بن مسهر ما يجرى عليه ملوك العراق من رزق فيقول :

وذرنا وقوماً إن هم عمدوا لنا   أبا ثابت واقعد فإنك ناعم
طعامُ العراق المستفيضُ الذى ترى   وفى كل عام حُـلّةٌ ودراهم

وكانت قوة البيان نظير قوة السنان . فالعربى يدفع بالهجاء ، كما يدفع بالطعنة النجلاء .

يقول طرفه :

ويصد عنك مَخِيلة الرجل العِـرِّيض مُـوضَحَـةٌ من العظام[1]
بحسام سيفك أو لسانك والـكلِمُ الأصيل كأرغب الـكلْمْ

ولم يزل الشاعر العربى عزيزاً فى قومه منيعاً ما تغنى بالقوة . فإذا سأل بشعره وقبل الهبات ، سقط عن منزلة السادة والرؤساء . وإنما كان يمدح الرجل بسيادة الآباء ، وتالد الثراء ، لأن ذلك دليل القوة العريقة فى دمه . فليس يسود فى قومه إلا الفاتك الشجاع .

وكل ما يهجى به العربى فهو راجع إلى الضعف والخور : يهجى بخمول النسب ، وبالبخل ، وبالفقر — يرعى المعز والشاء ، ولا يرعى الإبل . ويركب الحمير ، ولا يركب الخيل . ويمتهن نساءه فى الرعى والـكد خارج البيت — ويهجى بالجبن والقعود عن الغزو ، وبذهاب الهيبة بين الناس — يجلس فى نادى القوم ، فلا يسمع صوته ولا يعتد برأيه — وبالقعود عن الثأر وقبول الدية ، وبالعجز عن حماية الجار، والتخلص إلى نسائه فى السلم أو الحرب ، والاعتماد على حماية الأقربين من أبناء عمه وعشيرته ، والاشتغال بما ليس من شأن القوى كالصناعة والزراعة والتجارة .

(١) موضحة عن العظم طعنة عميقة نافذة تقطع اللحم حتى تصل إلى العظم .

فالحياة الجاهلية كانت تقوم على الكفاح الدائم ، والتنافس والتنازع ، والمكاثرة بكل شيء حتى المصائب . وقد صور القرآن ذلك فى أكثر من موضع (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) .

كانت الحياة فى ذلك الوقت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلى (البقاء للأصلح) . كانوا يمجدون القوة ، لأنها السبيل الوحيد للحياة والكمال ، ويحتقرون الضعف ، لأنه مظهر الانحلال ، وسبيل الموت والفناء . ولم يكن فى شعرهم وقوانينهم الأخلاقية هذا الرياء والخداع الذى نصطنعه اليوم فى حياتنا ، فنحن نملأ الدنيا غناء بالرحمة والعدالة ، وحق الضعيف فى الحياة . نملأ الدنيا ضجيجاً بهذا النفاق المخدر ، فى شعرنا ونثرنا وخطبنا وصحفنا ، بينما تسير الحياة فى طريقها الأزلى القديم ، لا تتحول عنه ولا تحيد . فالواقع يكذب آدابنا ، ويسخر من قوانيننا الأخلاقية . أما الجاهليون ، فقد كان شعرهم وقوانينهم الأخلاقية ومثلهم العليا صوراً صريحة للحياة ، ليس فيها غش أو خداع .

أقدم صور الهجاء

المنافرات هى أقدم مانعرف من صور هذا الفن عند العرب . والمنافرة المحاكمة من النفر ، لأن العرب كانوا إذا تنازع الرجلان منهم ، وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه، تحاكما إلى عالم، فمن فضل منهما قدم نفره عليه، أى فضل نفره على نفره [1] . وقيل إنها سميت منافرة ، لأنهم كانوا يقولون عند المنافرة أنا أعز نفراً .

وربما وقعت المنافرة بين رجلين من أبناء القبيلة الواحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة ، كمنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبد شمس ، وربما كانت بين رجلين من قبيلتين يمثل كل منهما قبيلته، فأيهما نفر على صاحبه كانت قبيلته أفضل ، كمنافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرطاة الكلبى .

وكان الرجلان إذا لج بينهما الخصام ، وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه، تحدى أحدهما الآخر للمنافرة، كما كان يفعل الناس فى العصور الوسطى، حين يتحدى الرجل خصمه للمبارزة . وقد يقوم الرجل التياه بحسبه ونسبه فى مجمع من القوم، فيزعم أنه أشرفهم وأعزهم بيتا، داعيا من ينكر عليه ذلك للمنافرة . روى صاحب العقد أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان، فأخرج إليهم بردَىْ محرِّق، وقال ليقم أعز العرب قبيلة فيلبسهما. فقام عامر بن أحيْمر ابن بهدلة فاتزر بأحدهما وتردى الآخر . فقال النعمان أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العزة والعدد من العرب فى معد، ثم فى نزار، ثم فى مضر، ثم فى خندف، ثم فى تميم، ثم فى سعد، ثم فى كعب، ثم فى عوف، ثم فى بهدلة. فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنى . فسكت الناس [3] .

---

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠١

(٢) بلوغ الأرب : ١ : ٢٨٨

(٣) العقد الفريد ٦ : ٨

وقعد رجل من بنى غفار يقال له أبو معشر بن مكرز ، وكان غازيا منيعا فى نفسه ، وكان بسوق عكاظ ، فمد رجله ثم قال :

نحن بنو مدركة بن خندف   من يطعنوا فى عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومَه يُغَطْرِف   كأنه لجة بحـــر مشرف

أنا والله أعز العرب . فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف [١].

وكان المتنافران يضربان للمنافرة موعدا ، ويتراضيان بينهما حكما من كهان العرب ، أو أشرافها المسنين المعروفين بالفصاحة والحكمة والعلم بأخبار العرب وأنسابهم. وكانا يضعان بين يدى الحكم جُعْلاً يخاطران عليه ، من إبل أو غيره، يئول بعد الحكم إلى النافر . وربما نحر النافر الإبل فأطعم الناس أنفة واستكبارا . وقد يكون فى شرط المنافرة شىء آخر غير المال، كما حدث فى منافرة هاشم وأمية ، فقد تنافرا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين. فلما نفر هاشم خرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين [٢] . وكانوا يضعون بين يدى الحكم رهنا من رجالهم وأبنائهم ، ضمانا للوفاء بمثل هذه الشروط .

فإذا كان يوم المنافرة، وافى كل منهم فى قومه ، معهم شعراؤهم، وقد خرجوا فى أحسن زى ، وبدوا فى أفخر مظهر وأملئة للعين ، مكاثرين بخيلهم وإبلهم وسلاحهم، ينحرون ويطعمون ، وربما استعان أحدهما أو كلاهما ببعض مشاهير الشعراء من غير قومه . ويجلس الحكم فى قبة قد ضربت عليه يسمع ويرى . فيبدأ أحدهما بتعديد مناقبه ومفاخر قومه، وما لهم من مواقف مشهورة ، مهاجما خصمه، مشهرا بعيوبه ، معيرا بمثالب قومه ، فى كلام مسجوع ، ربما استحال بعد قليل إلى رجز . فإذا انتهى ، وقف خصمه فرد عليه ، ونقض ما قال . ثم يتداول الشعراء الإنشاد متبادلين ، شاعر من هذا الطرف، وشاعر من ذاك،

---

(١) ابن الأثير ١ : ٣٥٩

(٢) النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى ص ٢١ .

يتملقون الحكم بمدحه ، ويظهرون مفاخر صاحبهم ومآثر قومه .

وقد اشتهرت عكاظ بمثل هذه المحافل . قال صاحب لسان العرب (قال الليث : سمى عكاظ عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار، أى يدعك ، وعكظ فلان خصمه باللدد والحجج عكظا ... وقال غيره : عكظ الرجل دابته يعكظها عكظا إذا حبسها . وتعكظ القوم تعكظاً إذا تحبسوا ينظرون فى أمورهم . قال وبه سميت عكاظ ... وحكى السهيلى : كانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ إذا اجتمعوا ،ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة . فسميت عكاظ بذلك . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة ، ويتفاخرون فيها ، ويحضرها شعراؤهم، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون ... وقال الأصمعى عكاظ نخل فى واد، بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب، بموضع منه يقال له الأثيداء).

المنافرة خليط من النثر والشعر كما رأينا . ولكنه نثر منمق، يكاد يصل فى جماله وموسيقاه وتوازى فقره وجمال صوره إلى درجة الشعر ، بل هو فى حقيقته شعر، على مابينا من مفهوم الشعر عند الجاهلين . وكانت الناحية البلاغية هى أبرز ظاهرة فى هذه المجتمعات . فالحكم الأخير يتوقف إلى حد كبير على حسن العرض ، وبلاغة الصياغة ، وقدرة المنافر ومن فى جانبه من الشعراء على التأثير فى الحكم وفى جمهور النظارة .

فالمنافرة هى الصورة البدائيه الساذجة لفن الهجاء . والجانب الهجائى منها يعتمد على المثالب الشخصية، ويدور حول الفرد ، ولكنه لايرتفع إلى الحياة فى أفقها الواسع،ودائرتها الكبيرة. وقد اعتبرناها صورة بدائية ساذجة، لأنها لاتسمو من ناحيتها الأدبية إلى الخلق والابتكار، ولكنها تعتمد على تقرير الواقع، وصياغته فى عبارة منمقة، فهى هجاء شخصى فى أحط صورة وأدنى درجاته. ثم هى لما فيها من عنصر الارتجال، لاتسمو إلى مرتبة الفن الرفيع، وليس فيها أثر

الجهد والحرص على التجويد . ولكنها تعتمد فى معظم الأحيان على حضور البديهة وسرعه الرد ، وتصيدكل شاردة، وانتهاز كل فرصة تبدر من الخصم . فهى تأخذ شكلها من الظروف المحيطة بها ، فى هذا الحوار العنيف ، والنقاش الحاد القصير . ومعظم قيمتها الأدبية راجعة إلى ماتشتمل عليه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب فى وضوح وفى صراحة .

وكان يحكم بين الناس فى هذه المنافرات طائفة من سادة العرب يسمونهم الحكام. وكان لكل قبيلة حكم يرجعون إليه فيما ينشب بينهم من خلاف ، وما يعوزهم من رأى ، فى الحرب والسلم [١].

وقد اشتهرت هذه الطائفة برجاحة العقل وفصاحة اللسان والشجاعه والنجدة ، ورويت عنهم الأمثال والشعر الحكمى . وكانوا أعلم أهل زمانهم بأنساب الناس ومنازلهم . يقول حُرَيثُ بن عَتَّاب النبهانى :

تعالوا أفاخركم أأعيا وَفقْعَسٌ ... إلى المجد أدنى أم عشيرة حاتم
إلى حَكَمٍ من قيس عيلان فيْصَلٍ ... وآخر من حَيَّىْ ربيعة عالم [٢]

ويقول مسكين الدرامى [٣] :

كلانا شاعر من حى صدق ... ولكن الرَّحىَ فوق الثِفال
وَحَكمٌ دَغْفَلاً وارحل إليه ... ولا ترح المطى من الكلال
تعال إلى بنى الكوّاء يقضوا ... بعلمهم بأنساب الرجال
تعال إلى ابن مذعور شهاب ... يُنَبِّى بالسوافل والعوالى
وعند الكيِّس النَمَرى علمٌ ... ولو أضحى بمنخرق الشمال

واشتهرت تميم وقيس بحكامها ، فكانت العرب تلجأ إليهم فى منازعاتها . فمن حكام تميم الأقرع بن حابس ، الذى قضى فى منافرة جرير بن عبد الله

---

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٨ .
(٢) يقصد هرم بن قطبة ودغفلا .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ .

البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي . وقد أدرك النبي وأسلم ، وهو من المؤلفة قلوبهم . ومنهم أكثم بن صيفي ، وهو مشهور بأمثاله ، منها « ويل للشجيّ من الخلي » ومنها « مقتل الرجل بين فكيه » ومنها « لم يهلك من مالك ماوعظك» ومنهم حاجب بن زرارة، الذى رهن كسرى قوسه. ومن حكام قيس المشهورين هرم بن سنان الفزارى، ممدوح زهير، وهو الذى انتهى إليه الحكم فى منافرة علقمة وعامر . ومنهم عامر بن الظرب العدوانى، يروى من أمثاله قوله « رب أكلة حرمت أكلات » وقوله « الرأى نائم والهوى يقظان » وقوله « رب زارع حاصدٍ سواه » ومنهم غيلان بن سلمة الثقفى، زعموا أنه كان يقسم نفسه بين ثلاثة أيام ، يوم يحكم بين الناس،ويوم ينشد فيه شعره،ويوم ينظر فى جماله. وقد لجأ إليه عامر وعلقمة فى منافرتهما فيمن لجآ إليه من الحكام .

وكان المتنافرون يلجئون فى بعض الأحيان إلى الكهان ، فيقضون بينهم بكلام مسجوع ، مثل قول الكاهن الخزاعى فى منافرة هاشم وعبد شمس : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ،من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر »[١].

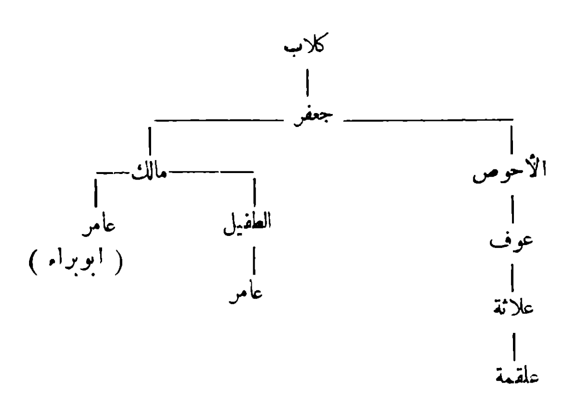
ونحن ننقل هنا مثلين للمنافرة ، أحدهما يصور المنافرة بين رجلين من قبيلة واحدة ،يتنازعان الشرف والرياسة، وقد اخترنا لتصوير هذا النوع منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . والمثل الآخر يصور المنافسة بين قبيلتين، ممثلتين فى رجلين من ساداتها ، وقد أخترنا له منافرة جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الكلبى .

منافرة عامر وعلقمة [٢]

عامر وعلقمة كلاهما من كلاب بن عامر بن صعصعة . وهما يلتقيان عند الجد الثالث لعلقمة والجد الثانى لعامر. وقد كانت السيادة فى بنى كلاب خاصة،

( ) بلوغ الادب ١ : ٣٠٨

(٢) الاغانى ١٥ : ٥٥ – ثعلب (شرح ديوان الاعشى) ص ١٦٥ – بلوغ الادب ١ : ٢٨٧ .



وفى عامر بن صعصعة عامه، للأحوص جد علقمة. فلما مات الأحوص انتقلت السيادة إلى ابن أخيه عامر بن مالك، وهو أبو براء ملاعب الأسنة . فلما أسن أبو براء تنازع عامر وعلقمة الرياسة ، عامر يرى أنها يجب أن تنتقل إليه لأنها فى عمه، ثم هو يرى نفسه أحسن بلاء فى الحرب من علقمة . وعلقمة يرى أنها كانت فى جده الأحوص، وأنها انتقلت إلى أبى براء بسببه، لأنه ابن أخيه . وشرى الشر بينهما حتى صار إلى المنافرة .تراجعا أول الأمر متفاخرين بشر مسجوع ، ثم تنافرا بخيرهما وأقربهما للخيرات على مائة من الإبل . وانحـاز الأعشى ولبيد إلى عامر ، والحطيئة وبعض بنى الأحوص ، وفيهم السندرى، إلى علقمة . واحتكموا إلى خزيمة بن عمرو بن الرجيد ، ثم إلى أبى سفيان بن حرب، ثم إلى أبى جهل بن هشام بن المغيرة ، ثم إلى غيلان بن سلمة الثقفى ،ثم حرملة بن الأشعر المرىء ، وكلهم يتحرج من الحكم فلا يقول بينهما شيئاً ، إلى أن صار الأمر إلى هرم بن سنان ، فاحتال للأمر ، واستدعى كلاً من الخصمين على حدة ، فكان يصور لكل واحد منها أن خصمه أفضل منه، فيتخيل أحدهما أنه سيفضل صاحبه ويرجوه أن لا يفعل، وأن يكتفى بالتسوية بينهما . فلما كان يوم الحكم قام هرم فسوى بينهما قائلا (أنتما كركبتى البعير الأدرم الفحل ، يقعان الأرض معاً ، وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه، وكلاكما سيد كريم) . وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى جزر كان قد

أوصاهم أن ينحروها إذا نطق بحكمه، فنحر بعضهم عشرة عن علقمة ، ونحر بعضهم عشرة عن عامر ، وفرقوا بين الناس .

بدأت المنافرة حوارا عنيفاً بين عامر وعلقمة .

قال عامر : والله لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً .

قال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا .

قال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

قال علقمة : أنا فرك أنى لبر وأنك لفاجر ، وأنى لولود وأنك لعاقر وأنى لعف وأنك لعاهر ، وأنى لواف وأنك لغادر .

قال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم ، وقد وفيت لبنى عمرو ابن تميم ، وقد زعموا أنى غدرت بهم ، وهم كاذبون . ولكنى أنافرك أنى أنحر منك للقاح ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى سنة الشياح .

قال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك ، أعزّك من أن تلقاهم وأنا خلفك . وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ، ولست كذلك . وأنت تعطى العشيرة إذا لمت . ولكنى أنافرك أنى خير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرج منك ذكراً .

قال عامر : أنت رجل ثار . وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد . وبصرى ناقص وبصرك صحيح . ولكنى أنافرك أنى أسن منك سنة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جُمَّة ، وأسرع منك جَمَّة ، وأبعد منك همة .

قال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف . وأنت جميل وأنا قبيح . ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

قال عامر : أباؤك أعمامى . ولم أكن أنافرك بهم ولا بمن ذكرت . ولكنى أنافرك أنى خير منك عقباً ، وأطعم منك جدبا .

قال علقمة : قد عرفت أن لك عقباً فى العشيرة ، وقد أطعمت طيباً . ولكنى أنافرك أنى خير منك وأولى بالخيرات .

فنافره عامر على خيرهما وأقربهما للخيرات .

وقد عظم أمر هذه المنافرة ، فكانت أشهر ماجرى فى الجاهلية من منافرات، لكثرة من اشترك فيها من الشعراء والحكام .

قال أحد بنى الأحوص يؤيد علقمه، موجهاً خطابه إلى أبى جهل بن هشام ابن المغيرة حين احتكموا إليه :

يالقريش بينوا الكلاما
إنا رضينا منكم الأحكاما
فبينوا إن كنتم حُكامَا
كان أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع الفئاما
فى يوم فخر معلم إعلاما
يحسن فيه الكر والإقداما
ودعلجاً أقدمه إقداما
لولا الذى أجشمهم إجشاما
لاتخذتهم مذحج أنعاما

وقال لبيد حين احتكموا إلى هرم مؤيداً عامراً :

ياهرم وأنت أهل عدل
هل ينزعن حسبى وفضلى
هل يذهبن فضلهم بفضلى
أن نفر الأحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهله بأهلى
لا تجمعن شكلهم وشكلى

ونســـل آبائهم ونســـلى
قد علموا أنا كرام الطبل

وكان مما أجاب به قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهنه إليك الشعر بالبيـــد
واصدد فقد ينفعك الصدود
ساد أبونا قبل أن تسودوا
سوددكم صغـــيرة زهيد

وبرز السَّـنْدَرَى متصديا لتأييد علقمه، فقيل « من ذا » ، فقال :

أنا لمن أنـكر صوتى السندرى

فإذا حمى الوطيس واحتدم النقاش، انتقلوا من الرجز إلى الشعر ، فينشد لبيد قصيدة من الطويل :

بلى إننـا ماكان شرًّا لمالك فلا زال فى الدنيا ملوما ولائما

ثم ينشد الحطيئة قصيدتين، إحداهما من الطويل، والأخرى من البسيط، وهما :

ألا آل ليلى أزمعـوا بقفول ولم ينظروا ذا حاجة لرحيل
يا عام قد كنت ذا باع ومكرمة لو أن مَسْعَـاة من جاريته أَمَمُ

ويقبل الأعشى وقد انفض الناس، بعد أن سوى هرم بين المتنافرين، فيجدد المعركة بقصيدتين، يزعم فيهما أن عامرا قد نفر على علقمة . إحداهما من الطويل:

لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصا لقد نال خيصا من عُـفَـيْرَةَ خائصا

والأخرى من السريع :

شاقك من قتـــلة أطلالها بالشط فالوتر إلى حاجر

وهو بحر نادر من الشعر الجاهلى . بل هو غريب على شعر الأعشى نفسه، لم يرو له فيه غير هذه القصيدة . ويروى صاحب الخزانة أن النبى قد نهى عن روايتها (١). وقد نسى الناس حكم هرم، وشاع بينهم قضاء الأعشى ، وعظم وقعه على علقمة، حتى بكى من قوله :

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٣٦٦

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

فكان يقول « قاتله الله ؟ أنحن كذلك ؟ ! » .

منافرة جرير البجلي وخالد الكلبي (١) .

كان سبب المنافرة أن كلبا أصابت رجلا من بجيلة ، فوافوا به عكاظا . فمر بالبجلى رجل من قومه يأكل تمرا ، فتناول الأسير من ذلك التمر شيئا ليتحرم به ، فجذبه الكلبى ، فكان بينه وبين البَجَلِىّ نقاش حاد، انطلق على أثره يتنقل بين أحياء من قومه، يستنفرهم لفك صاحبهم فلا ينهضون، حتى انتهى إلى جرير بن عبد الله البجلى، من سراة قومه ووجهائهم المترفين — كان يتخذ الثياب المصبغة والقباب الحمر — فثار لنصرة الرجل ومعه رهطه ، حتى هجم على منازل كلب بعكاظ، فانتزع منهم الأسير .

قال جرير : زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

قالت كلب : إن رجالنا خلوف .

قال جرير : لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

قالوا : كأنك تستطيل على قضاعة. إن شئت قايسناكم المجد .

قال : ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وعلى رأسهم زعيمهم خالد بن أرطاة . وجمعت قسر وعلى رأسهم سيدهم جرير بن عبدالله . ثم قام خالد فقال لجرير: ما تجعل؟

قال جرير : الخطر فى يدك

قال خالد : ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

قال جرير : ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

قال خالد : من لى بالوفاء ؟

قال جرير : كفيلك اللات والعزى وأساف نائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر . فمن عليك بالوفاء ؟

قال خالد : وَدٌّ ومناة وقلس ورضا .

(١) بلوغ الأدب ١ : ٣٠١

قال جرير : لك بالوفاء سبعون غلاماً مُـعماًّ مُخْوِلا ، يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب بين يدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، من أشراف قريش ، وحكموا الأقرع بن حابس .

قال الأقرع : ما عندك ياخالد ؟

قال : ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

قال الأقرع : ما عندك ياجرير ؟

قال : نحن أهل الذهب الأصفر، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح . نطعم الشهر ، ونضمن الدهر . ونحن الملوك لقسر .

وقام شاعر بجيلة يشيد بقومه ويتوسل إلى الحكم بما بين بجيلة ونزار من قرابة ، فكان مما قال :

ياأقرع بن حابس ياأقرع
إنى أخوك فانظرن ما تصنع
إنك إن يصرع أخوك تصرع
إنى أنا الداعى نزارا فاسمعوا
إلى باذخ من عزة ومفزع
به يضر قادر وينفع
وأدفع الضيم غداً وأمنع
عز ألد شامخ لا يقمع
يتبعه الناس ولا يستتبع
هل هو إلا ذَنَبٌ وأكرُعُ
وزَمَعٌ مؤتَشَبٌ مجمَّعُ
وحَسَبٌ وَغْلٌ وأنف أجدع

ولا يزالون فى أخذ ورد ، وجذب وشد، حتى تنتهى المنافرة بحكم الأقرع لجرير، حيث يقول : واللات والعزى، لو فاخرت قيصر ملك الروم،وكسرى عظيم الفرس، والنعمان ملك العرب، لنفرتك عليهم .

الهجاء الشخصى

إلى جانب هذا اللون الساذج من ألوان الهجاء، عرف الجاهليون ألوانا أخرى من الهجاء، هى الهجاء الشخصى والهجاء السياسى . ثم عرفوا بعد ذلك لونا آخر ظهر بظهور الإسلام، وما صحبه من حركة فكرية، يمكن أن نسميه الهجاء الدينى.

أما الهجاء الشخصى فقد كان مثاره هذه المنازعات الفردية والخلافات التى لابد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم، فى بيئة تقوم على القتال والنزاع فى سبيل الحياة . ويميل الكثير من النقاد إلى الغض من قيمة هذا الفن فى جملته ، واعتباره أحط أنواع الهجاء .

وربما لم يكن ذلك صحيحاً على إطلاقه . فقد استطاع كثير من الهجائين المتأخرين فى الأدب العربى، أن يفتنوا فى الهجاء الشخصى، ويبلغوا به درجه ممتازة . ولكننا نلاحظ أن هذا الفن فى معظمه كان متخلفاً عند الجاهليين، على كثرة ما أنتج الشعراء فيه . فقد غلبت عليه العجلة التى أبعدته عن الروية والجهدا لذى يبذله الفنان فى فنه ، فكان تصويراً سريعاً حاراً لعاطفة الغضب، التى تنحرف بطبعها عما ينبغى للفن من أناة ، وكان لذلك صورة خشنة مهوشة للتجربة، لم يختزنها الحس الفنى، ليعيد عرضها بعد أن يستثيرها من مكمنها، وقد أضفى عليها من خياله وسحره .

وربما كان لهذا الشعر قيمته الكبيرة عند مؤرخى الأدب ، لما فيه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر . ولكنه مع ذلك قليل الغناء عند طالبى اللذة الفنية ، لايجدون فيه ماينشدون من متعة . فالمشاركة فى الشعور بين القارىء والشاعر ضعيفه أو مفقودة ، وهى من أكبر العناصر التى تقوم عليها المتعة الفنية . ثم هو بعد ذلك صورة مضطربة هائجة غير مهذبة للغضب ، قليل الحظ من الخيال ، فقير فى الصور ، محدود المعانى .

فالهجاء هنا سجل ساذج لمعركة بين فردين يتشاتمان ، ترى فيه كل ألوان

العنف الذى يصحب مثل هذه الظاهرة. فيه الاستعلاء على الخصم بكل شىء — بالمال وبالأهل والحسب — وفيه السباب — المقذع فى كثير من الأحيان، والذى يتعرض لأغلظ العورات دون احتشام — وفيه التعيير والتهديد. وأكثر مانجد فيه فخراً كثيراً، وتهويلا من القدرة على البطش بالسيف، وبالشعر الذى يبقى ميسمه، ويجرى على كل لسان. وحيثما قرأنا لم نجد إلا إعادة وتكراراً لهذه المعانى، لايخرج الشعر عنها ولا يتجاوزها.

يقول المزرد بن ضرار الذبيانى (أخو الشماخ):

يهزون عرضى بالمغيب ودونه ... لقَرْمهم مندوحة ومآكل (١)
على حين أن جُرِّبتُ واشتد جانبى ... وأُنبِحَ منى رهبة من أناضل (٢)
وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت ... قناتى لايُلْفى لها الدهرَ عادل
فقد علموا من سالف الدهر أننى ... معَن إذا جد الجرَاء ونابل (٣)
زعيم لمن قاذفته بأوابد ... يُغنِّى بها السارى وتحُدى الرواحل (٤)
مذكرة تُلْفَى كثيراً رواتها ... ضَواح لها فى كل أرض أزَامل (٥)
تَكُرُّ فلا تزداد إلا استنارة ... إذا رازت الشعرَ الشفاهُ العوامل (٦)
فمن أرمه منها ببيت يلُح به ... كشامة وجه ليس للشام غاسل
كذاك جزائى فى الهَدِىِّ وإن أقل ... فلا البحر منزوح ولا الصوت صاحل (٧)

ومع ذلك، نعثر فى بعض الأحيان بشعر من هذا الباب، لايخلو من بعض المتعة الفنية، مثل قول ذى الأصبع العدوانى فى هجاء ابن عم له:

---

(١) القرم الأكل بمقدم الفم. يقول قد كان لهم مندوحه ومنصرف عن أكل عرضى فى غيابى.

(٢) أنبح منه الذين يناضلوه صيرهم إلى أن ينبحوا كالكلاب.

(٣) المعن المعترض فى كل شىء. والجراء الجرى. والنابل الحاذق بالنبل. يصف نفسه باللدد فى الخصومة والحذق باصابة الخصم.

(٤) الأوابد الوحوش وغرائب الكلام، لأنه يشرد فى كل مكان.

(٥) أزامل جمع أزمل، وهو كل صوت مختلط.

(٦) رازت الشفاه الشعر جربته. العوامل النواطق بالشعر.

(٧) الهدى التهادى بالشعر، يقصد المهاجاة. الصحل بحة الصوت. يقول إنه لا يكل ولا ينضب معينه.

ولى ابن عم على ما كان من خلق ... مختلفان فأقليه ويقلينى [1]
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالنى دونه بل خلته دونى
ياعمرو إن لاتدع شتمى ومنقصتى ... أضربْك حتى تقول الهامة اسقونى [2]
لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب ... عنى ولا أنت دَيَّانى فتخزونى
ولا تقوت عيالى يوم مَسْغَبة ... ولا بنفسك فى العَزَّاء تكفينى
إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَق ... عن الصديق ولا خيرى بممنون
ولا لسانى على الأدنى بمنطلق ... بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
عَفٌ نَدُودٌ إذا ما خفت من بلد ... هُوناً فلست بوَقَّافٍ على الهُون
عنى إليك فما أمى براعية ... ترعى المخاض وما رأيى بمغبون
كل امرىء راجع يوما لشيمته ... وإن تخالق أخلاقاً إلى حين
إنى أبىٌّ أبىٌّ ذو محافظة ... وابن أبىٍّ أبىٍّ من أبيين
لا يُخرج القسر منى غيرَ مأبِيَة ... ولا ألين لمن لا يبتغى لينى
وأنتم معشر زَيدٌ على مائة ... فأجمعوا أمركم كُلاً فكيدونى
فإن عرفتم سبيل الرشد فانطلقوا ... وإن جهلتم سبيل الرشد فأتونى
ماذا علىَّ وإن كنتم ذوى كرم ... أن لا أحبكم إن لم تحبونى
لو تشربون دمى لم يَرْوَ شاربُكم ... ولا دماؤكم جمعا تُروِّينى
ياعمرو لو لنت لى ألفيتنى بشراً ... سمحاً كريماً أجازى من يجازينى
والله لو كرهت كفى مصاحبتى ... لقلت إذ كرهت قربى لها بِينِى

---

(١) أقليه أكرهه والقلى الكراهية .

(٢) الهامة طائر كانت تزعم العرب فى أساطيرها أنه لايزال يصيح على قبر المقتول قائلا (اسقونى اسقونى) حتى يؤخذ بثأره . يهدده بأن يضربه حتى يقتله .

وربما أعوزت المعايب الشاعر فاختلق الكذبة الغليظة والفرية المندية، ثم لم يزل يكررها فى شعره حتى تروج عند الناس وتسمر بها نواديهم. وذلك شر ما يخافه الناس من الشعراء.

أغار رجل من بنى أسد على بنى عبدالله بن غطفان، فأخذ فيما غنم إبل زهير وراعيها يساراً، فتهدده زهير فى شعر يقول فيه:

يا حار لا أرمَيَنْ منكم بداهية ... لم يَلقَها سوقه قبلى ولا ملك[1]
اردد يساراً ولا تَعْنُفْ عليه ولا ... تمْعَكْ بعرضك إن الغادر المَعِكُ[2]
ولا تكونن كأقوام علمتهم ... يَلْوُون ماعندهم حتى إذا نُهِكوا
طابت نفوسهم عن حق خصمهم ... مخافة الشر فارتدوا لما تركوا[3]
تَعَلَّمَنْ ها لعمرُ الله ذا قسما ... فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك[4]
لئن حللت بجَوٍّ من بنى أسد ... فى دين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ
ليأتينك منى منطق قذع ... باق كما دَنَّس القبطة الودك[5]

فلم يلتفت الرجل لقول زهير ولم يبال به. فاتهم زهير بنى أسد بأنهم إنما يضنون بيسار راعى إبله لأن لنسائهم حاجة فيه، مفصلا فى تصوير ما يكون بينه وبينهن من أدق الحركات الفاضحة، وختم شعره بقوله[6]:

فأبلغ إن عرضت لهم رسولا ... بنى الصيداء إن نفع الجِوار
بأن الشعر ليس له مَرَدٌّ ... إذا ورد المياهَ به التجار

(١) ياحار يريد الحارث بن ورقاء الذى يهجوه ويتهدده.

(٢) المعك المطل. يقول له اردد هذا الراعى ولا تمطل فالمطل غدر.

(٣) يقول له لا تكن كأقوام يمطلون ثم لا يستطيعون المضى فى المطل فهم يرتدون لما تركوا إذا نهكهم الهجاء.

(٤) الذرع قدر الخطو. يقول له قدر بخطوك ولا تكلف نفسك منى مالا تطيق.

(٥) يقول له لئن حللت فى هذا المكان فى ملك عمرو بن هند ولم تستطع يدى أن تنالك ليدركنك هجائى. القبطية ثياب بيض من الكتان كانت تصنع فى مصر. الودك الدهن. وهو أظهر فى الثياب البيضاء.

(٦) راجع الشعر فى ديوان زهير ص ٣٠٠ ط دار الكتب المصرية.

فجزع الرجل وردالإبل على زهير مخافة أن يذهب شعره فى الناس .

وبعض هذا الهجاء الشخصى يتصل بالقبائل ومابينها من خصومات، فيكون الهجاء فى ظاهره موجهاً لشخص،وهو فى حقيقته موجه للقبيلة ممثلة فى هذا الفرد الذى هو زعيمها أو شاعرها . وهنايختلطالشتموالسباببالتلميح إلىأسبابالخصومة بين القبيلتين، فيجدالهجّاء بين يديه مادة خصبه تعينه على المضى فى قصيدته حتى تبلغ عشرات الأبيات . فنحن نعرف قصيدة للأعشى يهجو فيها جهنام تزيد على الستين بيتاً [١] . وكلا الشاعرين من قيس بن ثعلبة البكرى . وقد اشتدت الخصومه بينهما فكان كلشاعر منهما يدافع عنقومه، ثماتصل الهجاء بينهما فانتقل إلى شخصيهما،ولكنه ظل مع ذلك يحمل آثار الخصومة الأولى .

يقدم الأعشى لقصيدته بغزل يشير فيه إلى صاحبة غير مقصودة مشيرا إليها بـ (تَيَّـا) .

ألا قُلْ لتَيَّـا قبلَ مِرَّتِها اسلمى ... تحيَّةَ مُشتاقٍ إليها مُتيَّم

ولا يكاد يذهب فى هذا الغزل إلى أكثر من خمسة أبيات ، ينتقل منها إلى وصف الناقة ، فيشبهها بحمار وحشى ، يمضى فى تصوير نشاطه على طريقة الجاهليين ، فيطيل ، حتى تصل المقدمة إلى أربعة وعشرين بيتا . فإذا فرغ منها تخلص إلى الهجاء بقوله :

فدَعْ ذا ولكن ما ترى رَأْىَ كاشِحٍ ... يَرَى بيننَـامن جَهْلِه دَقَّ مَنْشِمِ

ثم هو يتجه إلى خصمه قائلا : لستُ أعرف لنفسى ذنباً عند عُـمَيْـرٍ ورهطه .

إذا ما رآنى مدبرا شام نَبْله ... ويرمى إذا أدبرت ظهرى بأسهم

---

(١) ديوان الأعشى ص ٩١ طبع أوروبا .

وإنما هى عداوة قد استخفتك (فاستأخِرْ لها أو تَقدَّمِ) .

وكنتُ إذا نفسُ الغَوِىِّ نَزَتْ به صقعتُ على العِرْنينِ منه بمِيسَمِ

ويقول مخاطبا جهنام — لئن خرقت الأرض فكنت فى جُبٍّ ثمانين قامة (ورُقِّيتَ أسبابَ السماء بسلم) .

ليستدرجَنْكَ القولُ حتى تَهِرَّه وتعلمَ أَنِّى عنك لستُ بمُسْجَم

وتَشرقَ بالقول الذى قد أذعتَه كما شَرِقتْ صدرُ القناة من الدَّم

وهو يعجب لسعد بن قيس أهل جهنام ، ولأهل الحرقتين سعد وتيم ، فهم ينفون عنه العلا والحسب ، كأنه ليس منهم ، وكأنه (نَفِىٌّ من إياد وتُرْخُم) .

وقد رأى الأعشى أن الناس أقبلوا للشر هائجين .

وصِيحَ علينا بالسياط وبالقنا إلى غايةٍ مرفوعةٍ عند مَوْسم

فدعا خليلة الجنى مِسْحَلاً ، أما خصومه فقد دعوا جَهَنَّام — جَدْعاً للهَجِينِ المُذمَّم — وهو يتهدد جهنام، وينذره بالهزيمة ، قائلا : كيف تغلبنى وأنت لا تفوقنى حسبا ، ولا تبزنى بيانا ؟

لئن جدَّ أسبابُ العداوة بيننا لتَرتحِلَنْ منى على ظهر شَيْهَم

وتركَبَ منى أن بَلوْتَ نَكيِشَتى على نَشَزٍ قد شاب ليس بتوأم

فما حسبى إن قِسْتَه بمُقَصِّر ولا أنا إن جد الهجاء بمُفْحَم

ثم يشير إلى احتدام الشر بينهما ، وإلى مهاجاة كانت بينهما فى حفل كبير ، يدافع كل منهما عن قومه ويحتمى بهم فى آن واحد .

وما زال إهداءُ الهَراجِرِ بيننا وتَرقيتُ أقوام لحَيْنٍ ومأتم

وأمرُ السَّنَى حتى التقينا غُدَيَّةً كلانا يُحامِى عن ذِمارٍ ويَحْتَمِى

تُركْنا وخَلَّى ذو الهَرادَةِ بيننا بأثْقَبِ نيران العدواةِ تَرْتَمِى

ويقول إن هذه المهاجاة قد انتهت بسبقه ، بفضل ماحباه به صاحبه الجنى ، فولى خصمه ، وقد استحال لونه ، وكبا وجهه ، كأنما طلى الورس أو خُضِبَ بِعِظْلِم (١) — ثم يفخر بقومه ، ويذكر نعمهم وأياديهم على قوم جهنام . فهم أصحاب يوم فطيمة ، منعوا بنى شيبان أن يشربوا من العين ، وجبهوهم بالطعن حتى تولوا مدبرين . وهم أصحاب أيام حجر ، إذ يحرقون النخيل فتظل قائمة كأنها مآتم سود . وهم المنعمون على قوم جهنام بفك سيديهم ، إذ تلافاهما بِشْرٌ من الموت بعد أن أُسلِما شر مُسْلَمِ . ويختم القصيدة بقوله:

فذلك من أيامنا وبلائنا ونُعْمَى عليكم إن شكرتم لأَنْعُمِ
فإن أنتم لم تَعْرِفوا ذاك فاسألوا أبا مالك أو سائلوا رَهْطَ أَشْيَمِ
وكائن لنا فضلاً عليكم ومِنَّةً قديماً فما تدرون ما مَنُّ مُنعِم

(١) شجر يخضب به الشيب .

الحطيئـــة

ظل هذا الفن فى معظمه قليل الخطر من الناحية الفنية كما قدمنا حتى نبغ فيه شاعر كبير هو الحطيئة ، فارتفعت قيمته وعظم خطره ، فقد احترف هذا الشاعر الهجاء كما احترف المدح . ارتزق بالمدح عند الكريم الذى تهزه الأريحية ، وبالهجاء عند البخيل الذى يضن بماله ، ولا يبذله للمادح . فأصبح الهجاء على يديه صناعة ، يقف عليها الشاعر جهده ، ويفتن فيها ما يجعل لها الأثر المرجو فى الناس .

أحاطت بنشأة الحطيئه ظروف لا تحبب إليه الحياة ، ولا تعطف قلبه على الناس . فقد ولد لأ َمـة ، حملت به من سيدها أوس بن مالك العبسى ، واضطرت أن تكتم ذلك عن سيدتها — وهى من بنى ذهل بن شيبان — فزعمت لها أنها إنما حملت به من أخيها الأفقم ، ثم مات سيدها ، وأعتقتها سيدتها بعد أن زوجتها رجلا من بنى عبس . وعند ذلك اعترفت بأنها إنما حملت من سيدها . فالحطيئة قد خرج إلى الدنيا يحمل أوزاراً لايد له فيها ، وقذف به إلى الحياة ملعونا من الناس ، لا يجد عندهم حنانا ، ولا يلقى منهم إحسانا . وجه قبيح ، وجسم رث قمىء ، ونسب مغموز . ينتسب لذُهل مطالباً بميراثه من الأفقم ، فيُردُّ مذموما مدحوراً . فاذا انقلب إلى بنى عبس ، وطالب بميراثه من أوس ، لم يكن نصيبه إلا السخرية والاستهزاء . فأى شىء ينتظر من رجل هذا شأنه إلا أن يكون كارهاً للدنيا ، ناقماً عن كل من فيها ، ؟ هو ناقم على أمه التى حملته شهوة ، ولفظته لعنة . وهو ناقم على هذا الأب المجهول ، الذى لم يورثه إلا عاراً باقياً ، ووصمة لازبة . وهو ناقم على الظروف ، التى جمعت عليه إلى كل هذا ، قبح المنظر ودمامة الخلقة . ورجل هذا شأنه ، لامخرج له من ورطته إلا بأن يواجه الحياة فى جرأة صفيقة ،

لا يبالى معها ما كان من أمره ، وأن يلقى الناس بوجه جامد قد أعده لما يقولون ، وأن يكف عن نفسه أذى الناس بإيذائهم ، ويدفع تهجمهم عليه بسلاطته عليهم .

ليس عجيباً أن يكون الحطيئة مع هذا لئيما كثير الشر ، بل العجب كل العجب أن يأتى خيراً فاضلا ، ففضل الدنيا وإحسان الدهر ، لا يستطيع أن يغسل عاره ، أو يمحو وصمته . فهو رجل قد رسم له طريقة ، بين قوم لا يثنيهم عن الظلم إلا الظلم ، ولا يردهم عن العدوان إلا العدوان .

انصرف منذ نشأته إلى الشعر ، فكان راوية لزهير ، ولابنه كعب من بعده ، حتى نبغ فيه ، فكان جنته التى يستتر بها عيوبه ، وسلاحه الذى يرهب به مهاجميه. وعدا على الناس بالشتم، ينال منهم قبل أن ينالوا منه، لا يفرق بين أحد منهم — شريفهم ووضيعهم ، ومحسنهم وجاهلهم — وانتزع منهم رزقه بلسان سايط لا يبالى ما يقول ، فليس وراءه عرض برىء فيلوث ،أو حسب رفيع فيهدم . نخافه الناس ، واتقوا أذاه بالإحسان ، وجعلوا أموالهم من دون شره .

احترف الحطيئة الهجاء ، واتخذه تجارة ومعاشاً . ولم ير فى الدنيا رجلا حقيقاً بحبه وولائه . فهو يهجوهم جميعاً ، حتى يحسنو اليه فيكف . فإن عظم عطاء الكريم وأغرقه فيضه ، مدحه فى شعر يجود ويسف بمقدار ما قدم من أجر . إن قل العطاء ، قال مثل شعره فى عُيَيْنَةَ بن النَهَّاس العِجْلى ، وهو من وجوه بكر بن وائل :

سُئلْتَ فلم تبخل ولم تُعطِ طائلاً فسيان لاذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ
وأنتَ امرؤٌ لاالجودمنك سَجيةٌ فتعطى وقد يُعدِى على النائل الوُجدُ[1]

(١) الوجد اليسار . يقول إن اليسار قد يعين البخيل على أن يعطى الناس . فهذا الرجل لم يعط لأن الكرم طبع فيه وسجية ، ولكن هان عليه أن يعطى لأن ماله كثير

وإن غمره الإحسان فأرضاه ، قال مثل قوله فى آل شمّاس بن لأى :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
أقِلّوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أو سُدّوا المكان الذى سدّوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا
وإن كانت النُّعمى عليهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا
وإن قال مولاهم على جُلّ حادث ... من الدهر رُدّوا فضلَ أحلامكم ردّوا

لما استعطف الحطيئة عمر ، بعد أن سجنه فى هجاء الزبرقان ، عفا عنه . ثم قال له : إياك وهجاء الناس . قال : إذاً يموت عيالى جوعا ، هذا مكسبى ومنه معاشى . وله فى عمر قصيدة تصور ضيقه بهذا الحكم الصارم ، الذى حرمه مرتزقه ، وأذهب هيبته بين الناس ، وقد اطمأنوا من شره ، وأمنوا هجاءه . وهو يسخر فيها من نظام بيت المال . يحرم عمر الشعراء ، ولا زرع لهم ولا مال إلا مايرتزقون به من شعر ، فهو أشأم عليهم من البسوس ، ويغدق على العاج النازح ، والعبد الأوكع ، والكاذب المحتال ، الذى يزعم له أن أمه ماتت ، وقد صدق ، ولكنها ماتت من عهد عاد ! وهو يسمى عمر ملكا ، لأنه لايرى النبوة والخلافة إلا ملكا ، ولا يفهم من الدين إلا أنه وسيلة للسيطرة والسلطان ، كما سنرى :

ياأيها الملكُ الذى أمستْ له ... بُصْرَى وغَزَّةُ سهلُها والأجرعُ
ومليكُها وقسيمُها عن أمره ... يُعطِى بأمرك ماتشاء ويَمنع
أشكو إليك فأشتكى ذُرِّيَّةً ... لايشبعون وأمُّهم لا تَشْبَع
كثُروا علىَّ فما يموت كبيرُهم ... حتى الحساب ولا الصغير المُرْضَع
وجفاءَ مولاى الضَّنينَ بماله ... ووُلُوعَ نفسٍ همُّها بى مُودَع
والحِرْفةَ القُدْمَى وأنَّ عشيرنا ... زرعوا الحُروث وأننا لا نزرع
فبُعِثْتَ للشعراء مَبْعَثَ داحسٍ ... أو كالبسوس عنا لها تتكرَّع
ومَنَعْتَنى شتمَ البخيل فلم يخفْ ... شتمى وأصبح آمناً لا يفزع

وأخذتَ أطْرارَ الكلام فلم تدَعْ … شتماً يضُرّ ولا مديحاً ينفع
وبُعِثْتَ للدنيا تُجمِّعُ مالَها … وتصُرُّ جزْيتَها وَدأباً تجْمعَ
ومنعتَ نفسك فضْلَها ومَنْحتَها … أهلَ الفَعالِ فأنتَ خيرَ مولَعَ !
حتى يجىءَ إليكَ عِلجٌ نازحٌ … فيُصيبَ عفوتَها وعبدٌ أوكعُ
والعيلةَ الضُعفَا ومن لا خيرُهُ … خَيرٌ ومثلُهُمُ غُثاءٌ أجمعُ
أمٌّ زعمتَ لهم ! وماتتْ أمُّهُم … فى عهد عاد حين مات التُبَّعُ
فلتوشِكَنَّ وأنتَ تزعمُ أمَّهم … أن يركبوكَ بثقْلهم أو يرْضَعوا

سارعت القبائل والأشراف إلى إغداق النعم على الحطيئه ، والتلطف إليه ، قبل أن يسبقهم هجْوُه . نزل ببنى مقلد بن يربوع وقد أقْحَمَتْه السنة، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إن هذا الرجل لايسلم أحد من لسانه ، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله ، وعما يكره فنتجنبه . وقدم المدينة فى سنة مجدبة ، فجمعوا له مالا على أن ينصرف عنهم . وأقبل فى ركب بنى عبس حتى قدم المدينة ، فأقام مدة ، ثم دخل على خالد بن سعيد بن العاص ، فسأله فاعتذر إليه ، وقال ماعندى شىء . فلم يُعدْ عليه الكلام ، وخرج من عنده . فارتاب خالد ، فبعث يسأل عنه ، فأُخبرَ أنه الحطيئة . فرده . فأقبل الحطيئة فقعد لايتكلم ، فأراد خالد أن يستفتحه الكلام ، فقال . من أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

ومن يجْعَل المعروفَ من دُونِ عِرْضِه … يَفِرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ (١)

فقال خالد لبعض جلسائه : هذه بعض عقاربه ، وأمر له بكسوة وحملان. فخرج بذلك من عنده .

وعظم شر الحطيئة ، وذهب صيته فى الهجاء ، حتى اتقاه الشعراء . ووقف مرة على حسان بن ثابت وهو ينشد — وحسان لا يعرفه — فقال حسان :

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى والحطيئة يصيب برده غرضين ، فهو يجيب على سؤال الأمير بتفضيل زهير ، ثم هو يخوفه ويعرض به .

كيف تسمع يا أعرابى ؟ قال : ما أسْمَعُ بأسا .

قال حسان : أما تسمعون إلى الأعرابى ؟ ما كنيتك أيها الرجل ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ أهونَ علىّ منك حين أكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . فوقع اسمه من حسان موقع الصاعقة ، فأطرق برأسه ، ثم قال له : امض بسلام .

كان الحطيئة أعرابيا غليظا ، كما تصوره هذه القصة ، وكما يصوره شعره . وقد وصف القرآن الأعراب بقوله (الأعرابُ أشَدُّ كُفْراً ونِفَاقا ، وأَجْدَرُ أن لا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أنزَلَ الله) وقد كان الحطيئة كذلك . كان فظا لم يرق قلبه لشىء ، ولم يشرح صدرَه هذا الدينُ الجديد ، لأنه يدعو إلى قانون أخلاق لا يعرفه ، ولا يستطيع أن يسيغه . فهو لا يعرف من الحياة إلا القسوة والغلظة والعدوان . قست عليه الظروف ، فقسا على الناس. وكان منافقا ، لأنه يبيع نفسه لرغبة أو رهبة ، كما وصف نفسه عند سعيد ابن العاص ، حين سأله عن أشعر الناس ، فقال : والله لحَسْبُكَ بى فى رغبة أو رهبة ، إذا رفعتُ إحدى رجلَىَّ على الأخرى ، ثم عوَيْتُ فى أثر القوافى ، كما يعوى الفصيل وراء الإبل الصادرة .

كان هذا الرجل ملحدا بطبعه ، وبحكم الظروف القاسية التى أحاطت به . فهو لا يستطيع أن يفهم أن فى السماء عدلا ، وأن فى الأرض بشراً أطهاراً . فهو غليظ القلب ، لا يفهم من النبوة إلا أنها وسيلة للملك ، يرثه الأبناء عن الآباء ، ولا يرى الزكاة إلا مالا مفروضا لهؤلاء الملوك ، يؤديه رعاياهم كارهين .

ولكنه منافق ، يظهر الخضوع إذا لم يكن منه بد . وقد تعود دائما أن يخضع للقوة . فسكت حين قوى أمر النبى ، ودخل فيما دخل فيه الناس . فلما مات النبى ، وارتدت العرب ، جهر بكفره ، وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة ، ويذم هذه القبائل التى ذلت بإعطائها من عبس وطىء

ودودان ، ويدعو الناس للخروج على أبى بكر . يقول : زعم محمد أنه نبى ، وقد أطعناه ، وأدينا له الزكاة ، فما بال أبى بكر ؟ أى طاعة له علينا ؟ وكأنما توهم الحطيئة أن لأبى بكر ابنا اسمه بكر ، فزعم أنه سيورثه الملك من بعده ، (وتلك لعَمْرُ الله قاصِمَة الظَّهْر !) .

ألا كُلُّ أرْماحٍ قِصارٍ أذِلَّة
فِداءٌ لأرْماحٍ رُكِزْنَ على الغَمْر (١)
فإن الذى أعطيتُمُو أو مَنَعْتُمو
لكالتَّمْر أو أحْلَى لِحلْفِ بنى فِهْر (٢)
فباسْتِ بنى عَبْسٍ وأفْناءِ طَيِّءٍ
وباسْتِ بنى دُودَان حاشا بنى نَصْر (٣)
أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا
فياعجبا ما بالُ دِينِ أبى بَكْر؟ (٤)
ليورِثَها بَكْراً إذا مات بعده؟
فتلك وبَيْتِ الله قاصِمةُ الظَّهْر
فِدًى لبَنى ذبيان أمى وخالتى
عشِيَّةَ يُحْدَى بالرماح أبو بكر
أبَوْا غيرَ ضرب يَجْثِمُ الهَامُ وَسْطَه
وطعناً كأفواه المُزَقَّقَة الحُمْر (٥)
فقوموا ولا تعطوا اللئامَ مَقَادَةً
وقوموا وإن كان القيامُ على الجَمْر

(١) ماء معروف .
(٢) بنو فهر هم قريش . وفهر هو قريش نفسه جدهم الأكبر .
(٣) هؤلاء قد أعطوا الزكاة . نصر بن قعين من بنى أسد وهم من المانعين الزكاة .
(٤) الدين الطاعة .
(٥) المزققة الحمر يقصد بها القرب . يشبه الطعن بها لشدة تدفق الدم منه .

وقد دخل الحطيئة بعد ذلك فى الإسلام ، حين استتب الأمر فى الجزيرة ، ولكنه ظل فى قرارته كافراً بعيداً عن الإيمان ، فهو يصر على رأيه فى الخلافة ولا يراها إلا ملكا . وهو يحسد عمر هذا الملك العريض ، الذى تجبى إليه ثمراته وأمواله ، فيتصرف فيها كيف شاء .

يا أيها الملك الذى أمسَت له ... بُصرى وغزةُ سهلُها والأجرعُ
ومليكها وقسيمُها عن أمره ... يُعطى بأمرِكَ ما تشاء ويمنعُ

وهو إذا مدح عمر ، لم ير فيه إلا ما يرى الجاهلى فى ممدوحه ، فهو أوفى قريش حبالا

وأطْوَلُهُمْ فى النَّدَى بَسْطَةً ... وأفضلُهُم حين عَدُّوا مَقالا

يمدحه بشعر غث ، ليس عليه مسحة من الصدق ، بيد أنه صريح فى الضيق بهذا العهد ، الذى حرم الشعراء ما كانوا يتمتعون به من حرية فى القول ، ونفوذ بين الناس .

فَبُعِثْتَ للشعراء مبعثَ داحس ... أو كالبسوس عِقالُها تتكوَّعُ
وبُعِثْتَ للدنيا تُجمِّعُ مالَها ... وتَصُرُّ جزيتَها ودأباً تَجمَعُ

والحطيئة يدافع عن الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط حين حده عثمان فى الخمر وعزله ، وقد شهدوا عليه أنه صلى بالناس ثملا ، ثم التفت إليهم وقد تمت الصلاة ، فقال : أأزيدكم ؟ وهو لا يرى عليه فى ذلك بأساً ، فإنما أراد أن يستكثر لهم من الخير ، وهو إن عزل ، فليس عليه فى ذلك من ضير ، ما دام لم يُرددْ إلى عوَز أو فقر .

شَهِدَ الحطيئةُ يومَ يلقى ربَّه ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادى وقد تمَّتْ صلاتُهُم ... أأزيدكم ؟ ثَمِلاً وما يدرى
ليزيدَهم خيراً ، ولو قبلوا ... لقَرَنْتَ بين الشَّفْعِ والوِتْرِ
فأبَوا أبا وَهْبٍ ولو فعلوا ... زادَتْ صلاتُهُم على العَشْرِ
خلعوا عِنانَكَ إذ جريْتَ ولو ... تركوا عِنانَكَ لم تزَلْ تجرى

ورأوا شمائل ماجدٍ أنفٍ يُعطى على الميسورِ والعسر
فنزعت مكذوباً عليكَ ولم تُردَدْ إلى عوزٍ ولا فقر

وقد ظل هجاء الحطيئة يحمل بعض آثار المنافرة ، فهو يعتمد على التفضيل والمقارنة . يدخل بين الرجلين المتنافسين ، فيمدح أحدهما ويعرض بالآخر، فيمتلىء الأول زهواً ، ويغلى الآخر حقداً . فتثور الفتنة بين الرجلين وتَغرَى العداوةُ بين الحيين . وهذا أسلوب بالغ الأثر فى نفس العربى ، لأنه بطبعه مفاخر مكاثر ، ولأنه يبذل أثمن ما عنده لحسن الأحدوثة وطيب الذكر ، ولأن الشعر يؤلمه من وجهين . وهو فى نفس الوقت شديد الخطر فى بث الشر ، وإيقاظ الفتن بين الناس . لذلك نهى عنه عمر، وسماه الإقذاع. قال للحطيئة حين أخرجهُ من السجن : إياك وهجاءَ الناس . قال: إذاً يموت عيالى جوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاشى . قال : فإياك والمقذع من القول . قال : وما المقذع ؟ قال : أن تُخايرَ بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خيرمن آل فلان . قال : فأنت والله أهجى منى .

كان بين بَغيض بن شَمَّاس بن لأْى ، وبين الزبرقان بن بَدْر ، ما يكون بين أبناء العم من تحاسد وتنافس . فلقى الزبرقانُ الحطيئة ، وقد خرج بأهله فى سنة مجدبة ، فبعث به إلى بيته ليقيم فيه ريثما يعود، وكان فى طريقه إلى عمر ، ليؤدى إليه صدقات قومه ، فأقام الحطيئة فى بيته حيناً وهو غائب، لا يجد من زوجته كبير عناية ، فقد هان عليها ولم تكترث به ، لما رأت من رثاثته وسوء حاله . فلما سمع بذلك بنو أنف الناقة — وهم بيت سَعد قوم بَغيض — اغتنموا الفرصة ، فأرسلوا إليه يغرونه بجوارهم ، ولم يزالوا به يطمعونه ، حتى رحل إليهم ، فأغدقوا عليه حتى مال إليهم، ومدحهمُ معرِّضاً بالزبرقان . فلما عاد هذا من سفرته ، ووجد الحطيئة قد انتقل إلى جوار بغيض، ولم يجد إلى عودته سبيلا ، شكاهم إلى عمر ، فخير الحطيئة بين الحيين ، فاختار بنى أنف الناقة . وتتابعت قصائده فيهم ، مشيراً إلى غصب الزبرقان وقومه ، .

متعجباً من أمرهم ، فهو لم يبدأهم العدوان ، وإنما مدح ناساً أكرموه ، فرأوا ذلك هجاء .

ولما أن مَدحتُ القوم قلتم   هَجَوْتَ ما يَحِلُّ لكَ الهجاء
فلم أشْتِمْ لكم نسباً ولكن   حَدَوْتُ بحيثُ يُستَمَعُ الحداءُ

ولم يزل يشتد على الزبرقان ، حتى شكاه إلى عمر ، فسجنه لإغرائه العداوة بين الحيين . وكانت القصيدة التى سجنه فيها :

علامَ كَلَّفْتَنى مجدَ ابنِ عمكم   والعِيسُ تخرُجُ من أعلامِ أوطاس

وهو يقول فيها للزبرقان : ما ذنب بَغيض فى بائس لجأ إليه فأغاثه ؟ لقد توددت إليكم متلطفاً ، كما يتلطف الحالبُ إلى الناقة ، يمسح ضرعها مهدئاً روعها بإبساسه ، فلم تَدِرُّوا . وانتظرت خيركم ، كما ينتظر الضيفُ مجىءَ الإبل الصادرة عن الماء إلى الخِمْس ، فطال ما انتظرت ، ولم أجد إلا زهداً فيما أردت أن أكسوكم من مدح ، فأنا كالمقيم بين أرْماس ، تهرنى كلابكم وتجرحنى بأنياب وأضراس ، ليس لجراحى منكم آسى ، فأرحتُ نفسى باليأس من نوالكم (ولا ترى طارداً للحُرِّ كالياس) ، ثم هو يفتخر بإحاطته بأنساب القوم :

أنا ابنُ بَجْدَتِها عِلماً وتجربةً   فسَلْ بِسَعْدٍ تَجِدْنى أعلمَ الناس

ويأتى بعد ذلك البيت المشهور ، الذى عظم وقعه على الزبرقان .

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها   واقعُدْ فإنك أنتَ الطَّاعمُ الكاسى

ثم يمضى فى المفاضلة بين الحيين

سِيرى أمامُ فإنَّ الأكثرين حصىً   والأكرمين أباً من آل شماس
مَنْ يَفعَلِ الخيرَ لا يعدمْ جَوازِيَه   لا يَذْهَبُ العُرفُ بين الله والناس
ما كان ذنبى إذا فلَّتْ مَعاوِلُكُم   من آل لأْىٍ صَفَاةٌ أصلُها راسى
قد ناضلوك فأبدَوْا من كنانتهم   مَجْداً تليداً ونَبْلاً غيرَ أنْكاس

وسكت الحطيئة على مضض . ثم استأنف شعره فى بغيض وفى الزبرقان ، على هذا الأسلوب فى المفاضلة ، بعد موت عمر . وهو يعير الزبرقانَ قتلَ عمر ، ويقول زعمت أنك عزيز ، تريد أن تمنع الناس أن يجودوا بما لهم ، فقد كان أولى بك أن تمنع صاحبك أن يُقتَل . . .

أتَحْضُرُ قوماً أن يَجُودُوا بمالِهِمْ؟ فهَلاَّ قَتِيلَ الهُرْمُزانِ تُحاصِرُهُ؟

ثم يمضى فى المفاضلة بين الحيين على أسلوبه القديم :

فإن تك ذا عِزٍّ حديث فإنهم ذوو إِرْثِ مَجْدٍ لم تَخُنْهُمْ زَوَافِرُهْ[1]
وإن تك ذا شَاءٍ كثير فإنهم ذوو جَامِلٍ لَا يهدأ الليلَ سامِرُهْ
وإن تك ذا قَرْمٍ أَزَبَّ فإنهم يلاقى لهم قَرْمٌ هِجانٌ أباعره[2]
قَرَوا جارك العَيْمانَ لما تركتَه وقَلَّصَ عن بَرْدِ الشَّراب مَشَافِرُهْ[3]

وخصلة أخرى ، أتاحت لهجاء الحطيئة قوة وذيوعا ، وهى براعته فى خلق الصور وابتكارها . وهذه موهبة نبغ فيها جرير من بعد ، وامتاز فيها امتيازاً ظاهراً . فالحطيئة له بصيرة الهجاء الأصيل ، فى الاهتداء إلى وجه الشبه بين موضوع هجائه ، وبين أبشع الصور ، وأبعثها على الضحك ، وأدعاها للزراية . انظر إلى هذا الرجل العبسى الكالح ، قبح وجهه ، حتى كأنه القرد ، تروم عنده الحاجة ، فيكلح ويعبس ، ليزيد وجهه قبحا على قبح ، ثم هو يعطى آخر الأمر عن يَد صاغرا :

أبلِغْ بنى عَبْسٍ بأن نِجَارهم لؤْمٌ وأن أباهم كالهِجْرِسِ
يُعطِى الخسيسة راغباً من رامها بالضَّيْم بعد تَكَلُّحٍ وتَعَبُّسِ

---

(١) الزافره من البيت ركنه ومن الرجل عشيرته وأنصاره الذين يعتزبهم .

(٢) الزبب فى الابل كثرة شعر الوجه والعثنون وهو لا يكون فى كرامها . إبل هجان وهجائن بيض كرام .

(٣) العيمة بفتح العين شهوة اللبن والعطش . قلص عن برد الشراب مشافره يقول ضيفه هؤلاء الناس وهو فى أسوأ حال من شدة البرد قد تقلصت شفتاه . والعرب تتمدح بالكرم فى الشتاء خاصة لأنه وقت الجدب ، يحرص فيه الناس على ماعندهم .

ثم انظر إليه، كيف صورهم بعد ذلك فى قصيدة أخرى. رجال كالتيوس، ونسـاء مماجين، كأنهن الأتن دخل فى أنفها الذباب، فهى تلوى رءوسها، وتذهب لوجهها نافرة، تنعر نعيراً قبيحاً.

لهم نَفَسٌ مثلُ التيُوس ونسوة   مَمَاجِينُ مثل الآتُنِ النَّعِرات

وانظر إلى وصفه لهذين الرجلين البخيلين، كيف يهربان ممن يبغيهما، كأن أحدهما ضب عجوز، قد اتخذ جحرا فى أرض صلبة، فإذا أحس الحارش أتقاه بذنبه (١)

حَمِدْتُ إلهى أنَّنِى لم أجِدْكما
من الجوع مَأوىً أو من الخوف مَهْرَبا
ضُبَيْبَانِ حِجْلِيَّان فى آمِنِ الكُدَى
إذا ما أحَسَّا حارشَ الليل ذَنَّبا

ثم انظر إلى هذا العبسى الذى يسوّده قومه عليهم، وكأنه خصيا كبش ضخم، أُطلِق هاملا لا راعى له، ثم يقول إن أمه غلبت أباه عليه، فأشبهها دونه، ومن يدرى من أين أتت به، فقد تجىء الأم بولدها من كل وجه.

لقد ذَهَبَتْ خيراتُ قومٍ يسودهم
قُدامةُ خَصيا فَنْبَلِىٍّ مُهَمَلِ (٢)
مَنَعْتَ قَلوصاً بالمَطَالى ولم يَكُنْ
بِنَابَيْكَ منها غيرُ تُرْبٍ وجَنْدَلِ (٣)
وعَزَّتْ عليك الفحلَ سوداءُ جَوْنَةٌ (١)
وقد تَنْجُلُ الأرحامُ من كل مَنْجَلِ

---

(١) الحارش هو الذى يحترش الضباب أى يصيدها. وذلك بأن يحرك شيئا عند فم جحر الضب فيظنه الضب أفعى تدخل عليه فيخرج بذنبه فيمتلخه الحارش. وإنما يخرج بذنبه قبل رأسه.

(٢) الفنبلى الكبش الضخم   (٣) المطالى موضع. القلوص الناقة الصغيرة

(٤) الفحل الذكر يقصد أباه. عزه غلبه. يقول إن أمه — وهى أمة سوداء — قد غلبت عليه فاشبهها من دون أبيه. ومن يدرى من أبوه؟

والحطيئة بعد هذا من أكثر الناس توفقا لاختيار ألفاظه فى أهاجيه ، لها رنين يوحى بالسخرية ، ويستفز للضحك فى بعض الأحيان . انظر إلى ألفاظه فى الأبيات السابقة ، يشبه العبسى بالقرد ، فيختار للقرد لفظ (مجرس) ويشبهه تارة أخرى بالكبش، فيختار له لفظ (فَنَبْلَى)وانظر إلى الألفاظ مجتمعة فى هذا البيت (قدَامَةُ خَصْيَافَنَبَلِيٌّ مُهَمَّلِ)كيف تتصور من رنين الألفاظ وحدها شيئاً هائلا ، ولكن لا غناء فيه ، جعجعة ولا طحن . ثم انظر أخيراً إلى هذه الغنم المخصية ، قد نبت الشعر على لحيتها ، فهى قميئة هزيلة ، كأن أحدها السهم الصغير يُجْعَلُ على رأسه الطين، فيلعب به الصبيان ، يأخذها الرجل الذليل دية أخيه القتيل . انظر إلى هذه الصورة كيف كساها الحطيئة لفظا ساخرا ، يملأ الاستخفاف رنين ألفاظه .

أخو المَرْءِ يُؤْتَى دونه ثم يُتَّقَى
بزُبِّ اللِحَى جُرْدِ الخُصَى كالجَمَامِح

الهجاء السياسى

نقصد بالهجاء السياسى ، الهجاء الذى يقوم على العصبية للوطن ، فيهاجم كل مايؤذيه أو يهدد كيانه ، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس شخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة ، التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بأحساسهم ، ويرى بأعينهم ، ويسمع بآذانهم . فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثرا . والدولة أو الوطن شىء حى ، له وجود قوى ، وكيان ظاهر ملموس .

والوطن عند الجاهليين لا يصور حدوداً جغرافية معينة ، كما نتصور اليوم من هذه الكلمة . ولكنه يصور جماعة من الناس ، تربطهم أواصر من النسب ، صحيحة أو مزعومة ، قد انبنت عليها حياتهم ، فعاشوا فى حدود هذا التصور الصحيح أو المزعوم ، وقد ارتبطت مصالحهم ، متضامنين فى الخير والشر ، يداً واحدة على كل من عاداهم . وعلى هذه الأنساب ، قامت أحلافهم وحروبهم منذ عهد بعيد ، فاستقرت فى نفوسهم على مر الأيام ، وازدادوا بها إيمانا ، وقد صيرها الدم المسفوك والجهد المبذول شيئا واقعا ، وحقيقة مقررة .

كان الوطن إذن هو العصبية . وهذه العصبية هى القانون الوحيد الذى انبنت عليه حياتهم . ينصر الرجل منهم أخاه ويتعصب له ، ظالما أو مظلوما .

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهم فى النائبات على ما قال برهانا

الرجل وأخوه يدٌ واحدة على ابن العم ، وأبناء العم الأدنون يَدٌ واحدة على ابن العم البعيد ، وأبناء العمومة جميعاً يدٌ على المهاجم من الغرباء .

من أجل ذلك ، كان مفهوم العصبية مرنا يتغير بتغير الظروف . فقد يضيق حتى لا يشمل إلا البيت من البيوت ، أو البطن من البطون . وقد يتسع حتى

يضم القبيلة أو الشعب . فالأعشى مثلا شاعر بكرى . إذا وقع بأس بكر بينهم فهو يمثل بيته من بنى سعد بن ضبيعة ، ثم بنى قيس بن ثعلبة ، يهاجم من آذاهم بمكروه ، ويتغنى بمدحهم والإشادة بفضلهم . فإذا جمعت المحنة بين هذه البطون فى حرب كبيرة ، كحرب ذى قار ، حين يهاجم الفرس بكرا ، كان الصوت المعبر عن بكر بل عن وائل جميعاً ، متناسيا ما كان بين بطونهم من حزازات وأحقاد . وقد تأخذ العصبية بعد هذا شكلا أعم ، فتكون بين اليمنية والعدنانية ، كالذى كان فى يوم خَزَاز ، حين اجتمعت مَعَدٌّ كلها على كليب وائل ، واجتمعت اليمنية إلى سَلَمَة بن الحرث بن عمرو بن آكل المُرَار ، فسار إلى جموع نزار ، ثائرا لأخوته حجر وشراحيل ومُحَرِّق وشرحْبِيل .

ولدينا من هذا الهجاء السياسى صور شتى ، من هجاء يصور ما بين القبائل من منازعات ومنافسات ، إلى هجاء يصور ما بين هذه القبائل ، وبين الملوك الذين يحاولون بين الحين والحين بسط نفوذهم ، فيفرضون عليهم الإتاوات ، مثل بنى آكل المرار ، وبنى الحارث بن معاوية ، الذين ساد منهم قيس بن معديكرب أبو الأشعث ، ومثل المناذرة والغساسنة . ولون ثالث من هذا الهجاء ، يصور ما صحب نشأة الدين الجديد الذى ظهر فى الجزيرة ، من قتال وكفاح فى سبيل نشره وإقراره .

وهذه الأنواع على اختلافها ، تشترك فى معظم مظاهرها . فالغضب والحماسة يختلطان فيها ويتداخلان ، حتى يصعب تخليص أحدهما من الآخر ، فلا يستطيع قارىء هذا الهجاء أن يقول ها هنا حماسة ، وها هنا غضب ، ولكنه واجد شعرا يفيض كل بيت من أبياته ، بل كل كلمة من كلماته ، بالغضب والحماسة أقوى ما يكونان .

فالشاعر إذا تعرض لتصوير العداء بين حزبه وبين عدوه ، صوره من جانبيه ، الجانب القوى ، والجانب الضعيف ، فتطغى عليه الحماسة حين يصور قوة حزبه مفتخراً ، ثم يغلبه الغضب حين يتجه إلى عدوه ناقما متهددا . ولكنه

فى حماسته لا يبرأ من الغضب ، ولا هو فى غضبه يخلو من حماسة .

والقارىء لهذه الألوان من الهجاء ، لا يجد فيها الحقد الدفين ، والقرص الخفى ، ولكنه يجد غضبا صريحا غير مقنع ، هو صورة من صحرائهم السافرة ، ومثلهم الصريحة الواضحة ،

انظر إلى هذا الشاعر الضبى — عبد الله بن عَنَمة — كيف صور مابين قومه بنى السيد (وهم مالك الضبى) وبين أبناء عمومتهم بنى زيد (وهم من ذُهْل بن مالك الضَّبِّى) . يبدأ الشاعر مستخفا بالقوم ، فيقول :

إن بدا زيْدٌ فى نفوس أبناء عمومته من بنى كوز ومرهوب شيئا خطيرا ، فما نراه نحن خطيراً . ثم يلتفت إليهم قائلا : إن تسألوا الحق نعطكم ما تسألون غيرَ مكابرين ، والدرع فى حقيبته ، والسيف فى قرابه . فإن أبيتم ، فإنا لا نقبل الذل ، ولا نرضى الضيم ، فدونه شرب السم . فانتهوا يا بنى زيد خيرا لكم ، ولا تخوضوا فينا . ازجروا حماركم أن يرتع بروضتنا ، فنحن جديرون أن نَرُدَّه مُضَيَّقاً عليه ، مفتول القيد ، أشدَّ ما يكون الفتل ، وإنه إذن لأشأم عليكم من داحس . فإن دعوتم قومكم من ذهل أن يغضبوا لكم ، فنحن نغضب لزرعة . وإنكم لتعلمون أينا أكثر عددا وأعز نفرا .

ما إنْ تَرَى السيدُ زيداً فى نفوسهم
كما يراه بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوب

إن تسألوا الحقَّ نُعْطِ الحقَ سائلَه
والدرعُ مُحْقَبَةٌ والسيفُ مقْرُوبُ

وإنْ أَبيْتُمُ فإنَّا مَعْشرٌ أُنُفٌ
لا نَطْعَمُ الذُّلَّ إن السُّمَّ مَشْرُوب

فازجُرْ حمارك أن يَرْتَعْ برَوْضَتِنا
إذاً يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوب

ولا يكونَنَ كمَجْرَى دَاحسٍ لـــكم
في غطفان غداة الشعْب عُرقُوبُ (١)
إنْ يَدْعُ زيدٌ بنى ذُهْلٍ لمَغْضَبَةٍ
نَغْضَبُ لزُرْعَة إنَّ القِبْصَ مَحْسُوب

وظاهرة أخرى يتميز بها هذا الضرب من الهجاء ، هى الاعتماد الكبير على التاريخ والأنساب . فنرى الشاعر هنا أشبه بالمؤرخ ، لأنه يصور مجد قبيلته ، معدداً أيامهم ، بما يبعث فيهم الزهو والحماسة ، ويؤرخ ضعف أعدائهم ، معيرا هزائمهم ، بما يوقع فى نفوسهم الخزى والصغار ، ويجمع إلى هذا وذاك ، تاريخ الرجال من القبيلتين ، بما يلبس قبيلته الفخر ، ويكسو أعداءهم العار . ولذلك كان لابد للشاعر المتصدى لهذا القصد ، أن يلم بالأخبار والأنساب إلماما حسنا . وهذا هو حسان ، يتصدى للدفاع عن الإسلام ، فيدله النبي على أبي بكر ، يستعين به فيما يحتاج إليه منها . ومما يصور قيمة الأنساب وخطرها وشدة اهتمام الناس بها ، هذه القصة التى يرويها صاحب العقد فى لقاء أبي بكر لدغفل ، وما كان بينهما من ملاحاة فى الأنساب . وهى قصة طريفة ، تقدم لنا لونا جديداً من الهجاء الذى يعتمد على الأنساب ، وهو قريب الشبه بما رأيناه فى المنافرة (٣) . قال صاحب العقد ، بعد أن روى سنده عن على بن أبي طالب : لما أُمِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل ، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر ، حتى رُفِعْنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم — وكان أبو بكر مقدما فى كل (٤) خَيَر ، وكان رجلا نسابة .

(١) كان النزاع بين عبس وذبيان بسبب رهان على الخيل . راهن قيس بن زهير العبسى على داحس والغبراء وراهن حذيفة بن بدر الفزارى (من ذبان) على الخطار والحنفاء . ثم إن حذيفة خدع قيسا فأرصد فى طريق خيله من صدها وبذلك كسب الرهان فكاو ذلك سبب الحرب . الشعب هو شعب الجيس . عرقوب اسم فرس .

(٢) القبص بكسر القاف وسكون الباء العدد الكثير . يقصد أنهم أكثر منهم عددا .

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٧٤ .

(٤) يقصد أنه كان عالما بالأنساب وأخبار الناس .

فقال : ممن القوم ؟

قالوا : من ربيعة .

قال : وأى ربيعه أنتم ؟ أمن هامتها أم من لهازمها ؟

قالوا : من هامتها العظمى .

قال : وأى هامتها العظمى أنتم ؟

قالوا : ذهل الأكبر .

قال أبو بكر : فمنكم عوف بن محلم الذى يقال فيه لا حُرّ إلا بوادى عوف ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم جساس بن مرة الحامى الذمار ، والمانع الجار ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم الحوافزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردية ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم أخوال الملوك من كندة ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟

قالوا : لا .

قال أبو بكر : فلستم ذهلا الأكبر أنتم ذهل الأصغر .

فقام إليه غلام من شيبان ، حين بَقَلَ وجهُه ، يقال له دغفل ، فقال :

إنّ على سائلنا أن نَسْأله والعِبْءُ لا تَعْرِفُه أو تَحْمِلَه

ياهذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمن الرجل ؟

قال أبو بكر .من قريش .

قال : بخٍ . بخٍ . أهلُ الشرف والرياسة . فمن أى قريش أنت ؟

قال : من ولد تَيْم بن مُرّة .

قال : أمكنت والله الرامى من صفا الثغرة . أفمنكم قصى بن كلاب، الذى جمع القبائل فسمى مُجَمِّعا ؟

قال : لا .

قال : أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ،ورجال مكة مُسْنِتُون عجاف ؟

قال : لا .

قال : فمنكم شَيْبَةُ الحَمْد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى وجهه كالقمر فى الليلة الظلماء ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الندوة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الرفادة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل السقاية أنت ؟

قال : لا .

فاجتذب أبو بكر زمام الناقة ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغلام .

صادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءاً يَدْفَعُه يَهِيضُه حِيناً وحِيناً يصْدعُهْ

فتبسم النبي عليه السلام .

قال علي : وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على بَاقِعَـة . . . . .

قال : أجل .

قال : مامن طامة إلا وفوقها أخرى ، والبلاء موكل بالمنطق ، والحديث ذو شجون .

ومن أجمل الشعر الذي يصور هذه الظاهرة فى الهجاء السياسى الذي يعتمد على التاريخ والأنساب مطولة الحارث بن حلزة ، التى أنشدها بين يدى عمرو ابن هند ، حين رُفع إليه ما بين تغلب وبكر من خلاف . ونحن نلخص هذه القصيدة الرائعة ، ونترك للقارىء الرجوع إلى النص فى مصادره .

يبدأ الحارث قصيدته بذكر صاحبته أسماء ، فقد آذنته بالبين ، بعد عهد لها ببرقه شماء ، وما كان مقامها مملولا ، ولا مرغوبا عنه . يذكرها الشاعر فى أسى هادىء ، متنقلا بين الأماكن التى كانت تحل بها ، فإذا هاجته الذكرى بكى ، وإن كان يعلم أن البكاء لا يرد فائتا ، ثم لا يلبث أن ينصرف إلى ناقته ، يستعين بها على الهم ، فيشبهها وهى تسرع به فى الصحراء بالنعامة قد أفزعها القناص ، والظلام مقبل عليها ، ويصف الغبار الذى تثيره خلفها ، وقد ارتفع فى الفضاء لسرعتها ، ثم بدأ يتساقط على الأرض إذ بعدت عنه . وهو يستغرق فى هذه المقدمة أربعة عشر بيتا ، ينتقل بعدها إلى غرض قصيدته ، وما بين قومه وبين الأراقم — وهم بعض بطون تغلب — من عداء .

وهو لا يهاجم الأراقم بادىء الأمر ، بل يتلطف فى شبه عتاب ، ثم يشتد ذلك العتاب فيصبح تقريعا ، ثم تعييرا ، ثم مهاجمة عنيفة .

يقول : إنكم تخلطون البرىء منا بذى الذنب حتى ما ينفع البرىء براءته وكأن كل صاحب جريرة مَوْلىً لنـا نحن عنه مسئولون . ثم يصفهم وقد استعدوا للقتال ، فأجمعوا أمرهم بليل ، ثم أصبحوا ولهم جلبة وضوضاء .

مِنْ مُـنَادٍ ومن مُجِيبٍ ومن تَصْهَـالِ خَيْلٍ خلالَ ذاك رُغاءُ

ثم هم لايزالون يغرون بهم الملك عمروا ، ويظنون أنهم غافلون . ومن قَبْلُ ماقد وشى بهم الأعداء ، فلم يضرهم ذلك شيئا ، وظلوا على الشَّنَاءَةِ والبغض ، تمنعهم حصون وعزة قعساء ، لايبالون أن تَبْيَضَّ عيونُ الناس غيظا وحسدا . فهم كالجبل الراسخ الضارب فى السماء ، تنشق عنه السحب ، وقد بدا مكفهرا ، لاتنال منه أحداث الدهر وإن جلت وعظمت .

ويتجه بعد ذلك إلى تغلب قائلا : أيُّمَا خُطَّةٍ أردتم فأدُّوها إلينا ، يتشاوَرْ فيها أشرافنا وأشرافكم ، فنحن معكم فيما تريدون . إن نبشتم ما بين « مِلْحَةَ » و « الصَّاقبِ » ، حيث كانت المعارك ، وجدتم من قتلانا أحياء أخذ بثأرهم ، ووجدتم من قتلاكم أمواتا لم يثأر لهم . أو استقصيتم أمرنا وأمركم ، فكنتم كالنَّاقشِ الذى يستخرج الشَّوْكَ ، فقد يَجْشَمُ الناس النَّقْشَ (١) على مافيه من ألم ، بغيةَ الشفاء . أو سكتم عنا ، فكنا كمن أغمض عينا فى جفنها أقذاء . .

أو منعتم أن تجيبوا إلى شىء مما تُسألون ، فمن فيما تعلمون له علينا فضل أو علاء ؟

ويعرض الشاعر بعد هذا قوة قومه ، فيصورهم فى تاريخهم الطويل ، وأيامهم المظفرة ، أروع تصوير . يقول :

هل علمتُمْ أيام يُنْتَهَبُ النا سِ غِواراً لكل حَىّ عُواء
إذ رفعنا الجِمَالَ من سَعَفِ ال بَحْرَيْنِ حتى نهاها الحِسَاءُ
ثم مِلْنا على تمَيِم فأحْرَمْ نا وفينا بَنَاتُ قَوْمٍ إمَاءُ
لايُقِيمُ العزيزُ بالبَلَدِ السَّهْ لِ ولا يَنْفَعُ الذليلَ النَّجَاءُ
ليس يُنْجِى الذى يُوائِلُ مِنَّا رأسُ طَوْدٍ وحَرَّةٌ رَجْلاء

ويختم ذلك الفخر القوى بقوله

فملَكْنا بذلك الناسَ حتى مَلَكَ المُنْذِرُ بن مَاءِ السَّماء

ولم يشأ الشاعر أن يمر بالمنذر ، من غير أن يستميل إليه ابنه عمرو بن

---

(١) النقش استخراج الشوكة من الجسم إذا دخلت فيه .

هند، بالثناء عليه، فوصفه بأنه (مَلِكٌ أَضرَعُ البَرِيَّةِ لا يوجَدُ فيها لما لَدَيه كِفَاءُ).

ثم عاد الشاعر إلى التغلبيين، يهددهم وينذرهم سوء عاقبة طَيْخِهِم وعدوانهم، وتناسيهم ما تعاقدوا عليه فى ذى المجاز، وما قُدِّم فيه من عقود وكُفَلاء، حذر الجور والتعدى. ثم هم بعد ذلك ينقضون ما عاهدوا عليه. ومن عَجَبٍ أن تنقض الأهواءُ ما سُجِّل فى الصحف!

وجرى الحارث بعد هذا على تعييرهم. فسلك لذلك طريقاً يسلكه كثير من الناس حين يتلاحَوْن ويغير بعضهم بعضا. فهو يقول لهم: أتلزموننا ذنوب قوم كذا ... أم قوم كذا ... أم كذا.؟ ويمضى معدداً القبائل التى قهرتهم، وهو يقول: ما ذنبنا فيما فعل هؤلاء .. يلطمونكم فلا تستطيعون لأنفسكم دفعا، ولا أنتم تنتصرون، ثم تتجنون علينا، كأن لهم الغُنْم وعلينا الجزاء. إن تلزمونا هذه الذنوب فعَنَتاً ما تفعلون وظلماً، كما يُذبَح الظبي عَتيرةً (١) بدل الشاة وما هو بالمنذور.

ويعود إلى سابق تعييره، فيذكرهم هزيمة تميم لهم، ويصف الوقعة، ويضبط مكانها، ويحدد عدد المغيرين، وما كان من محاولة تغلب نيل ثأرهم، ورجوعهم خائبين، ثم إطلالِ الغَلاَّقِ دماءَهم وإهدارها.

وثمانون من تَميمٍ بأيديهم رما ح صدورهن القضاء
لم يُحَلوا بنى رِزَاحٍ بَبرْقاء نَطا ع لهم عليهم دُعَاء (٢)
تركوهم مُلَحَّبِين وآبوا بِنِهابٍ يَصَمُّ منه الحُدَاء
ثم جاءوا يَسْترجِعُون فلم تَرْ جِعْ لهم شَامَةٌ ولا بَيْضاء
ثم فاءوا منهم بقاصِمة الظَّهْـ ـر ولا يَبْرُدُ الغليلَ الماءُ

(١) العتيرة ذبيحة تذبح للاصنام فى رجب. وقد كان الرجل ينذر إن بلغ الله غنم مائه أن يذبح منها واحدة للاصنام. ثم ربما ضنت نفسه بها، فأخذ ظبيا فذبحه مكان الشاة الواجبة عليه

(٢) برقاء نطاع اسم مكان: يعيرهم أنهم أحلوا محارم هؤلاء القوم بذلك المكان.

ثم خيلٌ من بعد ذلك مع الغَـــلاّق لا رأفةً ولا إبْقَاءُ
ما أصابوا من تغلبي فمَطْلُو لٌ عليه إذا أُصِيبَ العَفَاءُ

ويختم الحارث قصيدته بمحاولة ناجحة لاستمالة الملك إلى جانب قومه، فيتجه إلى بني تغلب قائلا: يا مبلغا عنا الوشاية عمرا! كفاك فعمرو يعرفنا، ولنا عنده من المكرمات وحسن السيرة ما يملأ نفسه اطمئنانا إلينا. ثم يذكر الملك بوفاء قومه له ولأجداده، فيقول إن لنا عنده من الخير آيات ثلاثاً فى كلهن القضاء.

أولها — مساعدتنا للملك الحيرى عند غارة اليمن. إذ جَبَهْناهم بطعن يندفع الدم من آثاره اندفاع الماء من أفواه القرب، حتى ولوا هاربين، تَدْمَى كُلُومُهم على أعقابهم.

وقد وصف جيش اليمن بأنه كان يجمع طوائف مختلفة، (لكل حيّ لواء)، أحاطت كلها برئيس يَمَنِي، برز من بينهم كأنه هضبة عالية، ومع الجيش جمع من النساء الكريمات، اللائى لا يأمرهن رجل، وإنما تحكم فيهن كريمة من بينهن — ومن بعد ذلك هزمنا حُجْر بن أم قَطَام الكندى، حين سار لغزو امرىء القيس الثانى — جد عمرو بن هند — يقود كتيبة فارسية قد علا دروعها الصدأ، فأنهلنا الرماح من أجسامهم، كما تتحرك الدلاء فى البئر صاعدة هابطة.

وثانى هذه الآيات فَكُّنا أغلال امرىء القيس (أخى الملك)، وإنقاذه بعد أن طال حبسه والعناء، وقتلنا ملك غسان قَوَداً بالمنذر بن ماء السماء، وأسرنا من بنى آكل المُرَار تسعة أملاك أسلابهم أغلاء، وهزيمتنا الجَوْن حين خف لإنقاذهم يقود جيشا من الأوس.

وثالث هذه الآيات ما بيننا وبين الملك من قرابة. فنحن ولدنا الملك عمرا من أم أناس الشيبانية جدته لأمه. وهذه القرابة حقيقة أن توجب له علينا الإخلاص والوفاء.

وبهذه الخاتمة الرائعة يختم الحارث قصيدته ، وقد ضمن أنه ترك فى الملك أثراً عظيما ، وعطفه على قومه .

وللشاعر هنا صفتان بارزتان . فهو محام يتولى الدفاع عن قومه ، فى أسلوب خطابى رائع ، يجمع بين التأثير والإقناع . ثم هو مؤرخ قصاص ، قد وعى التاريخ والأنساب ، وأحاط بهما أدق إحاطة .

وأروع ما فى القصيدة سهولتها التى تصور طبعا شعريا سمحا صافيا ، وألفاظها التى تجمع بين قوة التعبير والإيجاز المثير ، وترتيبُها الذى يصور إلى جانب القدرة الشعرية موهبة خطابية ممتازة .

وأقوى ما يكون هذا اللون من الهجاء ، حين يهاجم الملوك والدول الكبيرة ، التى تحاول بسط سلطانها على من جاورها من القبائل . لأن الشعر يبدو فى مثل هذه المواطن ، معبرا عن عاطفة إنسانية ، أعم وأشمل مما نجد فى ذلك الهجاء ، الذى يصور نزاعا بين القبائل ، هو قريب من النزاع الفردى . فهو شعر يصور الحرية ومقاومة الطغيان ، ويستند إلى عاطفة إنسانية دائمة ، تجد من يتجاوب معها ويتأثر بها فى كل عصر ومكان. أما ذاك ، فشعر يقوم على منفعة الفرد ، وكل ما يستند إليه من المثل ، هو القوة المطلقة ، التى تجعل صاحبها محقا فى كل ما يأتى وما تنال يده .

ومعظم هذا الهجاء فى القبائل القريبة من العراق . وهو شعر ثائر ، يصور إباء هذه الجماعات لظلم المناذرة ، وما يفرضون عليهم من إتاوات غير عادلة . والعربى بطبعه ينفر من السلطان المنظم ، ويأبى أن ينزل على حكم المُحْتَكِم ونحن نقدم بعض مختارات من هذا الشعر :

قال جابر بن حُنَىّ التغلبى ، يصور ما آل إليه قومه من ذل ، وقد فرق بينهم الشر ، بعد أن كانوا يدا واحدة، وهدم بنيانهم ، بعد أن كان متينا مشيدا. صاروا إلى قبول الديات ، وكانوا ينزلون الثغر المَخوف ، فتتواضع لهم مَخَارِمُه . وهو يصور فيما يصور من الذل الذى لحق قومه ،هذه الإتاوات

التى يؤدونها كارهين لجباة المناذرة ، ويتهددهم مبينا قوة قومه وجلدهم على الحروب :

لِتَغلب أبكى إذ أثارَتْ رماحُها
غوَائلُ شَرٍّ بينها مُتَثَلّمٌ
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم
ومَنْ لا يَشِدْ بنيانه يتهدم
بحى ككوثلِّ السفينة أمرُهم
إلى سَلَفٍ عادٍ إذا احتلَ مرزمُ (١)
إذا نزلوا الثَّغرَ المَخُوفَ تواضعَتْ
مَخَارِمُه واحتَله ذو المقدم (٢)
أنِفتْ لهم من عَقْل قيسٍ ومَرثَد
إذا وَرَدُوا ماءً ورمحُ ابن هَرثَم (٣)
ويومًا لدى الحَشَّار من يَلْوِ حَقَّه
يُبَرْبَزْ ويُنزَعْ ثوبهُ ويُلطَّم (٤)
وفى كل أسواق العراق إتاوة
وفى كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمَ
وَقيظِ العراق من أفاعٍ وغُدَّة (٥)
وَرِعْى إذا ما أكَلوُا مُوَخِّم

(١) كوثل السفينة ذنبها الذى توجه به (الدفة) يقول إنهم يقيمون أمور الناس كما يقيم السكان السفينة . مرزم على صيغة اسم الفاعل من الرزمة بثلاث فتحات وهى الجلبة والضجة .

(٢) المخارم جمع مخرم وهى الطرق الوعرة فى الجبال .

(٣) رمح بن هرثم رجل من قومه والعقل الدية . يتألم لأن قومه صاروا من الذل بحيث لا يأخذون ثأر قتلاهم ولكنهم يقبلون دياتهم من الابل فيعيرون بها حين ترد الماء .

(٤) الحشار الجابى الذى يجمع الضرائب . يلوى يمطل . البربزة السوق الشديد والدفع العنيف .

(٥) الغدة طاعون الابل . أكلؤوا كثر كلؤهم . موخم وبيل غير مرىء .

ألا تستحي منا ملوك وتَتَّقِى ... مَحَارِمَنا لا يَبُوْءُ الدمُ بالدم
نُعاطِي الملوكَ السِلْمَ ما قصدوا بنا ... وليس علينا قتلُهم بمُحَرَّم
وكائن أزرنا الموتَ من ذى تحية ... إذا ما ازدرانا أو أَسَفَّ لمَأْثَم(١)
وقد زَعَمَتْ بَهْرَاءُ أن رماحَنا ... رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدم
فيومَ الكُلاب قد أزالَتْ رماحُنا ... شُرَحْبِيلَ إذ آلى أَلِيّة مُقسِم
لِيَنْتَزِعَنْ أرماحَنا فأزاله ... أبو حَنَشٍ عن ظهر شَقَّاءِ صِلدِم(٢)
تَنَاوَلَه بالرمح ثم اتَّنَى له ... فخَرَّ صريعاً لليدَيْن وللفم
وكان مُعادِينا تَهِرُّ كلابُه ... مخافةَ جيشٍ ذى زُهاءٍ عَرَمْرَم
وعَمْرُو بن هندٍ قد صقَعْنا جبينَه ... بشَنْعاء تَشفى سَوْرَة المُتَظلِّم
يَرَى الناسُ منا جلدَ أسودَ سالخٍ ... وفروةَ ضِرغامٍ من الأسد ضَيغم(٣)

وقال يزيد بن الخَذاق الشَّنيّ — وهو شاعر من عبد القيس — يتهدد النعمان ، ويتهمه بالخيانة والخداع ، وبأنه يضمر لهم الشر . ويقول إنه قد ركب أنوفهم جهلا منه وغرورا . ويستخف به قائلا ها نحن أولاء ننتظر ما تستطيع أن تفعل بنا :

أعدَدْتُ سَبْحَةَ بعد ماقَرِحَتْ ... ولبِستَ شِكَّةَ حازمٍ جَلْد(٤)
لن تجمعوا وُدِّى ومَعْتَبَتى ... أو يُجْمَع السَّيْفان فى غِمْد(٥)
نُعْمَانُ إنكَ خائنٌ خَدِعٌ ... يُخفِى ضميرُك غير ما تبدى
فإذا بدا لك نَحْتُ أثلَتِنا ... فعلَيْكَها إن كُنتَ ذا حَرْد(٦)

(١) أسف دنا . مأثم إثم .
(٢) الشقاء الطويلة من الخيل . الصلدم الصلبة .
(٣) الأسود العظيم من الحيات . الضرغام والضيغم الأسد .
(٤) سبحة اسم فرسة . قرحت تمت أسنانها فى الخامسة من عمرها . الشكة السلاح .
(٥) المعتبة الموجدة والمعاداة .
(٦) الحرد القصد والتعمد .

يأبى لنـــا أنّا ذَوُو أنَفٍ ‌ ‌ وأصُولُنا من محْتِدِ المَجْدِ
إنْ تَغْزُ بالخــرقاء أُسرَتَنا ‌ ‌ تلقى الكتائب دوننا تَرْدى (١)
أحَسِبْتَنا لحمــاً على وَضَم ‌ ‌ أم خِلْتَنَا فى البأسِ لا نُجْدى
ومَكَرْتَ مُعْتَلِياً مُخَنَّتَنا ‌ ‌ والمكرُ منكَ علامةُ العَمْدِ (٢)
وهزَزْتَ سيفَك كى تحاربنا ‌ ‌ فانظرْ بسيفك مَنْ به تُرْدِى
وأرَدْتَ خُطَّةَ حازِمٍ بَطَلٍ ‌ ‌ حَيْرانَ أَوْبقَهُ الذى يُسْدِى
ولقد أضاءلك الطريقُ وأنْهجَتْ ‌ ‌ سُبلُ المسَالكِ والهدى يُعدى (٣)

وقال أيضاً يهجو النعمان، وقد آلى أن يغزوهم. يقول له: تحلل من قسمك، فما أظنك قادراً على البر به. ثم يتهدده قائلا: أقيموا عنا صدوركم، فلسنا ملاحين أذلاء، نعطى المُكوسَ من يطلبها، وإن لنا من القوة ما يردك عما تريد بنا من ظلم:

ألا هل أتاها أن شِكَّةَ حازِمٍ ‌ ‌ لدَىَّ وأنى قد صَنَعْتُ الشَمُوسا (٤)
وداويْتُها حتى شتَتْ حَبَشِيَّةً ‌ ‌ كأنَّ عليها سُنْدُساً وسدُوسا (٥)
قَصَرْنا عليها بالمقيظِ لقاحَنا ‌ ‌ رَباعيةً وبازِلاً وسَدِيسا (٦)
فآضت كتيس الرَّبْل تَنْزو إذا نزت ‌ ‌ على رَبذات يَغْتَلين خنُوسا (٧)

---

(١) أراد بالخرقاء الخطة الخرقاء أو الصفة الخرقاء يقصد الجهل والتهور. الرديان أسرع من المشى وأقل من الجرى.

(٢) المخنة الأنف.

(٣) أنهجت وضحت. يعدى يعين ويقوى. يقول قد وضحت لك حقيقتنا فاتبع الحق يعنك على طريقك.

(٤) الشموس اسم فرس آخر له. وصنعه أحسن القيام عليه.

(٥) مداواة الفرس علاجها وتضميرها.

(٦) اللقاح جمع لقوح وهى الناقة الحلوب يقول إنه كان يكرم هذه الفرس لأنه كان يعدها للقتال. فكان يسقيها لبن هذه الأبل. الرباعية والبازل والسديس اسماء للابل فى أطوارها المختلفة.

(٧) آضت رجعت. يقصد بالتيس هنا ذكر الظباء والربل نبت يرعاه. تنزو تثب. ربذات خفيفات يعنى قوائم الفرس. خنوسا تخنس بعض جريها أى تخفية فلا تبذلى كل جهدها.

نُعِدُّ ليوم الرَّوْع زَغْفاً مُفَاضةً
دِلاصاً وذا غرْب أحذَّ ضروسا (١)

نُجيدُ عليها البَزَّ فى كل مَأْزِقٍ
إذا شَهد الجمْعُ الكثيفُ خميسا (٢)

تَحلَّلْ أبيتَ اللَّعْن من قوْلِ آثمٍ
عَلى مالِنا ليُقسَمنَ خمُوسا

إذا ما قطعنا رَمْلَةً وعَدابَها
فإنَّ لنا أمراً أَحذَّ غَمُوسا (٣)

أقيموا بنى النعمان عَنَّا صُدورَكم
وإن لا تُقيمُوا كارهين الرُّوسا

أَكلُّ لئيمٍ منكم ومُعَلْهَجٌ
يَعُدُّ علينا غارةً فخُبُوسا (٤)

ألا ابْنَ المُعَلَّى خلْتَنَا وحَسِبْتَنَا
صَرَارِىَّ نُعْطِى المَاكِسِينَ مُكُوسا (٥)

فإنْ تَبْعَثُوا عَيْناً تَمَنَّى لقاءَنا
تَجِدْ حول أبياتى الجميعَ جُلُوسا

(١) الزعف الدرع اللينة . مفاضة واسعة . دلاص مهلة . غرب كل شىء حده ويقصد بذى غرب السيف . الأحذ الخفيف . الضروس الشرس السىء الخلق يصف السيف بذلك .

(٢) البز السلب .

(٣) العداب الحبل من الرمل . أخذ شديد . غموس غامض .

(٤) العلج الأعجمى الذى ليس عربيا . والمعلهج مشتقة منها يعنى ليس خالص العربية . يتهم المناذرة بأنهم ليسوا عربا خلصا لما هو معروف من ولائهم للفرس . الخبوس بضم الخاء الظلم .

(٥) صرارى ملاحون . الماكس الجابى . المكوس الضرائب .

وقال المُتَلَمِّس يهجو المناذرة — وهو من ضبيعة بن ربيعة — يبدأ قصيدته بذكر الموت ، وأنه حتم على كل حى ، فمن العجز أن يقبل الناس الضيم مخافةَ موتٍ هم صائرون إليه على كل حال . وهو يتهكم بالنعمان ، قائلا : هلُمَّ فقد ترعرعت زروعنا ، وأخصبت أرضنا ، للذباب والزنابير فيها طنين . هلم إن استطعت فاغزنا . إنك إذن واجدٌ من يردك . فنحن نقابل الود بالود ، ولكن فينا إباءً وشماساً على الظالم الغاشم .

ألم تر أن المرء رَهْنُ مَنِيَّة
صريعٌ لعَافى الطيرأن سَوْفَ يُرْمَسُ (١)

فلا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مخَافةَ ميتة
ومُوتَنْ بها حُرًّا وجِلْدُكَ أمْلَسُ (٢)

فمِنْ طَلَبِ الأوْتارِ ما حَزَّ أنفَهُ
قَصيرٌ وخاضَ المَوْتَ بالسيف بَيْهَسُ (٣)

نَعَامةُ لما صَرَّعَ القومُ رهْطَه
تَبَيَّنَ فى أثوابه كيف يَلْبَسُ

وما الناسُ إلا ما رأوا وتحدثوا
وما العجزُ إلا أن يُضَامُوا فيَجلِسوا

ألم تَرَ أن الجَوْنَ أصبح راسِيًا
تُطِيفُ به الأيامُ مايتأَيَّس (٤)

---

(١) صريع لعافى الطير يموت فى معركة فتترك جثته للطيور والسباع .

(٢) جلدك أملس أراد وأنت برىء من العار . ولم يرد بالطبع أنه برىء من الجراح .

(٣) قصير هو صاحب جذيمة الأبرش يشير إلى قصته مع الزباء الرومية . وكان قد جدع أنفه وتوصل إلى خدمتها حتى أخذ بثأره . بيهس رجل من بنى فزارة كان يحمق وكان يلقب (نعامة) قتل له سبعة إخوة فجعل يلبس القميص مكان السراويل والسراويل مكان القميص حتى توصل إلى أن طلب بدماء إخوته .

(٤) الجون حصن باليمامة يقال إنه من بناء طسم وجديس وهم من العرب البائدة . مايتأيس لايلين. يقول إن قومه فى حصن حصين . ويقول إن هذا الحصن قد استعصى على تبع لما غزى المدن والقرى . والصفيح الحجارة العراض .

عَصَى تُبَّعاً أيامَ أهلكتِ القُرى
يُطانُ عليه بالصفيح ويُكلَسُ
هَمُّ إليها قد أُثيرَتْ زُروعُها
وعادَتْ عليها المَنْجَنُونُ تَكَدَّسُ (١)
وذاكَ أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذُبابُهُ
زَنابيرُه والأزرقُ المُتَلَمِّسُ (٢)
يكونُ نذيرٌ من ورائي جُنَّةً
ويَنصرُني منه جُلَيٌّ وأحمَسُ (٣)
وجَمعُ بني قُرّانَ فاعرِضْ عليهم
فإنْ يقبلوا هاتا التي نحن نُوبَسُ (٤)
فإن تُقْبِلوا بالوُدِّ نُقبِلْ بمثله
وإلا فإنا نحن آبَى وأَشْمَسُ
وإن يكُ عنا في حَبيبٍ تثاقُلٌ
فقد كان منا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ (٥)

وقال أيضا يتهدد عمرو بن هند، ويسخر مما يزعم لنفسه من حقوق على الناس :

أَلكَ السَّديرُ وبارِقٌ ومَرابِضٌ ولكَ الخَوَرْنَقْ (٦)
والقصرُ ذو الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادَ والنَّخلُ المُبَسَّق

(١) المنجنون الدولاب الذى يستعمل فى رى الأرض . تكدس يركب بعضها بعضا فى الدوران .

(٢) العرض من أودية اليمامة . جن ذبابة كثر ونشط . زنابيره بدل من الذباب وكذلك الأزرق المتلمس وهو يشير به إلى نوع آخر من الذباب .

(٣) جلى وأحمس بطون من قومه ضبيعة بن ربيعة . ونذير هو ابن بهثة بن وهب .

(٤) الأبس القهر . يقول اعرض هذه الخطة النكراء التى تسومنا إياها على بنى قران وانظر هل يقبلونها .

(٥) المقنب زهاء ثلاثمائة من الخيل . التعريس نزول آخر الليل . يقول إنهم لا يستريحون حتى يدركوا ثأرهم .

(٦) السدير وبارق والخورنق بنايات مشهورة . ومرابض موضع بنواحى الحيرة كان مكانا للتنزه .

والعَمْرُ ذو الأَحْساءِ والـلذّاتُ مِنْ صاعٍ وَديْسَقْ[1]
والتغلبيّةُ كلُّها والبَدْوُ من عانٍ ومُطْلَقْ
وتَظلُّ فى دَوّامةِ المولودِ يُظلمُها تَحَرَّق[2]
فلئن نَعِشْ فلتَبْلُغَنْ أرماحُنا منك المُخَنَّق
أبقَتْ لنا الأيامُ والـلزَباتُ والعانى المُرَهَّق
جُرْداً بأَطْنابِ البُيُو ت تُعَلّ من حَلَب وتُغْبَق
ومُشَقَّفاتٍ ذُبَّلاً حُصْدا أسِنّتُها تَأَلَّق
والبَيْضَ والزَّغْفَ المُضَاعَفَ سَرْدُهُ حَلَقٌ مُوَثَّق[3]
وصوارماً نَعَصَى بها فيها لنا حِصْنٌ ومَلْزَق[4]
ومَحَلةً زَوراء فى حافاتها العِقْبانُ تَخْفق
وإذا فزعت رأيتنا حَلَقاً وعاديَةً وَزَرْدَق[5]
ما لليوث وأنتَ جا مِعُها برأيِكَ لا تَفَرَّق
والظُّلْمُ مربوطٌ بأَفْنيةِ البيوت أَغَرّ أَبْلَق

وقال أيضا ، وقد طرده عمرو ونذر دمه :

أطرَدْتَنى حَذَرَ الهجاءِ ولا واللاّتِ والأنصاب لا تَئِلُ[6]
ورَهَنْتَنى هِنْداً وعِرْضُكَ فى صُحُفٍ تَلُوحُ كأنها خِلَل[7]

---

(١) العمر موضع . الحسى الأرض السهلة التى يستنقع فيها الماء . الديسق بعض الآنية .

(٢) الدوامة لعبة لصبيان العرب يرمون بها على الأرض بالخيط فتدوم أى تدور وهى التى نسميها اليوم (النحلة) تتحرق تلتهب غيظا يقول لعمرو . لك كل هذا الملك العريض ويلهبك الغضب فى أنفه شىء ؟

(٣) الزغف الدروع اللينة . السرد المتتابع النسج حلقتين حلقتين .

(٤) نعصى بها نتخذها بمنزلة العصى . ملزق ملجأ .

(٥) العادية قوم يعدون على أرجلهم ، يقول لنا فرسان ورجالة . الزردق بالفارسية صف وصف ها هنا .

(٦) طردتنى صيرتنى طريدا : لاتئل لا تنجو والماضى وأل نجا .

(٧) هند أم الملك عمرو . الخلل جمع خلة بكسر الخاء وهو نقش يكون فى بطانة السيف .

شَرُّ المـلوكِ وشرها حَسَباً ... فى النـاس من علموا ومن جهلوا
الغـدرُ والآفاتُ شـيمتُه ... فافهمْ فعُرقوبٌ له مثـل
بئس الفحـولةُ بين جُدتَهم ... عُرُكُ الرِّهانِ وبئس ما بخلوا
أعنى الخؤولةَ والعمـومَ فهم ... كالطِّبْن ليس لبيْتِه حُوَل(١)

وقال طرفة بن العبد ، وهو من شيبان البكرى

فليْت لنا مكانَ المـلْكِ عمْرٍو ... رَغُوثاً حوْل قُبَّتنا تخُور(٢)
من الزَّمِـرات أسبلَ قادِمَاها ... وضرَّتُها مُرَكَّنةٌ تدور(٣)
يُشاركُنا لنـا رَخلان فيهـا ... وتعلوها الكِباشُ فما تنُور(٤)
لعَمْرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِنْدٍ ... ليَخْلِطُ ملكه نوْكٌ كثير(٥)
قسمتَ الدهرَ فى زَمَنٍ رَخِيٍّ ... كذاك الحُكمُ يقصِدُ أو يجُور
لنـا يومٌ وللكروان يومٌ ... تطـير البائساتُ ولا نطـير
فأما يومهن فيـوم نَحْسٍ ... تطاردهن بالحَدَب الصقور(٦)
وأما يومنا فنظـل رَكْباً ... وقُوفاً ما نَحُلُّ وما نسـير

وقال الحارث بن ظالم الذبيانى ، وهو من أشراف بنى مرة وساداتهم . وكان فاتكا شجاعا ، فتك بخالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وهو نازل على

(١) الطِبن بكسْر الطاء وفتحها لعبة للعرب .

(٢) الرغوث كل مرضعة . يقصد هنا النعجة كما يظهر ذلك من الأبيات التالية . يقول ليت لنا مكان عمرو بن هند نعجة تحكم علينا .

(٣) الزمر بوزن كتف القليل الشعر والصوف . الضرة الضرع أو أصل الثدى . القادم من الأطباء والضروع الخلفان المتقدمان وأصله للناقة جعله للشاة . أسبل طال وكمل .

(٤) الرخل على وزن كتف الأنثى من أولاد الضأن تشاركنا فى لبنها . نارت نفرت من الفحل : يصف فى هذا البيت وفى البيت السابق النعجة التى تصور أنها ستقوم مقام عمرو بن هند فى ملكه . يقول إن نعجة هذه صفتها تغنى عنه بل هى خير منه .

(٥) النوك الحمق . (٦) الحدب الموج والرمل والغلظ المرتفع من الأرض ؛

النعمان ، وفتك بابن النعمان ، وكان فى حجر أخته سلمى بنت ظالم المرى . وهو هنا يخاطب النعمان ، متشمتا فى قتل ابنه ، مهدداً بقتله هو نفسه ، ويذكر أنه قد فعل ذلك ثائراً لجيران له ، أصابهم منه شر فى إبلهم وفى أنفسهم .

قِفَا فاسْمَعَا أُخْبِرْكما إذ سألتُمَا
مُحارِبُ مولاه وثَكْلانُ نادمُ (١)
فأُقسمُ لولا من تَعَرَّض دونه
لخالطه صافى الحديدة صارمُ (٢)
حَسِبْتَ أبا قابوس أنك سالمٌ
ولَمَّا تُصبْ ذُلاً وأنفُكَ راغم
فإن تك أذوادٌ أُصِبْنَ وصِبْيَةٌ
فهذا ابن سلمى رأسه مُتَفاقِم (٣)
عَلَوْتُ بذى الحيَّات مَفْرِقَ رأسه
وهل يَرْكَبُ المكروهَ إلا الأكارم
فتكتُ به كما فتكتُ بخالد
وكان سلاحى تَجْتَوِيه الجَمَاجم
أَخُصْيَىْ حِمَارٍ باتَ يكْدمُ نَجْمَةً !
أتأكُلُ جيرانى وجارُكَ سالِمُ ؟
بدأتُ بهذى ثم أُثْنِى بهذه
وثالثةٍ تَبْيَضُّ منها المَقادِمُ

(١) محارب مولاه يقصد نفسه لأنه قتل ابن الملك . وثكلان نادم يعنى الملك لأنه فقد ولده .

(٢) يقول لولا ما يتحجب به الملك من حرس لقتلته .

(٣) الذود الجماعة من الابل يشير إلى ما كان من انتهاب إبل جارة له . متفاقم غير ملتئم . ابن سلمى يعنى به ابن الملك لأنه كان فى حجر سنان بن أبى حارثة وسلمى زوجة سنان .

(٤) يكدم يعض . نجمة واحدة النجم وهو النبت الذى لا ساق له - يخاطب النعمان ياخصى حمار ! أتأكل مال جيرانى ثم أترك جارك سالما ؟ .

الأعشى

شهرة الاعشى فى عالم الشعر والنقد تقوم على تفوقه فى الخمر . وجملتهم المشهورة فى ذلك « امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب » . ولكننا نتحدث عنه هنا بوصفه أكبر هجاء سياسى ظهر فى العصر الجاهلى .

صور القدماء الأعشى فى قصصهم رحالة يجوب بشعره الآفاق باحثا عمن يشترى مديحه . وقالوا إنه أول من تكسب بشعره . قال صاحب العمدة : وكانت العرب لا تتكسب بالشعر . وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة ، ومكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها . . . . حتى نشأ النابغة الذبيانى ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر . . ، وتكسب زهير بن أبى سلمى يسيرا مع هرم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متّجرا يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته ، علما بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه . على أن شعره لم يحسن عنده حين فسّر له ، بل استهجنه واستخف به ، ولكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب — وأكثر العلماء يقولون إنه أول من مدح بشعره .) وهذه صورة ، على ما فيها من صدق ، تضلل الباحث فى تصور هذا الشاعر الكبير على حقيقته . فمن الحق أن الأعشى كان صاحب لذة وخمر ، ولكنه كان يذهب فى ذلك مذهب فتيان العرب ، الذين يهجمون على اللذة قبل أن يهجم عليهم الموت ، لا يرون فيها محرما ومباحا ، وإنما هى عندهم مبذولة لمن يستطيع أن ينالها ، وليس ينالها إلا القوى الجرىء . ومن الحق أن الأعشى قد مدح بعض الأشراف من غير قومه ونال عطاءهم — مدح قيس بن معد يكرب ، وهو أبو الأشعث بن قيس ، وكان من أشراف كنده وملوكها ؛ ومدح إياس بن قبيصة الطائى . وكان عامل كسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد

ملك الحيرة بين وفاة المنذر وملك ابنه النعمان ، ثم عاد إلى ملكها بعد النعمان ، إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ — وأم أياس ربعية من شيبان بن ثعلبة ؛ ومدح سلامة ذا فائش ، وهو من سادة اليمن ؛ ومدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان ، فى مطولته المشهورة « ما بكاء الكبير بالأطلال ».
ولكن كل ذلك لم يفقده صفته السياسية الأصيلة فى الدفاع عن قومه ، فكان صوتهم القوى الذى خلد يوم ذى قار ، وكان بعد ذلك لسان قومه فيما ينشب بينهم وبين جيرانهم من منازعات .

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن نشأة الأعشى أو شبابه . وكل ما نعرفه أن أباه يسمى قتيل الجوع ، سمى بذلك لأنه دخل غارا يستظل فيه من الحر ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعا . ونحن لا نعرف متى مات أبوه ، وهل تركه ناشئا أم رجلا ، ولكن نعرف أن قبيلة الأعشى — قيْس من ثَعلبة البكرى — كانت مشهورة بكثرة شعرها وشعرائها . يروى عن حسان أنه سئل : من أشعر الناس ؟ فقال . أشاعر بعينه أم قبيلة ؟ قالوا : بل قبيلة . قال — الزُّرْقُ من بنى قيس بن ثعلبة . ويروى هذا الحديث عن غير حسان . وكان عبد الملك بن مروان يقول : إذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزُّرق من بنى قيس بن ثعلبة ، وبأصحاب النخل من يثرب ، وأصحاب السعف من هذيل . ونعرف أن الأعشى قد اتصل بخاله المسيَّب بن علس — وهو معدود فى الشعراء المُقِلين — يروى شعره حتى نبغ ، واحتل من قبيلته مكانا ممتازا ، ثم ذاع صيته فى أنحاء الجزيرة العربية حتى أصبح مسموع الصوت ، مرهوب الجانب ، من الذين يحسب الناس لشعرهم حسابا ، حتى لقد فزعت قريش حين علموا بمقدمه على النبى فى المدينة — وهم متهادنون فى صلح الحديبية سنة ٦ هـ — فجمعوا له من مالهم مائة ناقة حمراء ، على أن يعود من عامه .

كانت خلائق الأعشى خلائق الفتيان فى الجاهلية . رووا أن بعض ولاة اليمامة مر بمنزله فى منفوحة ، وزار قبره فرآه رطبا . فلما سأل عن علة ذلك ، أُخبرَ أن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلسَ رجلٍ منهم، فإذا صار إليه القَدح صبوه عليه ، وذلك لقوله «أَرجعُ إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين الزنا والخمر » وكان صاحب لذة يرى القعود عنها عجزاً لا يليق بالفاتك الجرىء. ومن أجل ذلك نراه فى غزلة لا يقيم على صاحبة ، بل يغلب عليه أن يكتفى بالإشارة إلى هذه الصاحبة أو الخليلة بقوله « تيا » أو « جارتنا » . وهو ولوع بتصوير هذه الصاحبة محفوفة بالمصاعب والأخطار ، وكأنه يرى الكفاح فى سبيل الوصول إليها ، والظفر بها آخر الأمر ، جزءا أصيلا من لذته . فهو لا يرى العيش إلا مغامرة فى سبيل الظفر باللذة ، تغتصب من الدهر اغتصابا .

ألم تَـنْـهَ نفسك عما بهـا	بلى عادها بعض أَطْـرابها (١)
لجَـارتـنا إذ رأت لِمَّتى	تقول لكَ الويلُ أَنَّى بها
فإن تعهدينى ولى لِمَّـةٌ	فإن الحوادث أَلْـوىَ بها (٢)
وقبلَـك ساعَيْتُ فى رَبْرَب	إذا نام سامرُ رُقَّابِها (٣)
تُـنازِعُـنى إذ خلَـتْ بُردَها	مفضَّلةً غيرَ جلبابهـا (٤)
فلمـا التقينا على بابهـا	ومدت إلىّ بأسبابهـا
بذلنـا لهـا حُـكمَـها عندنا	وجادَتْ بحُكمى لأَلْـهىَ بها
فطوراً تـكون مِهاداً لنـا	وطوراً أكونُ فيُعْلَـى بها
على كل حالٍ لهَـا حالةٌ	وكلٌّ الأَجـارىِّ يُجْـرَى بها
وكأسٍ شربتُ على لذة	وأخرى تداويتُ منهـا بهـا

---

(١) أطرابها أحزانها .

(٢) اللمة ما جاوز شحمة الأذن من الشعر . ألوى بها ذهب بها .

(٣) الربرب القطيع من بقر الوحش يشبه به النساء . المساعاة الفجور ، وكان الأماء يساعين فى الجاهلية وفلان يساعى الاماء يزانيهن .

(٤) مفضلة مبتذلة لابسة جلبابها مباشرا لجسمها لاشىء تحته .

لـكى يعلمَ الناس أنى أمرؤٌ … أتيتُ المعيشة من بابها

ويقول :

فقد أشرب الراح قد تعلميـ … ـن يوم المُقامِ ويوم الظَّعَنْ

وأشرب بالريف حتى يقا … لَ قد طال بالريف ما قد دَجَنْ (١)

وأقررت عينى من الغانيا … ت إمّا نكاحاً وإمّا أُزَنْ

ويقول :

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى
شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ (٢)

فى فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلة الحِيَلُ

نازعتهم قُضُبَ الرَّيْحَانِ متكئا
وقهوةً مُزَّةً رَاوُوقُها خَضِلُ (٣)

لا يستفيقون منها وهى راهنة
إلا بِهَاتِ وإن عَلُّوا وإن نَهِلُوا (٤)

يسعى بها ذو زجاجات له نُطَفٌ
مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّربال مُعْتَمِلُ (٥)

ومُستجيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ
إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ (٦)

---

(١) دجن ورجن ثبت وأقام .

(٢) شاو شواء يشوى اللحم . مشل سواق من شل الابل طردها وساقها . شلول نشول ينشل اللحم من القدر إلى القوم حاذق، لذلك شلشل خفيف. شول يحمل الشىء .

(٣) القهوة الخمر. الراووق الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل دائم الندى لـكثرة استعمالهم.

(٤) النهل الشرب الأول والعلل الشرب الثانى . يقول إنهم لا يتوقفون عن الشراب مهما شربوا إلا ريثما يقولون للساقى « هات ! » .

(٥) النطفة اللؤلؤة العظيمة . معتمل يخدم ويعمل فى نشاط .

(٦) المستجيب العود يجيب الصنج أى يشاكله . الصنج دوائر رقاق من نحاس يصفق باحداها على الأخرى وهى كالتى تكون بأيدى الراقصات (الساجات) . الفضل التى تتفضل أى تتبذل فتلبس ثوبا واحدا كما تكون فى خلوتها .

من كل ذلك يوم قد لهوت به
وفى التجارب طولُ اللهو والغزل

وهذا الحرص على اللذة ، قد جعل الأعشى فى حاجة دائمة إلى المال ، يستجلبه من كل وجه . فلم يكن المال فى نظره إلا طاقة مختزنة — على حد تعبير العلماء — يمكن تحويلها إلى ألوان من اللذة . فالحرص على جمعه يصور حرصا على اللذة . لا يكاد يجتمع إليه شيء منه ، حتى يستنزفه فى لذته ، ولذة من يجتمع إليه من صحبه ورفاقه ، ثم يعاود الرحلة فى سبيل الحصول عليه من جديد .

رحل الأعشى إلى الأشراف يمدحهم ، وألحف عليهم بالسؤال ، وصرح بذلك فى شعره تصريحا حمل مؤرخى الأدب على أن يعتبروه أول من سأل بشعره فهو يقول لقيس بن معد يكرب فى أول قصيدة مدحه بها :

فهذا الثناء وإنى أمرُؤٌ — إليكَ بعَمْد قطعتُ القَرَنْ
وكنتُ امرءً زمناً بالعراق — عفيفَ المُنَاخ طويلَ التَغَنْ
وحولَى بَكْرٌ وأشياعُها — ولست خَلاةً لمن أوعَدَنْ
ونُبِّئتُ قيساً ولم أبلُه — كما زعموا خيرَ أهل اليمن
فجئتُكَ مُرتاد ماخبَّرُوا — ولولا الذى خبروا لم تَرَنْ
فلا تَحْرِمَنِّى نداك الجزيل — فإنى أمرءٌ قبلكم لم أُهَنْ

وهو يعترف فى شعره بهذا الحرص على جمع المال ، ولا يرى فيه بأسا :

وقد طُفْتُ للمال آفاقَه — عُمان فحِمْصَ فأُورِيشلِمْ
أتيتُ النجاشىَّ فى أرضه — وأرضَ النبيط وأرضَ العَجَمْ
فنجرانَ فالسروَ من حمْيَرٍ — فأىَّ مَرامٍ له لم أَرُمْ

ولكن كل هذه الخصال ، لم تفقد الأعشى إخلاصه لقومه وعشيرته ، ولم تغلب على صفته الأصيلة ، التى جعلت منه شاعر بكر ، بل شاعر ربيعة ، فظل أولا وآخرا شاعر السياسة ، الذى يعبر عن رأى القبيلة الرسمى ؛

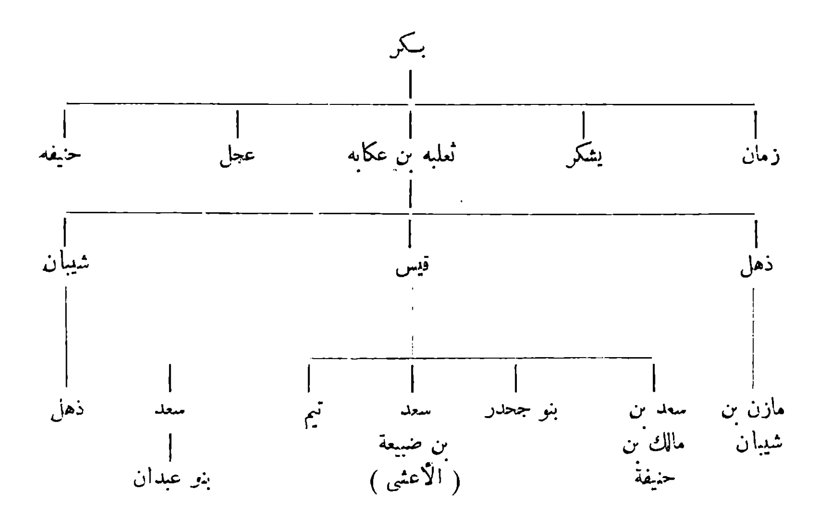
يسجل ما بينها وبين جيرانها من حلف ، منميا روابط الود والإخاء ، ويؤرخ وقائعها ، مخلدا مجدها وبطولتها فى شعر رائع ، ويهاجم من تحدثه نفسه بالنيل منها أو مهاجمتها ، مصغرا من شأنه ، مهددا بقوة قومه .

وقد عد النقاد الأعشى فيمن رفع بشعره ووضع . والواقع أن الدارس لمدائحه وحماسته ، يجدها من أروع الشعر الجاهلى تصويرا للمُثُل العربية ، فى دقة واضحة ، وقوة صادقة . والدارس لأهاجيه ، يجدها من أشد الشعر وقعا على العدو ، لما فيها من سلب لهذه المثل . وكل أهاجى الأعشى متصلة بسياسة القبيلة ومصالحها . فهو يمدح للكسب ، حين لا يتعارض ذلك مع وفائه لعصبيته ، ولكنه يهجو مخلصا بدافع من الوطنية . ومن هنا كان وجه الخلاف الكبير بينه وبين الحطيئة ، الذى كان يتكسب بالمدح والهجاء كليهما ، ولا يصدر فيهما إلا عن الشره فى جمع المال ، وكأنه ينتقم لنفسه من المجتمع الذى ظلمه . فبينما يبدو الأعشى فى هجائه بطلا سياسيا ، وزعيما وطنيا ، يبدو الحطيئة ساخطا على الدنيا ، ناقما على الناس ، ساخرا بكل القيم الإنسانية والمعايير الأخلاقية .

لم يكن الأعشى موتورا ولا ساخطا على الناس كالحطيئة ، فهو رجل قد أمتع نفسه من اللذات ، ورضى عن الدنيا ، وعن مكانه منها ، فأخذ بأحسن ما فيها ، وقد علم أن الموت نهاية كل حى . وكانت له شخصية قوية واضحة ، جعلت منه شاعرا ممتازا فى التغنى بلذته ، ومحاميا ناجحا يحتل المكان الأول فى الدفاع عن قبيلته . وكان فيه وفاء لقومه وعصبيته ، وسم شعره السياسى بروح وطنية صادقة .

ويبلغ الأعشى قمة مجده السياسى ، حين يقف للدفاع عن بكر ، بل عن وائل جميعا ، فى يوم ذى قار . وذو قار موضع قرب الكوفة — بينها وبين واسط — كانت فيه واقعة مشهورة بين الفرس وبكر حوالى سنة ٢ هـ . وقد انتصرت فيه بكر . وكان هذا النصر عظيما ملأ العرب زهوا ، فأنشئوا فيه

الشعر الكثير . وقد اختلف الرواة فى سبب هذا اليوم . فقيل إن كسرى لما حبس النعمان بساباط ، حتى مات قبيل الإسلام ، غضب له العرب، وكان قتله سبب ذى قار. وقالوا إنه كان لحبس قيس بن مسعود الشيبانى ، وكان قد ضمن قومه عند كسرى — بعد قتل النعمان — أن لا يغيروا على السواد ، فنكثوا بعهدهم ، فحنق كسرى عليه ، واستدعاه فقال له غررتنى من قومك، وأمر به فحبس بساباط . وقالوا إنه كان لوديعة أودعها النعمان قبل موته عند هانىء بن مسعود الشيبانى ، فلما طلبها منه كسرى امتنع عليه .(١)



ومن أروع ما قال الأعشى فى هذا اليوم قصيدة أنشأها قبل الحرب، يتهدد فيها الفرس ، ويستفز قومه للقتال وإباء الضيم .

أَثْوَى وقصّر ليلةً ليُزَوَّدا ومضى وأخلف من قُتَيْلة موعدا

والقصيدة فى جملتها اثنان وأربعون بيتا . بدأها الشاعر بذكر صاحبته فهو قد تخلف ليلة ليزود منها فأخلفته ، ومضت الليلة ، ومضى هو لحاجته ،

(١) راجع فى ذلك الأغانى ٢٠ : ١٣٢ ، نقائص جرير والفرزدق (طبع أوروبا) ص ٦٣٨ ، العقد الفريد ٦ : ١١١ .

وأصبح حبلها خلقا ، وكان يظن أن ما بينه وبينها لن ينقطع . وهو قد شاب فهجرته الغوانى ، لأنهن لا يصلن من فقد الشباب ، وقد يصلن الأمرد . ثم هو يتحسر على شبابه الضائع ، أيام كانت لِمَّتُه سوداء ، وأيام كان يعيش فى لهو وعبث لا ينقطع ، إذ يسعى إلى صواحبه فى الليل ، يبتغى عندهن دَيْنَه ، وقد مَطَلْنَه فى النهار . وقد ألم الفقر بالأعشى حتى ساء حاله .

فسألته صاحبته : ما لجسمك يسوء من رآه ؟ وما لثيابك قد بليت ؟

أَأَذَلْتَ نفسك بعد تَكْرِمَةٍ لها ... أم كنتَ ذا عَوَزٍ ومنتظرا غدا ؟
أم غاب ربُّك فاعترتك خَصَاصة ... فلعل ربك أن يعود مؤيَّدا ؟

فيجيبها :

ربِّى كريمٌ لا يكدِّر نعمةً ... وإذا يُنَاشَدُ بالمَهَارِقِ أنشدا[١]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الناقة ، فيشبهها بحمار الوحش ، وبالنعامة ، وبالبرج فإذا فرغ منها ، بدأ الجزء الذى يهمنا من القصيدة بقوله :

من مُبلغٌ كسرى إذا ما جاءه ... عنى مآلكَ مُخْمِشَاتٍ شُرَّدا[٢]

ونفهم من هذا الجزء أن كسرى قد سجن الأسود أخا الحوفزان (وأبو عبيدة يقول إنه كان فى يد كسرى فى رُهُنِ قيس بن مسعود) ، وأنه كان لا يزال يطلب إلى بكر الرُهُن ، حتى يَكُفَّهم بذلك عن مهاجمة السواد . والأعشى يخاطبه قائلا إنهم لن يعطوه رُهُنا ليفسدهم كمن قد أفسد . ولأن يرهنه نَعْشٌ بنيه ، ولأن ترهنه السماء الفرقد ، أقرب إليه من أن يرهنوه أبناءهم . وهو يطلب إليه أن ينزل إليهم الأسود من سجنه — وكأنه كان مسجونا فى جبل أو هضبة عالية — فإن لم يفعل ، فليس بينهم إلا الحرب ،

---

(١) المهارق جمع مهرق بضم الميم وفتح الراء وهو الصحيفة . أى إذا نوشد بما فى الكتب أجاب وكأن الأعشى نصرانى أو كأن صاحبه الذى يسأله نصرانى أو متدين بإحدى الكتب السماوية .

(٢) المآلك جمع مألكة بضم اللام وهى الرسالة . مخمشات مغضبات . شرد تأتى كل مكان .

يضرمونها بين عانة والفرات ، لمن بغى وتمردا ، كأنما حَشّ الغُواة بها حريقا مُوقَدا .

ثم يهاجم الأعشى قبيلة إياد ، التى كان يضطرها موقعها من الحدود إلى ممالأة الفرس ، فهو يقول : خربت بيوت هؤلاء الأنباط ! لكأنهم لا يلقون بعدك من يقيم أمرهم ويتعهدهم ويعمر أرضهم ! ثم يتجه إلى كسرى قائلا : أظننتنا كإياد حرّاثين ، قد اتخذوا (تكريت) دارا ، فهم ينتظرون حبها أن يُحصَد ، خاملين لا عمل لهم ، فهم يقطعون وقتهم فى معالجة قُمّل قد انتشر فى أجسادهم ، وقد أُوثِقوا فى السلاسل ، وغُلِّقتْ دونهم الأبواب ؟ ليس هذا شأن بكر . فإنما نحن بَدْوٌ ، لنا نَعَمٌ كالهضاب ، لا يطردها مُرَوِّعٌ من مغير أو مهاجم ، ولكنها رهن سيوفنا ، ضمنت أعجازها قُدُورَنا أن تفرغ ، وضمنت ضروعها لنا اللبن صريحا خالصا .

فإذا وصل الشاعر إلى هذا الحد فقارب الانتهاء ، اتجه إلى كسرى وقد بلغ منه الهياج أشده ، فختم قصيدته بقوله :

فاقْعُدْ عليك التاجُ مُعتَصِباً به ‌ ‌ ‌ لا تَطلُبَنّ سَوامَنا فتَعَبَّدا
فلعمرُ جَدِّك لو رأيت مُقامَنا ‌ ‌ ‌ لرأيتَ منا مَنْظَراً ومُؤيَّدا
فى عارضٍ من وائلٍ إن تلقه ‌ ‌ ‌ يومَ الهياج يَكُنْ مسيرُك أنكدا
وترى الجياد الجُرْدَ حول بيوتنا ‌ ‌ ‌ مَوْقُوفةً وترى الوشيجَ مُسَنَّدا (١)

وللأعشى بعد ذلك جولات سياسية ، فيما كان ينشأ بين فروع بكر وقبائلها من منازعات . وهو يسير فى ذلك على مبدأ عربى واضح : ينصر أخاه ، ثم أبناء عمه ، الأدنى فالأبعد . فهو يشيد بشيبان ، ويخلد مجدها فى يوم ذى قار

---

(١) الوشيج شجر الرماح .

فإذا وقع خلاف بين بعض بطونها ، وبعض بطون قيس بن ثعلبة ، تعصب يزيد بن مسهر الشيبانى — أحد زعماء بكر يوم ذى قار — لقومه من شيبان، وأخذ الأعشى جانب قيس بن ثعلبة ، وهاجم يزيد فى قصيدته المشهورة

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكب مُرتَحِلُ
وهل تُطِيقُ وَداعاً أيها الرجل

وقصة هذه القصيدة أن رجلا من بنى كعب بن سعد (أحد بيوت قيس بن ثعلبة) اسمه ضُبَيْع ، قتل رجلا من بنى همام (أحد بيوت ذهل بن شيبان) اسمه زاهر بن سيار ، فلما نهض بنو سيار للأخذ بثأر زاهر، تعصب لهم يزيد بن مسهر الشيبانى ، ونهاهم أن يقتلوا به ضبيعا لأنه لا يعد له. وحضهم على أن يأخذوا به أحد أشراف بنى سعد . فلما بلغ ذلك الأعشى حمى لقومه ، وهجا يزيد طالبا إليه أن يخلى بين الحيين ، فإنه إن أعان بنى سيار ، لم يكن لبنى قيس بن ثعلبة بدٌّ من التدخل لنصرة بنى كعب .

يبدأ الأعشى قصيدته بوصف صاحبته هريرة، فهى بيضاء،غزيرة الشعر، دقيقة الخصر ، ثقيلة الأرداف ، ضخمة الخَلق ، لينة القوام ، كأنها السحابة فى بطء سيرها ووقارها ، عَفَّة لا تسترق السمع للجار ، وَهْنَانَة يكاد يصرعها — لولا تشددها — إذا تقوم إلى جارتها الكسل ،وهى عبقة يضوع المسك منها فيملأ المكان ، وليست روضة من رياض الحَزْن (١) مُعْشِبَة جاد عليها المطر ، وأشرقت عليها الشمس ، فانعكست على جداولها المحفوفة بالنبات ، بأطيب منها نشر رائحة ، ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُل . (٢)

وقد صدّت عنه صاحبته جهلا بقدره ، فهو يعجب لذلك ، ويقول : حَبْلَ مَنْ تصلين إن قطعتنى ؟ ومن أحق منى بهذا الوصل ؟

(١) الحزن بفتح الحاء الأرض الغليظة ، والرياض فيها أنضر وأحسن رونقا .

(٢) الأصل جمع أصيل وهو وقت غروب الشمس . وإنما تفوح رائحة الأزهار ويهدأ الكون، فتكون الرياض أجمل ماتكون فى مثل هذا الوقت، حين تخف حرارة الشمس المحرقة ويداعب النسيم الأزهار .

أأَنْ رأت رجــلاً أعشى أَضرَّ به
رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مفْنِدٌ خَبِلُ (١)

إن ترينا حُفاةً لا نعال لنا ، فكذلك ما نحفى وننتعل . ومع ما ترين بي من أثر الضُّر :

فقد أُخالِسُ رَبَّ البيت غفلته وقد يُحاذِرُ منى ثم ما يَئِلُ
وقد أقودُ الصبيَ يوماً فَيَتْبَعُني وقد يصاحبنى ذو الشِّرَّة الغَزِلُ

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف السحاب وقد امتلأ بالمـــاء ، واتصلت أجزاؤه ، ولمع البرق فى حافاته كأنه الشُّعَل ، فيقول إن اللهو والخمر لم يلهياه عن مراقبة هذا العارض ، وعن لَفْت صحبه من الشَّرْب إليه . إذ يناديهم قائلا ، شيموا ! ثم يعود فيعجب لأمره وأمرهم قائلا : وكيف يَشِيمُ الشارِبُ الثَّمِلْ ؟ وهم لا يزالون فى حَدْسٍ وتخمين ، كلٌّ يذكر الأرض التى يتوقع أن هذا العارض سيصيبها بمائه ، وكأنه قد أصابها، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف مجلس الخمر . فقد يغدو إلى الحانوت يتبعه غلام خفيف نشط ، وقد يجلس إلى فتية كسيوف الهند مضاء ، قد أرسلوا أنفسهم فى لذاتها ، لأنهم يعلمون أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عن ذى الحيلَةِ الحيلُ ، يطوف عليهم ساق نشيط ، شمّر أسفل قميصه ، وعلق بأذنيه النُّطَف ، وقد تناثرت قُضُب الريحان ، يتنازعها الشَّرب ، وهم يتناقلون كئوساً لا تجف ، لأنهم لا يتوقفون عن الشرب إلا ريثما ينادون : هات ! وقد ماجت الحانة بنساء ضخام ، كأن على أردافهن قِرَباً ترتج بما فيها ، يجرون ذيول الرَّيط ، ونشط القيـــان للغناء على نغمات العود وجَرْس الصَّنْج .

فإذا فرغ الشاعر من هذه المقدمة الطويلة ، التى تستغرق أربعة وأربعين بيتاً ، اتجه إلى خصمه فبدأه بقوله :

---

(١) الفند بفتحتين ضعف الرأى .

أبلغ يزيدَ بنى شيبان مَألُكَةً أما ثَبَيْتِ أماتَنْفَكُّ تأتكلُ

وهو يقول له : أقصر عن نحت أثلتنا ، فلست ضائرها أبد الدهر ، وارْبَعْ على نفسك ، فلست إلا كوعل أحمق ، ينطح صخرة ليفلقها ، فلم يضرها وأوهى قرنه . على أنك تثير رهط مسعود وإخوته ، وتغريهم بنا ، وما أظنك تغضب لهم أو تخوض معهم قتالا إن جد الجد ، وشبت الحرب ، والتُمس عندك النصر . فأنت تلقيهم طعاما لرماحنا ، فترديهم ثم تعتزل .

لا تَقْعُدَنَّ وقد أكَّلْتَها حَطَباً تَعُوذُ من شرِّها يوما وتبتهل

ويعدد له بعد ذلك القبائل التى عادوها من قبل فقهروها ، فيذكر أهل كهف من بنى سعد بن مالك ، والجاشِرِيَّة من إياد ، وأسد بن ربيعة ، وقشير بن كعب بن ربيعة . فيقول له : سَلْهُمْ يخبروك كيف وجدوا بلاءنا فى القتال .

إنّا نقاتلهم ثُمَّتْ نُقَتِّلُهم عند اللقاء . وهم جاروا . وهم جهلوا

ثم يتجه إلى شيبان (قبيلة يزيد) ، وقد تزايد غضبه ، فيقول : زعمتم أنّا لسنا لكم بأكفاء ، وأننا لا ننهض لقتالكم ! بل نحن نقتلكم حتى يخر عميد القوم ، فلا تجد حوله غير نساء قد ثكلن أبناءهن ، يدفعن عنه بأكفهن . ولن ينهاكم عما أنتم فيه من بَغْىٍ كالطعن الجائف ، يغور فى علاجه الزيتُ والفُتُل .

ويشير الأعشى إلى ما كان من إغراء يزيد لهذا البيت من شيبان ، ونهيهم عن قتل ضبيع بزاهر ، فيقول : لئن قتلتم سيدا لم يكن مقاربا لقتيلكم (لنَقْتُلَنْ مثلَهُ منكم فنَمْتَثِلُ) ، ويختم القصيدة بقوله :

قد نَطْعَنُ العَيْرَ فى مَكْنُونِ فَائِلِه
وقد يَشِيطُ على أرماحنا البَطَلُ (١)

---

(١) العير حمار الوحش والفائل عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ . يشيط يهلك . يقول إنهم بصراء بمواضع الطعن. يضربون العير فى هذا الموضع الخفى الدقيق فلا يخطئون الاصابة .

ثم يتفاقم الشر بين شيبان وقيس بن ثعلبة ، فينشىء الأعشى قصيدة أخرى أعنف من السابقة ، يبدأها بقوله :

هُرَيْرَةَ ودِّعْها وإن لام لائم غداةَ غدٍ أم أنت للبَيْنِ واجِمُ

وهو يقول بعد أن يتغزل فى ستة أبيات :

رأيتُ بنى شيبان يظهر منهم لقومى عَمْداً نِغْصَةٌ ومَظَالم

ثم يذكرهم بمن ذاق عداوتهم من القبائل فلم يصبر عليها ، معددا أسماءهم ، ويقول : إنا على عهدكم بنا لم نتغير ولم نضعف، ففيم الطمع ؟ ثم يهددهم قائلا : إنكم لن تنتهوا حتى تَتَكَسَّرَ بيننا (رِمَاحٌ بأيدى شُجْعَةٍ وقوائمُ) ، وحتى يبيت القوم وقوفاً وراء الظُّعُن ، والخيل تحتهم ، يقولون « نَوِّرْ صُبْحُ ! » واللَّيْلُ عَاتِمُ . لن تنتهوا حتى يكون بيننا مثل هذا القتال العنيف ، أو تَتَكْسِرُون من حِدَّتِكُم (فإنَّما يَهِيمُ لعَيْنَيْه من الشَّرِّ هائِمُ) .

ثم يصف شجاعة قومه ، فيقول ليزيد : إنك إن لقيتنا لقيتَ بنا قوماً لا يجبنون ، حين تكون الجماجمُ أهدَافَ السيوف . إن أبناءنا ليَعْتَدُونَ البَأْس ، كما يعتدى المَاءَ الظماءُ . . ويصف نفور يزيد منه حين يلقاه وما يجد فى وجهه من بغض ، قائلا :

يزيدُ يغُضُّ الطَرْفَ عنى كأنما
زَوَى بين عَيْنَيْه عَلَىَّ المَحَاجِمُ
فلا يَنْبَسِطْ من بين عينيك ما انزوى
ولا تَلْقَنِى إلا وأنفُك راغم

ثم يخاطبه قائلا : لئن جد بيننا التقاطع ، لتُقتَلن مخافا أموالك ، وليندبنك النساء نائحات معولات ، (يَقُلْنَ حَرَامٌ ما أُحِلَّ بِرَبِّنَا) . وهذا الشطر أبلغ ما يكون فى حكاية تحسر النساء ، وتصوير حزنهن العاجز الضعيف . ويبلغ هجاء الأعشى ليزيد غايته حين يقول :

أبا ثابتٍ لا تَعْلَقَنْكَ رماحُنا ... أبا ثابت أَقْصِر وعِرْضُكَ سالمُ

وذرنا وقوماً إن هُمو عَمَدوا لنا ... أبا ثابت واقعُدْ فإنك ناعمُ

طَعَامُ العِراقِ المُسْتفيضِ الذي ترى ... وفي كلِّ عامٍ حُلَّةٌ ودراهمُ

ويختم قصيدته بإعادة التهديد ، متهماً يزيد بأنه يغرى بهم رهط سيار ، ثم يزعم بعد ذلك أنه برىء . ويقول إن هذا الصنيع لا ينتهى إلا بقتال شديد عنيف ، تسبي فيه النساء فيكُنّ عند بنات عمهن من رهط قيس كالناصفات الخوادم .

* * *

فإذا وقع الخلاف بين بطون قومه — قيس بن ثعلبة — كان الشاعر رفيقا ، يحاول أن يذكرهم الرحم وحقوق القرابة ، وما ينبغى لهم من وفاء .

يختلف بنو عبدان مع قومه (سعد بن ضبيته) فيعاتبهم مبقيا عليهم فى قصيدته :

كفى بالذى تُولينَهُ لو تَجَنَّبا ... شِفاءً لسُقْمٍ بعد ماكان أشْيَبا

نرى الشاعر حريصا على صداقتهم حين يقول :

فأبلِغْ بنى سعد بن قيس بأننى ... عَتَبْتُ فلما لم أجِدْ لى مَعْتَبا

صَرَمْتُ ولم أصرِمْكمُ وكصارِمٍ ... أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ ليذهبا

وهو يبكّتهم لتناسيهم ما بينهم وبين قومه من نسب :

إلى مَعْشَرٍ لا يُعرَفُ الوُدُّ بينهم ... ولا النَّسَبُ المعروف إلا تَنَسُّبا

ولكنهم مهما يخطئوا فهم قومه ، لا يكون مع عدوهم عليهم أبدا . فإخلاصه لعصبيته يأبى إلا أن يدفع عنهم بيده وبلسانه :

فإن أنأ عنكم لا أصالح عدوَّكم ... ولا أُعْطِه إلا جِدالاً ومِحْرَبا

وإن أدْنُ منكم لا أكُنْ ذا تَميمَةٍ ... يرى بينكم منها الأجالِدُ مُثْقَبا[1]

---

(١) التميمة المقراض الذى يقطع به الحديد والفضة . يقول إن بعدت عنكم لم أصالح عدوكم ولم يجد منى إلا الخصومة وإن دنوت منكم لم أثقب جلدكم بقارص الكلام .

سَيَنْبَحُ كلبي جَهْدَهُ من ورائكم ... وأُغنِي عيالى عنكم أن أُؤَنَّبا
وأدفع عن أعراضكم وأعيركم ... لساناً كمِقراض الخَفَاجيِّ مِلْحَبا
هنالك لا تجزوننى عند ذاكُمُ ... ولكن سيَجْزِينى الإلهُ فيُعْقِبا
ثنائى عليكم بالمَغيبِ وإننى ... أرانى إذا صار الوَلاءُ تَحَزُّبا
أكون امرءاً منكم على ما ينوبكم ... ولن يَرَنِى أعداؤكم قَرْنَ أَعْضَبا

✡ ✡ ✡

فإذا تمادى بنو عبدان ، وأغرَوا جهنام بهجاء بنى سعد بن ضبيعة ، كان الأعشى أكثر عنفا فى قصيدته :

يالَقَيْسٍ لِمَا لقينا العاما ... أَلِعَبْدٍ أعْرَاضُنَا أم على ما
ليس عن بِغْضَةٍ حُذاف ولكن ... كان جَهْلاً بذلكم وعُراما

وهو يبدأ قصيدته بقوله : يالقيس ، فكأنه يَنْشُدُهم الجد الذى يجمعهم وإياهم فى النسب ، ثم يحاول أن يصور لهم بغيهم على قومه ، الذين لم يهتكوا لهم حجابا ، ولم يُحِلُّوا لهم حراما .

لم نَطَأْكُمْ يوماً بظلم ولم نَهْتِـ ... ـك حجاباً ولم نُحِلَّ حراما
يا بنى المنذر بن عَبْدا ... ن والبِطْنَةُ يوماً قد تَأْفِنُ الأحلاما
لِمْ أَمَرْتُمْ عَبْداً ليهجو قوماً ... ظالميهم من غير جُرْمٍ كِراما

يقول لهم : قد ذهبت البِطْنَةُ بأحلامكم ، حتى أبحتم أعراضنا لعبد . ثم يمضى بعد ذلك مُعدِّدا نِعَم قومه على بنى عبدان ، بما أسدوا إليهم يوم حَجْر من نعمى ، إذ يُضَرِّمون النار ، فانحنى النخلُ الباسق ، وصار أسودَ كالنوق العِجاف ، بين قائم ومُصَرَّع . ويوم العين — وهو يوم فُطَيْمة — إذ أغار عليهم بنو شيبان ، فغدا عليهم قوم الأعشى مهطعين ، إسراعَ العطاش إلى الماء .

بِرِجَالٍ كالأُسْدِ حَرَّبها الزَجْـــر وَخَيْلٍ ما تُنْكِرُ الإقداما

فقتلوهم أول النهار ، ولم يكونوا إلا كما يجمع الراعى أغنامه ، وقد تخيل المطر مقبلا ، فخاف عليها أن يفرقها . ثم وَلَّوا (كما يَطْحَرُ الجَنوبُ الجَهَامَا) . ويختم ذلك بقوله :

ذاك من جَبْلِكم لنا وعليكم نِعْمةٌ لو شَكَرْتُم الإنعاما

ثم ينتقل إلى الفخر بقومه . فهم مَسَاميح ، يتيهون على السيد الذى يتفوّق على صحبه ويبذهم بالإطعام فى الشتاء القارس البرد ، حين يقع الدخان من الأنف موقع البخور ، إذ يضرب قومه القِدَاح على النِّيب حين يكره يَسْرُهُنّ . وهم أصحاب القباب كأنها الهضاب ، والخيل والصِعاد ، المطاردون عن أُخْرَى الحى إذا اشتدت الحرب ، وكشفت العذارى عن الساق والخلخال .

* * *

وخير ما يمثل هذا اللون الذى يتراوح بين العنف واللين ، ويجمع بين الغضب والحنين ، والإباء والوفاء ، قصيدته فى بنى جَحْدرِ بن قيس بن ثعلبة :

لِمَيْثَاء دارٌ قد تَعفَّتْ رُسُومُها عَفَتْها نضيضاتُ الصَبا فَمَسِيلُها

يقدم للقصيده بأربعة أبيات ، يقف فيها بأطلال صاحبته ميثاء ، ثم يتخلص إلى غرضه ، متعجبا من أمر هؤلاء القوم الذين يفتخرون عليهم ، وكأنهم ليسوا منهم :

وإنّى عَــدَانى عنكِ لو تعلمينه مَوازىُّ لم يُنزِلْ سواى جَليلُها

مَصَارِعُ إخوانٍ وفَخْرُ قبيلة علينـــا كأنا ليس منا قبيلها

ثم يمضى مناقشا فى رفق ، قائلا : تعالو نتعاط الحق بيننا ، حتى تعرفوا أينا الملوم ، فالعلم عند ذوى النهى (كالبَلْقَاءِ بادٍ حُجُولها) . ولا يلبث أن يثور فتدركه الشدة ، ويقول : فإن لم تقبلوا فشأنكم وما تريدون ، ولِتُمِدكم

المُجَيْم ومازن ، فعندنا شَيْبان ، وهم سادة العشيرة وحُكّامها . إن دعوتهم يوما أنجدونى بكَرَادِيسَ ورِعَالٍ كأنها الجراد ، لها جَلَبة حين تنقض على العدو مثيرة عجاجا . ويعود الشاعر إلى هدوئه ، مناقشا نقاش الذى يريد أن يلزم خصمه الحجة ، فيقول : أتُحِلّون لأنفسكم ما تحرمون علينا ؟ جارنكم حرام علينا ، وجارتنا حِلٌّ لكم ! ! .

فإن كان هذا حُكْمُكُم فى قبيلة ... فإن رَضِيتُ هذا فَقَلَّ قليلها

ويعود الشاعر إلى شدته ، فيحلف برب الساجدين عشية ، وما صك ناقوس النصارى أبيلُها (١) ، أنه لا يصالحهم حتى يبوءوا بمثل جنايتهم وبغيهم، ويصرخوا (صَرْخةَ حُبْلَى يسَّرتَهْا قَبُولها) . ويقول : إن ذلك الذى يسعى للقتل ظلما ، تحدثه نفسه أنا لسنا بذى عز ، ولسنا بأكفاء له ، ليُعِدُّ جَهْلَةً لا تُغتَفَر . أيخبركم حُمْرَانُ أن بناتنا سيُهزَلن إن لم ترفع العير إلينا الميرة ؟ فعِيركم أذل . وأرضكم على ما تعلمون من الجَدْب والمَحْل ! ! فإن تمنعوا منا المُشَقَّرَ والصَّفَا ، فنخيل الخَطِّ جَمٌّ ، وخمر دُرَنَى يُحَطُّ إلينا كل عشية . وإنكم لتأكلون دم الفَصِيد ، وإنا لنغذو أولادنا الشحم واللبن . ويختم قصيدته بقوله :

أبِالمَوْتِ خشّتْنِى عِبادٌ وإنما ... رأيتُ منايا الناس يَسْعَى دليلُها
فما مَيْتَةٌ إن مِتُّها غيرَ عاجزٍ ... بعارٍ إذا ما غالت النفسَ غولُها

* * *

ولعل من الخير ، أن أثبت النص الكامل للقصائد التى لخصتها فى حديثى السابق عن الأعشى ، لأن الديوان بطبعته الكاملة المروية عن ثعلب بشرحه غير ميسرة لكثير من القراء .

---

(١) الأبيل : للعصى التى يقرع بها الناقوس فى الكنائس .

قصيدة الأعشى فى هجاء كسرى والفرس قبيل يوم ذى قار

أثوَى وقصرَّ ليلةً ليُزوَّدا ... ومضى وأخلف من قُتَيْلةَ موعدا
ومضى لحاجته وأصبح حبلُها ... خَلَقاً وكان يظن أن لن يُنكَدا (١)
وأرى الغوانىَ حين شبتُ هجرننى ... أن لا أكون لهن مثلى أمْرَدا
إن الغوانى لا يواصلن امرءا ... فقد الشباب وقد يصلن الأمردا
بل ليت شعرى هل أعودَنْ ناشئاً ... مثلى زَمَنَ أحُلُّ بُرقَةَ أنقدا (٢)
إذ لِمَتِى سوداء أتبَعُ ظِلَّها ... دَدَناً قُعُودَ غواية أجرى دَداً (٣)
يَلوِينَنى دَيْنى النهارَ وأقتضى ... دَيْنى إذا وقذ النعُاسُ الرُّقَّدا (٤)
هل تذكرين العهد يابنة مالك ... أيام نرتبعُ السِّتارَ فثَهْمَدا (٥)
أيام أمنحكِ المودةَ كلها ... منى وأرعى بالمغيث المعهدا
قالت قُتَيلةُ ما لجسمك سايئاً ... وأرى ثيابك باليات هُمَّدا (٦)
أذللتَ نفسك بعد تَكْرِمةٍ لها ... أم كنتَ ذا عَوَزٍ ومنتظرا غدا
أم غاب ربك فاعترتك خَصَاصةٌ ... فلعلّ ربك أن يعود مؤيدا (٧)

---

(١) نكد الماء على البناء للمجهول نزف . وناقة نكداء لا لبن فيها .

(٢) يطلق العرب البرقة بضم الباء على كل أرض غليظة وبرقة أنقد إحدى برق وهى كبيرة العرب بقيف على المائة .

(٣) الددن والدد اللهو واللعب والعبث .

(٤) يلوينني يمطلننى . يقول إن له حقا على صاحباته بما بينه وبينهن من ود ومن صلات . ولكنهن يمطلنه حقه إذا طالب به نهاراً ولايقبلن أدائه والوفاء به إلا ليلا حين ينام الناس . وقذ النعاس الرقدا صرعهم وأسكنهم وأثقلهم .

(٥) الستار وثهمد مواضع . ارتبع وتربع أقام فى المكان وقت الربيع يرعى إبله ما أنبتت الأرض من كلأ وعشب .

(٦) سايىء يسوء من رآه . (٧) الخصاصة الفقر . ربه ولى نعمته .

ربى كريم لا يكدِّرُ نعمَـةً ... وإذا يُناشَدُ بالمَهارِق أنشدا (١)
وشِمِلة حَرْفٍ كأن قُتُودها ... جَلَّلتَه جَوْنَ السَّراة حَفيدَدا (٢)
وكأنها ذو جُدَّة غِبَّ السُّرى ... أوقارحٌ يتلو نَحائِصَ جُدَّدا (٣)
أو صَعَلةٌ بالقارَتين تَرَوَّحتْ ... رَبْداءُ تتَّبع الظَّلِيمَ الأرْبَدا (٤)
يتجاريان ويحسبان إِضاعَةً ... مُكْثَ العَشاءِ وإن يُغيبا يَفقدا
طوراً تكون أمامه فتفوتُه ... ويفوتها طوراً إذا ما خَوَّدا
وعُذافِرٍ سَدَسٍ تَخَالُ مَحالَه ... بُرجاً تشيِّده النَبيطُ القرْمَدا (٥)
وإذا يَلُوثُ لُغامه بسَديسه ... ثَنَّى فهب هِبابَه وتزيدا (٦)
وكأنه هِقْلٌ يبارى هِقْلَةً ... رَمْداءَ فى خيطٍ نقانِقَ أرْمَدا (٧)
أمسى بذى العجْلان يَقْرُو روضة ... خضراء أنضَرَ نَبتُها فتَرأدا (٨)
أذْهَبْتُه بمَهامِهٍ مجهولةٍ ... لايهتدى بُرْتٌ بها أن يَقصِدا (٩)

---

(١) المهارق الصحف وربما كان فى هذا ما يشير إلى أن ممدوحة متدين بدين من الأديان السماوية. لا يكدر نعمة بالمن والأذى فنعمته صافية لا يشوبها كدر .

(٢) شملة خفيفة . حرف صلبة . القتود عيدان الرحل . الحفيدد السريع والظليم وهو فرخ النعام . وهو هنا يصف ناقته .

(٣) جدة سمن وبدانه . وذو جدة يقصد به حمار الوحش . القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الابل وهو البعير إذا بزل نابه وذلك فى سن التاسعة . النحائص جمع نحوص وهى من الأتن مالا ولد لها ولا لبن وهى أوفر نشاطا واكثر اكتنازا . يشبه ناقته بحمار وحش هذه صفته .

(٤) صعلة صغيرة الرأس يقصد النعامة يشبه ناقته بهـا . الأربد الأبيض المشوب بسواد . الظليم ولد النعامة .

(٥) عذافر شديد . السدس قبل البزول . المحالة الفقرة من فقر البعير . القرمد الجص والحجارة . الآجر والخزف المطبوخ . يشبه ناقته فى ضخامتها ببرج شيده النبيط من القرمد .

(٦) اللغام الزبد . الهباب النشاط . التزيد سير فوق العنق .

(٧) الهقل بكسر الهاء ذكر النعام . الخيط بكسر الخاء الجماعة من النعام .

(٨) ذى العجلان شجر . القرو القصد والتتبع . ترأد وارتأد اهتز واضطرب وأخذته رعدة .

(٩) المهامة جمع مهمه وهى الصحراء . البرت بضم الباء الدليل . يقول إن ناقته تهتدى فى هذا الطريق المخيف الذى يخطىء فيه الدليل الخبير بمسالك الصحراء .

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه عنى مآلك مخمشات شُرَّدا
آليتُ لا نعطيه من أبنائنا رُهُناً فيفسدَهم كمن قد أفسدا
حتى يُفيدك من بنيه رهينةً نَعْشٌ ويَرْهَنكَ السِّماكُ الفرقدا
إلا كخارجةَ المكلّفِ نفسَه وابنَىْ قبيصةَ أن أغيبَ ويشهدا
أن يأتياك برُهنهم فهما إذن جُهدا وحُقَّ لخائفٍ أن يُجهدا
كلا يمينَ الله حتى تُنزلوا من رأس شاهقةٍ إلينا الأسودا
لنقاتلنكم على ما خيَّلت ولنجعلن لمن بغى وتمردا
ما بين عانة والفرات كأنما حَشَّ الغُواةُ بها حريقاً موقدا
خُربت بيوتُ نُبيطةٍ فكأنما لم تأتق بعدك عامراً متعهِّدا
لسنا كمن جعلت إيادٌ دارَها تكريتَ تنظُرُ حبَّها أن يُحصدا
قوماً يعالجُ قُمَّلاً أبناؤُهم وسلاسلاً أجُداً وباباً مُؤْصَدا
جعل الألهُ طعامَنا فى مالنا رزقاً تضمَّنه لنا لن ينفدا
مثلَ الهِضابِ جَزارةً لسُيوفنا فإذا تُراع فإنها لن تُطردا
ضَمِنَتْ لنا أعجازُهنّ قُدُورنا وضروعُهن لنا الصريحَ الأجردا
فاقعد عليك التاجُ معتصِباً به لا تَطلُبَنَّ سوامَنا فتَعبَّدا
لا تحسبنا غافلين عن الـ . . . .
فلعَمرُ جدِّك لو رأيت مُقامَنا لرأيتَ منا مَنْظَراً ومؤيّدا
فى عارضٍ من وائل إن تلقَه يومَ الهياج يكن مسيرُك أنكدا
وترى الجيادَ الجُردَ حول بيوتنا موقوفةً وترى الوشيجَ مسنَّدا (١)

(١) الوشيج شجر الرماح .

قصيدته فى هجاء بنى شيبان وزعيمهم
يزيد بن مسهر

هُـرَيْرَةَ ودعها وإن لام لائم … غداة غدٍ أم أنتَ للبَـيْن واجمُ
لقد كان فى حَولٍ ثواءٍ ثوبتُـه … تـَقَـضِّى لُـبانات ويَسأمُ سائم (١)
مبتَـلةٌ هيفاءُ رَوْدٌ شبابُهـا … لها مقلتا رِئمٍ وأسودُ فاحم (٢)
ووجهٌ نقىٌّ اللون صاف يزينه … مع الجيد لَـبَّاتٌ لهـا ومعاصم
وتضحك عن غُـرِّ الثنايا كأنه … ذُرَى أقحـوان نَـبْتُـه مُتناعـم
هى الهَـمُّ لا تدنو ولا يستطيعها … من العِيس إلا الناجياتُ الرَّوَاسِمُ
. . . يُـغنِـيك واعمِـد لغيرها
بشِـعرِك واعلُـب أنفَ من أنت واسمْ (٣)
رأيتُ بنى شيبان يظهر منهم … لقومى عمداً نغْصَةٌ ومظالم
فإن تُصبحوا أدنى العَدُوِّ فقبلَـكم … من الدهر عادَتْنا الرِّباب ودارم
وسَـعدٌ وكَـعبٌ والعِبادُ وطىٌّ … ودُودَانُ فى ألفافِـها والأراقمُ
فما فَـضَّنا من صانِـعٍ بعد عهدكم … فتـطْمَـعَ فينا زاهرٌ والأصارم (٤)
ولن تنتهوا حتى تَـكَـسَّر بيننا … رماحٌ بأيدى شُـجعَةٍ وقوائم
وحتى يَبيتَ القومُ فى الصَّفِ ليلةً … يقولون نَـوِّرْ صُـبحُ والليلُ عاتم

(١) ثوى أقام . يقول لقـد كان فى سنة كاملة أقمتها ما يتسع لقضاء حاجاتى وما يكفى لأن تمل الصحبة لطولها .

(٢) مبتلة لم يتراكب لحمها بعضه فوق بعض . هيفاء خميصة البطن . رود ناعمة . الرئم الظبى الأبيض الخالص البياض أسود فاحم يقصد الشعر .

(٣) العلب الأثر .

(٤) لم يفضنا أحد الفض الكسر . الصانع الحاذق أى لم يغيرنا عن أخلاقنا . فكيف يطمع فينا هؤلاء القوم من زاهر والأصارم .

وقوفاً وراء الطعن والخيل تحتهم ... تُشَدّ على أكتافهن القوادم
إذا ما سمعن الزجرَ يمّمنَ مُقدَما ... عليها أسود الزارتَين الضراغم
أبا ثابت أو تَنْتَهون فإنما ... يَهِيمُ لِعَيْنَيْهِ من الشر هائم
متى تلقنا والخيلُ تحمل بَزَّنا ... خَنَاذيذُ منها جِلّةٌ وصلادِم (١)
فتلق أناسا لا يَخِيمُ سلاحُهم ... إذا كان حَمّا للصفيح الجماجم (٢)
وإنا أناس يعتدى البأسَ خُلْفُنا ... كما يعتدى الماءَ الظِماءُ الحوائم
فهان علينا ما يقول ابنُ مُسْهِر ... برغمك إذ حلّت علينا اللهازمْ (٣)
يزيد يغُضُّ الطرفَ دونى كأنما ... زَوَى بين عينيه علىَّ المَحَاجمُ
فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ... ولا تلقنى إلا وأنفُك راغم
فأقسم إن جد التقاطع بيننا ... لتَصْطَفِقَن يوماً عليك المآتم (٤)
يقُلنَ حرامٌ ما أُحِل بربنا ... وتَتْرُكُ أموالا عليها الخواتم
أبا ثابت لا تعلقنك رماحُنا ... أبا ثابت أَقْصِر وعرضُك سالم
وذرنا وقوما إنهُمُو عمَدوا لنا ... أبا ثابتٍ واقعد فإنك ناعم
طعامُ العراق المستفيضُ الذى ترى ... وفى كل عام حُلّة ودراهم
أفى كل عام تقتلون وتَتَّدِى ... فتلك التى تبيض منها المَقادِمُ
أتأمر سيارا بقتل سَراتنا ... وتزعم بعد القتل أنك سالم؟
أبا ثابت إنا إذا تسبِقَنَّنَا ... سيُرعَدُ سَرح أو ينَبَّه نائم (٥)

(١) البز السلاح . خناذيذ كرام . قوم جلة عظماء سادة . صلادم غلاظ شداد .

(٢) يخيم يجبن . إذا كان حما أى قصدا . يعنى إذا كانت الجماجم والرءوس أهدافا للسيوف وذلك فى الحرب .

(٣) اللهازم هم قيس بن ثعلبة قبيلة الأعشى وحلفاؤها عنزة وعجل وحنيفة . ابن مسهر هو يزيد بن مسهر أحد زعماء شيبان .

(٤) الريح تصفق الأشجار فتصطفق أى تضطرب : والنساء يصطفقن على الميت

(٥) السرح المال السائم .

مُشعلَةٍ يَغشَى الفراشَ رشاشُها ... يبيت لها ضوءٌ من النار جاحم (١)

تَقَرُّ به عينُ الذى كان شامتا ... وتُبتَلُ منها سُرَّةٌ ومآكم

وتُلفَى حَصَانٌ تخدم ابنة عمها ... كما كان يُلفَى الناصفاتُ الخوادم (٢)

إذا اتصلت قالت أبَكْرَ بنوائل ... وبَكرٌ سَبَتها والأنوفُ رواغم (٣)

قصيدته فى هجاء بنى المنذر بن عبدان بن حذافة بن سعد

ابن قيس بن ثعلبة وشاعرهم جهنام

(١)

كفى بالذى تولينه لو تجنَّبا ... شفاءً لسُقمٍ بعد ما عاد أشيَبا (٤)

على أنها كانت تأَوُّلُ حُبِّها ... تأَولَ رِبْعِيِّ السِقَابِ فأَصحَبا (٥)

فتَمَّ على معشوقةٍ لا يزيدُها ... إليه بلاءُ الشوق إلا تحبُّبا

وإنى أمرؤ قد بات همى قريبتى ... تأوبَنى عند الفراش تأوُّبا

سأُوصى بصيراً إن دنَوتُ من البِلى ... وصاةَ امرىءٍ قاسى الأمور وجربا

بأن لا تَبَغَّ الوُدَّ من متباعِد ... ولا تنأَ عن ذى بِغضةٍ إن تقربا

---

(١) مشعلة طعنة واسعة يتفرق دمها منبثقا . جاحم موقد . وكانوا يوقدون عند المطعون ليعرفوا حاله فى كل ساعة .

(٢) الحصان بفتح الحاء والحصناء والمحصنة بوزن اسم المفعول العفيفة أو المتزوجة التى أحصنها زوجها .

(٣) إذا اتصلت أى أرادت أن تتوسل إلى أبناء عمها الذين سبوها بصلة النسب التى بينهم تصيح « أبكر بن وائل » وبكر هو الجد الأكبر الذى يجمع هذه القبائل جميعاً .

(٤) يقول كفى بالذى توليننى من الهجر والجفاء شفاء لما أنا مريض به من حبك لو أننى عقلت فتجنبت طلابك بعد أن شبت .

(٥) الربعى بكسر الراء ماولد فى الربيع ابتكرت أمه بولادته . السقاب جمع سقب بفتح السين وهو ولد الناقة . أصحب انقاد .

فإن القريب من يُقرِّب نفسه ... لعَمْرُ أبيك الخيرِ لا من تنسّبا[١]
وإن امرءاً فى حِقبة الناس هذه ... وإن . . . .
متى يغترب عن قومه لا يَجِدْ له ... على من له رهطٌ حواليه مُغْضِبا
ويُحطَم بظلمٍ لا يزال يرى له ... مَصَارِعَ مظلومٍ مَجَرًّا ومَسْحَبا
وتُدْفَنُ منه الصالحاتُ وإن يُسِيء ... يكن ما أساء النار فى رأس كبْكَبا[٢]
وليس مُجيرا إن أتى الحىَّ خائفٌ ... ولا قائلا إلا هو المتَعَيّبا
أرى الناس هَرُّونى وشُهِّر مَدْخَلى ... وفى كل مَمْشىً أرصد الناس عقربا
فأبلغ بنى سعد بن قيس بأننى ... عَتَبْتُ فلما لم أجد لى مَعْتَبا
صرمتُ ولم أصرمكم وكصَارِمٍ ... أخٌ قد طوى كشحا وأبَّ ليذهبا[٣]
ومِثْلُ الذى تولوننى فى بيوتكم ... يُقَنِّى سِنانًا كالقُدامى وثعلبا
ويَبعُدُ بيتُ المرء من دار قومه ... فلن يعلموا مُمساه إلا تَحسُّبا[٤]
إلى معشر لا يُعرَفُ الوُدُّ بينهم ... ولا النسبُ المعروف إلا تَنَسُّبا
أرانى لَدُنْ أن غاب قومى كأنما ... يرانى فيهم طالبُ الحق أرنبا
دعا قومَه حولى فجاءوا لنصرة ... وناديت قوما بالمَسَنَّاةِ غُيَّبا[٥]
فأرضوه أن أعطوه منى ظلامةً ... وما كنت قُلًّا قبل ذلك أزْيبا[٦]
ورُبَّ بقيع لو هتفتُ بجَوِّه ... أتانى كريم ينفض الرأس مُغْضَبا
أرى رجُلاً منكم أسيفاً كأنما ... يضُمُّ إلى كَشحيه كفًّا مخضبا
وما عنده مجد تليد ولا له ... من الريح فضل لا الجنوب ولا الصبا

(١) يقول ليس القريب هو الذى تجمعك به صلة نسب ولكن القريب حقاً هو الذى يمنحك من الود والاخلاص ما يقربه منك .
(٢) كبكب اسم جبل .
(٣) أب ليذهبا تهيأ للذهاب .
(٤) التحسب السؤال عن الخبر
(٥) المسناة ماء لبنى شيبان
(٦) أزيب غريب من حى آخر .

وإنى وما كلفتمونى وربكم ... ليعلم من أمسى أعق وأحربا
لكالثور والجنى يضرب ظهره ... وما ذنبه إن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر ... وما إن تعاف الماء إلا ليضربا (١)
فإن أنأ عنكم لا أصالح عدوكم ... ولا أعطه إلا جدالا ومحربا
وإن أدن منكم لا أكن ذا تميمة ... يرى بينكم منها الأجالد مثقبا (٢)
سينبح كلبى جاهدا ومن ورائكم ... وأغنى عيالى عنكم أن أؤنبا
وأدفع عن أعراضكم وأعيركم ... لسانا لمقراض الخفاجى ملحبا (٣)
هنالك لا تجزوننى عند ذاكم ... ولكن سيجزينى الإله فيعقبا
ثنائى عليكم بالمغيب وإننى ... أرانى إذا صار الولاء تحزبا
أكون امرءا منكم على ما ينوبكم ... ولن يرنى أعداؤكم قرن أعضبا (٤)
أرانى وعمرا بيننا دق منشم ... فلم يبق إلا أن أجن ويكلبا (٥)
كلانا يرى أنه غير ظالم ... فأعزبت حلمى أو هو اليوم أعزبا
ومن يطع الواشين لا يتركوا له ... صديقا وإن كان الحبيب المقربا
وكنت إذا ما القرن دام ظلامتى ... غلقت فلم أغفر لخصمى فيدربا
كما التمس الرومى منشب قفلة ... إذا اجتسه مفتاحه أخطأ الشبا
فما ظنكم بالليث يحمى عرينه ... نفى الأسد عن أوطانه فتهيبا

---

(١) الجنى الراعى . وكانوا إذا أرادوا أن يوردوا البقر الماء فعافته قدموا ثورا فضربوه فورد. فإذا فعلوا ذلك وردت البقر . يقول أنتم قد ألزمتمونى ما لا ذنب لى فيه كما يضرب الثور لأن البقر تعاف الماء .

(٢) التميمة المقراض الذى يقطع به الحديد والفضة .

(٣) الخفاجى نسبة إلى خفاجة بن معاوية بن عقيل . ملحب قاطع .

(٤) الأعضب المكسور القرن . يقول سأكون برغم إساءتكم إلى عنيفاً على أعدائكم .

(٥) منشم امرأة جعلت عطرا لها فكان صديق لها يأتيها فتطيبه فوجد زوجها ريح عطرها من صديقها فقتلها . فاقتتلوا فيه حتى تفانوا . وعمرو هو جهنام شاعر بنى عبد الله .

يُكِنُّ حداداً مُوجَدَاتٍ إذ مشى ⁂ ويُخرجُها يوماً إذا ما تحرَّبا
له السَّوْرَةُ الأولى على القِرْنِ إذْ غدا ⁂ ولا يستطيع القِرنُ منه تغيُّبا
علوتُكُم والشيب لم يَعْلُ مفرقى ⁂ وهادَيْتُمُونى الشِعْرَ كهلا مجربا

قصيدته فى هجاء بنى عبدان وشاعرهم جهنام

يالَقَيس لما لقينا العاما ⁂ ألِعَبْدٍ أعراضُنا أم على ما (١)
ليس عن بِغْضَةٍ حُذافَ ولكن ⁂ كان جهلاً بِذَاكُمْ وعُرَاما (٢)
لم نطأكم يوما بظلم ولم نهتك حجاباً ولم نُحِل حَراما
يا بنى منذر بن عبدان والبِطْنَةُ يوماً قد تأفِنُ الأحلاما (٣)
لم أمرتُم عبداً لِيهجُوَ قوماً ⁂ ظالميهم من غير جُرْمٍ كراما
وابتعثتم . . . .
يومَنا بالمَسيل فى سيِّدَيْهم ⁂ حيثُ جئتم واد . . . .
والتى تُلبِثُ الرءوسَ من النُعمى وبأتى إسماعُها الأقواما
يومَ حجْرٍ بما أُزلّ إليكم ⁂ إذ تُذَكّى فى حافتيه الضِراما (٤)
جار فيه نَافى العُقاب فأضحى ⁂ آئدُ النخل يفضَحُ الجُرّاما
فتراها كالخُشْنِ تسفَحُها النيرانُ سوداً مُصَّرعا وقياما (٥)

---

(١) قيس بن ثعلبة هو الجد الذى يجتمع عنده قوم الأعشى بأبناء عمهم بنى عبد الله. يناشدهم القرابة.

(٢) حذافة جد بنى المنذر بن عبد الله. وجهنام هو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبد الله بن حذافة ابن حبيب بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة. العرام الشراسة والشر.

(٣) تأفن الأحلام تذهب بها وتضعفها. ورجل مأفون ضعيف العقل.

(٤) أزل اليه نعمة أسداها إليه. يذكرهم بما قدموا لهم من عون فى هذا اليوم حين أحرقت النخيل.

(٥) الخشناء الناقة العجفاء.

ثم بالعين عُرّةٌ تكشِفُ الشمسَ ويوماً ما ينجلى إظلاما
إذ أتتكم شيبانُ فى شارق الصُبح بكبشٍ ترى له قُدّاما
فغَدَوْنا عليهم بَكرَ الورْدِ كما تورد النَضيجَ الهيِاما (١)
برجال كالأسْد حرّبها الزجرُ وخيلٍ ما تُنكر الإقداما
لا نقيها حدّ السيوف ولا نأ لم جوعا ولا نبالى السهاما
ساعةً أكبرَ النهارُ كما شدّ مُخيل لنوئه أغناما (٢)
من شباب تراهمُ غير مِيلٍ وكهولا مَراجحا أحلاما
ثم ولّوا عند الحفيظة والصبر كما يطحَرُ الجَنُوب الجَهاما (٣)
ذاك من جَبْلكم لنا وعليكم نعمةٌ لو شكرتم الإنعاما
وإذا ما القُتارُ شبه بالآنف يوما بِشتوة أهضاما (٤)
فلقد تَصلُقُ القداحَ على النِّيب إذا كان صلقهن غراما
بمساميح فى الشتاءِ يَخالُون على كل فالجٍ إطعاما
وقبابٍ مثل الهضابِ وخيلٍ وصعادٍ حُمْر يَقين السماما (٥)
فى محل من الثغور غُزاةٍ فإذا خالط الغوارُ السَواما
كان منا المطاردون عن الأخرى إذا أبدت العذارى الخِداما (٦)

---

(١) النضيح الماء لأنه ينضح العطش والناضح المستقى عليه والهيام بكسر الهاء العطاش .

(٢) مخيل راع تخيل أن فى السحاب مطراً مقبلا فخشى على بهمه أن يغرقها المطر .

(٣) يطحر يقل ويطرد . الجنوب الريح التى تهب من الجنوب . الجهام السحاب .

(٤) الهضم البخور والجمع أهضام . القتار رائحة الطعام . والشتاء وقت الجدب فى بلاد العرب ولذلك فهم يفتخرون بالجود والكرم فيه خاصة . يقول إن الطبخ يقل فى الشتاء حتى إن الناس ليشمون رائحته كما يشمون البخور : ثم يقول فى ذلك الوقت تجدنا نضرب القداح على النيب وهى كبار الأبل حين يكره ذلك لشدة الحاجة إليها .

(٥) الصعاد جمع صعدة وهى القناة التى تنبت مستقيمة فتصلح لأن تكون رمحا .

(٦) الخدام جمع خدمة بثلاث فتحات وهو الخلخال والساق . يكنى بانكشاف سوق العذارى عن شدة القتال .

قصيدة فى هجاء بنى جحدر بن قيس بن ثعلبه

لِمَيْثاءَ دارٌ قد تَعَفَّتْ طُلُولُها ... عفتها نَضِيضَاتُ الصَّبَا فمَسِيلُها
لِما قد تَعَفَّى من رَمادٍ وعَرْصَةٍ ... بكيتُ وهل يبكى إليك مُحيلها
لميثاء إذ كانت وأهلُك جِيرَةً ... رئاءً وإذ يُفْضِى إليكَ رسولُها
وإذ تَحسَبُ الحبَّ الدخيلَ لِحَاجَة ... من الدهر لا تُمنى بشىء يزيلها
وإنى عدانى عنكِ لو تعلمينه ... مَوازِئُ لم يُنزِل سواى جليلُها(١)
مصارعُ أخوانٍ ونحرُ قبيلةٍ ... علينا كأنا ليس منّا قبيلُها
تعالوا فإن العِلْمَ عند ذوى النُّهَى ... من الناس كالبلقاء بادٍ حُجُولُها
نعاطيكم بالحق حتى تَبَيَّنوا ... على أيِّنا تُؤدى الحقوقَ فُضولُها
وإلا فعودوا بالهُجَيم ومازنٍ ... وشيبانُ عندى جَمُّها وحَفيلُها
متى أدْعُ يوماً ناصرى تأت منهم ... كَراديسُ مأمونٌ على خُذُولها
رعالاً كأمثال الجرادِ لخيلهم ... عُكوبٌ إذا ثابَتْ سريعٌ نُزولها(٢)
فإنى بحمد الله لم أفتقدكم ... إذا ضمَّ هَمّاماً إلى حُلُولها
أجارَتُكم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ ... وجارتنا حِلٌّ لكم وحليلُها
فإن كان هذا حكمُكم فى قبيلةٍ ... فإن رضَيتُ هذا فقلَّ قليلها
فإنى ورب الساجدين عشيةً ... وما صكَّ ناقوسَ النصارى أبيلُها
أصالحُكمْ حتى تبوؤا بمثلِها ... كصرخة حبلى يَسَّرَتْها قَبولُها

---

(١) وزأ القوم دفع بعضهم عن بعض ووزأت الناقة به صرعته . والوزأ محركة الشديد الخلق .

(٢) الرعال جمع رعلة ورعيل وهى القطعة من الخيل القليلة قدر العشرين أو الخمسة والعشرين . عكوب غبار وأصوات .

. . . . أما يحيلها

تناهيتم عنا وقد كان فيكم   أساود صرعى لم يوسد قتيلها (١)

وإن امرأ يسعى ليقتل قاتلا   عداء معد جهلة لا يقيلها

ولسنا بذى عز ولسنا بكفئه   كما حدثته نفسها ودخيلها

ويخبركم حمران أن بناتنا   سيهزلن إن لم يرفع العير ميلها (٢)

فعيركم كانت أذل وأرضكم   كما قد علمتم جدبها ومحولها

فإن تمنعوا منا المشقر والصفا   فإنا وجدنا الخط جما نخيلها (٣)

وإن لنا درنى فكل عشية   يحط إلينا خمرها وخميلها (٤)

فإنا وجدنا النيب إن تفصدونها   يعيش بيننا سيئها وجميلها (٥)

أبا لموت خشتنى عباد وإنما   رأيت منايا الناس يسعى دليلها

فما ميتة إن متها غير عاجز   بعار إذا ما غالت النفس غولها

---

(١) الأساود الجماعة من الناس .

(٢) يقصد إن لم يرفع أميال الطريق إلينا العير بالميرة .

(٣) المشقر مدينة هجروهى مشهورة بالتمر . الصفا بالبحرين . الخط أرض عبد القيس وإليها تنسب الرماح . يقول إنهم يستغنون عن ثمر هجر والصفا بالخط فنخيلها كثير .

(٤) درنى باليمامة مشهورة بالخمر . الخميل الثريد والطعام .

(٥) السيء اللبن ينزل قبل الدرة ويكون فى أطراف الأخلاف . الجميل ذوب الشحم . يقول إذا أكلتم دم الفصيد فنحن نغذو أولادنا اللبن والشحم .

الهجـــاء الدينى

هذا قسم من أقسام الهجاء السياسى ، صاحب الحركة الإصلاحية الخطيرة ، التى بدأت فى الجزيرة بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوته إلى دين جديد . فقد كان للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية ، تهدف إلى توحيد الجزيرة ، وخلق دولة كبيرة منها ، تخضع لسلطة مركزية واحدة . والمتتبع لهذه الحركة منذ نشأتها ، يعجب للمقدرة الفذة التى نظمتها وأدارت دفتها ، حتى بلغت بها فى أقصر وقت ، إلى هذه الدرجة من النجاح الكامل والفوز المحقق . وليس من شك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان من أنضج العقليات السياسية التى عرفها التاريخ ، رحل عن مكة حين وجد المعارضة الشديدة ، إلى حيث استطاع أن يأمن على نفسه وصحبه . وكان همه الأول أن يوحد صفوف حزبه ، ويجعل منهم كتلة متماسكة . فهو يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، وينهى عن العصبية ، ويصلح بين الأوس الخزرج ، فيزيل آثار الثارات والعداوات . فإذا تم له توحيد الصفوف بدأ نشاطه السياسى ، واحتال لأعداء الدعوة ، يتخلص منهم واحدا وحدا .

كان اليهود كثرة فى المدينة ، فهو يهادنهم ، ثم يتخلصُ منهم دفعة بعد دفعة . كلما نقض فريق منهم عهده أجلاه . فلما تم له توحيد المدينة ، وأصبحت كتلة مسلمة ليس بينها دخيل ، بدأ سياسته الخارجية ، وكانت مكة أول هدف يرمى إليه . فهو يريد أن يستولى على عاصمة عدوه ، ويضع يده على أقدس البقاع عند العرب ، وقد علم ما سيكون لذلك من أثر أدبى كبير فى كل أنحاء الجزيرة . وهو يحتال لأمره ، فلا يندفع مهاجما ، ولكنه يعجم عود عدوه ، فيزور مكة معتمرا ، ويقرر أنه لا يريد حربا ، وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت معظما له ، ويقنع فى هذه المرة بعقد صلح الحديبية ، وهو كسب سياسى

محقق ، أقل ما فيه الاعتراف الصريح بالدولة الإسلامية الناشئة .

وهو لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، فهو يهادن مكة ، ريثما يتخلص من اليهود الذين أجلاهم عن المدينة فاستقروا فى خيبر يتربصون به الدوائر . فإذا تم له إخضاعهم وأمن شرهم ، ظل يترقب مكة لأول فرصة تنقض فيها العهد ، وهو يعلم أن ذلك واقع لامحالة ، فى حياة تعتمد على الغارة والغزو . فإذا نجح فى الغزو ، تحقق تقديره ، وأقبلت وفود العـــرب تترى مبايعة .

وهو يصطنع الأحزاب السياسية ، ويختار دعاتها من الشعراء ، فقد علم أنه لا ينهض للرد على شعر المشركين أمام الجماهير إلا شعر مثله . فهم يردون على الكفار بنفس أسلوبهم فى التعيير بالأنساب والأيام . فإذا تمت للمسلمين الغلبة نهى عن رواية الشعر القديم . الذى تبادلوه مع أعداء الأمس وأصدقاء اليوم . وعفى على الضغائن القديمة بالصفح الجميل ، لا غالب ولا مغلوب ، فهم جميعا إخوان فى الدين ، وعفا الله عما سلف .

وقد علم بثاقب فكره وبعيد نظره ، أن لا ثبات للإسلام فى هذه الجزيرة القاحلة الفقـــيرة ، إلا أن يزيل الدولتين الكبيرتين الغنيتين على أطرافها ، الفرس والروم . ولكنه لا يتعجل ، فهو يستجم سنتين بعد فتح مكة ، يتهيأ لهذه المهمة الكبيرة بتوحيد كتلة المسلمين ، وقد اتسعت رقعتها حتى شملت معظم الجزيرة . فهو لا يجبر أصحاب الديانات السماوية القديمة على اعتناق الإسلام كما يفعل بالكفار ، ولا يضطهدهم ، ولكنه يبدلهم بأرضهم أرضا فى أطراف الجزيرة ، حتى يجعل من الجزيرة كتلة متماسكة متحدة ، تدين بدين واحد . ثم هو لا يفرض على المسلمين عقائد الدين فقط ، ولكنه يوحد بينهم فى القوانين المدنية التى تحكمهم ، فهى جزء لا يتجزأ من الدين ، وهى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وبذلك أصبحت هذه القبائل

المبعثرة المتفرقة ، تدين لسلطة مركزية واحدة ، ويحكمها لأول مرة فى التاريخ قانون واحد فى العقوبات والمعاملات .

وقد حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن لا يفجأ قومه بالتشريع دفعة واحدة . فهو يعتمد على تقاليدهم القديمة، ولكنه يحتال فى توجيهها وتهذيبها، ويتلطف فى قيادتها للخير . فالكعبة هى هى ذلك المكان المقدس ، ولكنه يزيل منها الأصنام ، ويقر سدنتها فى الجاهلية على سدانتها فى الإسلام . والرق هو هو لا يلغيه ، ولكنه يخففه ، ويضع له القيود ، ويرد على صاحبه إنسانيته ، فهو أخ فى الله . والثأر يتركه كما كان من حق صاحبه ، ولكنه ينهى عن الغلو فيه ، ولا يزال يحبب إليهم العفو . حتى يصير العفو أحب إلى أحدهم من القصاص . والحياة البدوية التى تقوم على الغزو والنهب باقية كما هى ، بتقاليدها فى السبى والغنائم ، ولكنه يوجهها نحو العدو ، وينتفع بها فى نشر الرسالة .

فالإسلام — وهو الدين العربى — كان متأثرا بالمثل الجاهلية إلى حد بعيد . وتأثره بهذه المثل واضح من عدة نواح . فهو دين واقعى ، يعرف أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من بشريتهم ليعيشوا فى عالم المثل وفى آفاق الكمال ، فيقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . ولازمة من لوازمها ، لا يتم بدونها العمران (ولولا دَفْعُ الله بَعْضَهُمْ بِبَعْض لفَسَدَت الأرض . ولكنَّ اللهَ ذو فَضْلٍ على العَالمَين — بقرة ٢٥١) (وآتَيْنَا عيسى بنَ مريمَ البَيِّنَات وأيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُس . ولو شاء الله ما اقتَتَلَ الذين من بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَات. ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كَفَر . ولو شاء الله ما اقتتلُوا ولكنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يريد — بقرة ٢٥٣) . ولذلك فهو يطلب إلى المسلم أن يكون قويا مستعدا للقتال (فإذا لقيتمُ الذين كفَروا فَضَرْبَ الرِّقَاب. حتى إذا أثْخَنْتُمُوهم فشُدُّوا الوثَاق . فإما مَنًّا

بَعْدُ وإما فداءً حتى تضَعَ الحربُ أوزارَها ، ذلك ولو يشاءُ اللهُ لانتصَرَ منهم . ولكنْ ليَبْلُوَ بعضَكم ببعْض . والذين قُتِلوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهم — محمد ٤) (فإما تَثْقَفَنَّهُم فى الحرب فَشرِّدْ بهم من خَلْفَهم لعلَّهم يَذَّكَّرُون . — الأنفال ٥٧) (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل تُرْهِبُون به عدوَّ الله وعدوَّكم — الأنفال ٦٠) (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمُون ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُه ولا يَدِينُونَ دينَ الحقِّ من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعْطوا الجزْيَةَ عن يَدٍ وهُمْ صاغرون — التوبة ٢٩) فالإسلام حريص على أن يكون لكل مسلم صفة المقاتل ، حتى إنه ليكفر منَ دعى للجهاد فلم يلب (ليعلَمَ الذينَ نافقوا وقيل لهم تَعالَوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعُوا . قالوا لو نَعْلَمُ قتالا لاتَّبَعْنَاكُمْ . هم للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان — آل عمران ١٦٧).

وليس من شك فى أن الإسلام قد حث على الرحمة والإحسان والعفو فى أكثر من موضع ، ولكنه طلب من المسلم أن يكون قويا أولا ، قادرا على أن يدفع عن نفسه أويقتص ممن يعتدى عليه ، وله بعد ذلك أن يعفو إن شاء . فالرحمة لا تعرف الطريق إلى قلب الضعيف الخائر ، والعفو والإحسان لا تحتويهما نفس الجبان . فرحمة الضعيف ذلة ومهانة ، وعفوه وإحسانه ضراعة واستكانة .

(فما أُوتيتُمْ من شيءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا . وما عِندَ الله خَيْرٌ وأبْقَى للذين آمنوا وعلى ربهم يَتَوكَّلُون ، والذين يَجْتَنِبُون كبائرَ الإثْم والفَوَاحِش وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرُون ، . . . . . . والذين إذا أصابَهُم البَغْيُ هم يَنْتَصِرُون . وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها . فمن عفا وأصلحَ فأجْرُهُ على الله . إنه لا يُحِبُّ الظالمين . ولَمَنِ انتصَرَ من

بعد ظُلْمِهِ فأولئك ما عَلَيْهِمْ مِنْ سبيل . إنما السَّبِيلُ على الذين يَظْلِمُونَ الناسَ وَيَبْغُونَ فى الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذابٌ أليم . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذلك لمِنْ عَزْمِ الأمُور — شورى ٣٦) إلى ٤٣) وقد أعلى الإسلام من قدر الذين يموتون فى الحروب دفاعا عن الدعوة ، فسماهم الشهداء ، وقال فيهم (ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فى سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُون) قال صاحب العقد : وكانوا يتمادحون بالموت قطعا ، ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون (مات فلان حَتْفَ أَنْفه) ، وأول من قال ذلك النبى صلى الله عليه وسلم (١) وروى صاحب العقد أن النابغة الجعدى أنشد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته .

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وجُدُودُنا ... وإنَّا لنرْجُو فَوْقَ ذلك مَظْهَرا

فلما وصل إلى قوله :

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكن له ... بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا

قال له النبى صلى الله عليه وسلم (لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ) (٢) .

كل ذلك يصور بجلاء أن المثل الأسلامية قد ظلت — إلى حد كبير — تعتمد على القوة كما كانت فى الجاهلية ، ونستطيع أن نقول إن الإسلام لم يكن له أثر كبير فى تطور فن الهجاء أو غيره من فنون الشعر . فالعرب — فى معظمهم — لم يدخلوا فى الإسلام عن إيمان واقتناع ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، فدانوا للغالب كارهين . وقد صور القرآن حال البدو منهم — وهم الكثرة الغالبة — (قالت الأعراب آمنا . قُلْ لم تُؤْمِنُوا ، ولكنْ قولوا أسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الأيمَانُ فى قُلُوبِكُم) وما هو إلا

---

(١) العقد الفريد ١ : ٨١ .

(٢) العقد الفريد ١ : ٨٦ . الفض الكسر . يدعو له بأن تسلم له أسنانه ، ليسلم له النطق ويظل على براعته فى الخطابة . وهو دعاء شبيه بما نقوله الآن إذا أعجبنا كلام (يسلم فمك)

أن مات النبى . حتى ارتد العرب ، ونزعوا الإسلام من أعناقهم ، حتى احتاج أبو بكر إلى أن يجاهد فى نشر الدعوة من جديد .

ونحن لا نغض من الإسلام أو تعاليمه ، حين نقرر هذه الحقيقة . فذلك شأن حركات الإصلاح الكبيرة التى تسبق زمانها ، وشأن العباقرة الأفذاذ من المصلحين ، الذين يعظم الفارق بينهم وبين أهل عصرهم . وليس على المصلح من حرج فى أن يحمل الناس على مذهبه حملا ، ويسوقهم إليه سوقا . بل إن واجبه ، وإيمانه العميق برسالته ليقتضيه ذلك ويوجبه عليه . فالمجتمع فى حال جهله سفيه محدود النظر والتفكير ، والمصلح كالأب الذى يقسو بدافع من الرحمة ، ويزجر ليحمل على الصواب . وإن الناس ليقاومون المصلحين فى أول أمرهم ، فإذا مضت الأعوام . وتهيأت عقولهم لفهم دعوتهم . وأشربتها قلوبهم ، فتنوا بها وبصاحبها ، وعجبوا لموقفهم فى حال جهلهم وضلالتهم .

لم يفهم العرب من النبوة إلا أنها نوع من الملك ، ومحاولة بسط السلطان ، وفرض الطاعة على الناس . ولم يفرقوا بين الزكاة التى كان يجمعها النبى من المسلمين ، وبين الإتاوة التى كان يجبيها ولاة اليمن أو الفرس . فقد كان أول مظهر من مظاهر الإسـلام أن يرسل النبى مع الوفد الذى يقدم للمبايعة عاملا لجمع الزكاة . وكان أول مظهر من مظاهر الارتداد عن الإسلام بعد وفاة النبى امتناع العرب عن أداء الزكاة . وقد ظل عبد الله بن أُبىّ طول حياته على بغض النبى ، والكيد له ، والحسد لما نال من مكان فى قلوب الناس ، لأنه كان يراه ملكا غلبه على قومه ، وسلبه مكانه منهم ، وكانوا قد هموا — فيما يروى الرواة — أن يتوجوه قبل مقدم النبى [١] وكان اليهود يسمون النبى ملك الحجاز [٢] . وأبو سفيان بن حرب يقول للعباس ، وقد عرضت عليه جيوش المسلمين يوم الفتح : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك

---

(١) السيرة ٢ : ٢٣٤

(٢) السيرة ٣ : ٣٥١

ابن أخيك الغَدَاةَ عظيما . فيراجعه العباس قائلا : إنها النبوة يا أبا سفيان . فيجيب ممارياً : فنعَمْ إذَنْ (١) وقد بعثه الرسول بعد ذلك مع المغيرة بن شعبة ليهدم اللات ، فهاب أن يفعل ذلك بيده ، وقدم المغيرة قائلا : ادخل أنت على قومك (٢) ولم يكن إسلام ثقيف اقتناعا بصحة الإسلام ولا حبا فيه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، ورأوا أن الدعوة قد انتشرت فى الجزيرة ، وأخذتهم من كل مكان ، فلم يعد لهم طاقة بدفعها أو جهادها . وهم إذا قدموا على النبي أبوا أن يحيوه إلا بتحية الجاهلية . ثم هم يقيمون فى قبة بعيدا عن النبي ، ويمشى بينهم خالد بن سعيد بن العاص حتى يكتبوا كتابهم . وهم لا يأكلون من طعام يُقَدَّمُ إليهم حتى يأكل منه خالد . وهم يسألون الرسول أن يدع لهم الطاغيه — وهى اللات — لا يهدمها ثلاث سنين ، فيأبى الرسول عليهم ذلك. ويستعفونه من كسر أوثانهم بأيديهم ومن الصلاة ، فلا يقبل منهم شيئا من ذلك . حتى إذا ضاقت بهم السبل ، ولم يروا إلا النزول على ما يريد ، قالوا له : يا محمد ! سنؤتيكها وإن كانت دناءة . (٣) ولما قدم وفد بنى عامر على النبي ، اشترطوا لنصرته أن يكون لهم الأمر من بعده (٤). ولم تكن تميم أصلح حالا من ثقيف أو بنى عامر ، فقد قدم وفدهم على النبي مفاخرا منافرا ، ثم أسلموا حين نفر عليهم النبي بشاعره وخطيبه . (٥) ولم تكن قصيدة حسان التى نفر عليهم بها إلا مدحا على طريقة الجاهليين :

قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدُوَّهُمُ ... أوحاولوا النَّفْعَ من أشياعِهِمْ نفعوا

لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكفُّهُمُ ... عند الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

إن سابقوا الناسَ يوماً فازَ سَبْقُهُمُ ... أووازَنُوا أهلَ مَجْدٍ بالنَّدَى مَتَعُوا

(١) السيرة ٤ : ٤٧
(٢) السيرة ٤ : ١٨٦
(٣) السيرة ٤ : ١٨٤
(٤) السيرة ٢ : ٦٦
(٥) السيرة ٤ : ٢١٠ ، ابن الأثير ٢ : ١٩٥

لا يَبْخَلُون على جارٍ بفضلهم ولا يمسُّهمُ في مَطمع طَبَعُ

وقد كانت الشعراء تمدح النبي بما تمدح به الملوك والسادة، من الشجاعة والوفاء، والبطش بالأعداء، وسعة العطاء. يمدحه أنس بن زنيم بن مالك فيقول (١).

وما حَملَتْ من ناقةٍ فوق رَحْلِها أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمد
أَحثَّ على خيرٍ وأسبغَ نائلاً إذا راح كالسيف الصقيل المُهنَّد
وأكسى لبُرْدِ الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابح المتجرِّد

ويمدحه مالك بن عوف فيقول (٢):

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناسُ كلِّهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا أجتُدِي ومتى تَشَأ يُخْبِرْكَ عمّا في غد
وإذا الكتيبةُ عرَّدَتْ أنيابها بالسمهرى وضَرْب كل مهنَّد
فكأنه ليثٌ على أشباله وسْطَ الهَباءَةِ خادرٌ في مَرصد

فالإخبار عما في غد هو كل ما يفهمه من النبوة .

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لاتختلف كثيراً عن قصائد النابغة في الاعتذار . يقول فيها :

لقد أقوم مَقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمَعُ الفيل
لظل يُرعَدُ إلا أن يكونَ له من الرسول بإذن الله تَنْويلُ (٣)
حتى وضَعْتُ يمينى لا أُنازعه في كَفِّ ذى نَقَماتٍ قيلُه القيل
فلهو أخْوَفُ عندى إذ أكلّمه وقيل إنك مَنْسُوبٌ ومسئول (٤)

---

(١) السيرة ٤ : ٦٩ (٢) السيرة ٤ : ١٣٤

(٣) يقول إن الفيل على ضخامته لو قام مقامه لظل يرتعد خوفا حتى يكون له باذن الله تأمين من الرسول يسكن روعه .

(٤) منسوب إلى أمور صدرت منه ومسئول عنها .

مِن ضَيْغمٍ بضراءِ الأرضِ مُخدرُه ... ببطنِ مكةَ غيلٌ دونه غِيل (١)
يغدو فيُلحِم ضِرغامَين عيشُهما ... لحمٌ من الناسِ معفورٌ خراديل (٢)
إذا يُساوِرُ قِرناً لا يحِلُّ له ... أن يترُكَ القِرنَ إلا وهو مفلول (٣)
منه تظل سِباعُ الجوِّ نافرةً ... ولا تمشّى بواديهِ الأراجيل (٤)
ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ ... مُضرَّجُ البزِّ والدُّرسانِ مأكول (٥)
فى عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

وليس صحيحا ما يقال من أن العصبية الجاهلية قد سكتت فى حياة النبي إلى حين، ثم استؤنف بعد موته، فالواقع أن العصبية قد استمرت حادة عنيفة فى حياة النبي وبعد موته، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، قد استطاع بحكمته وحسن تدبيره، أن يتفادى شرورها، ويحسن استغلالها لصالح الدعوة، ويحولها فى بعض الأحيان إلى تنافس فى السبق إلى تدعيم الدين الجديد ونصرته، والأدلة على ذلك كثيرة فى كتب السيرة :

نهى النبي أصحابه فى وقعة أحد أن يقتلوا بنى هاشم، ونهاهم أن يقتلوا عمه العباس، فقال رجل من الانصار اسمه أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لا لحمنّه السيف. وبلغ قوله النبي، فدعا إليه عمر وقال : يا أبا حفص ! أيُضرَبُ وجهُ عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف

(١) ضيغم أسد. ضراء الأرض الأرض التى فيها شجر. المخدر غابة الأسد. عثر مكان مشهور بكثرة السباع. الغيل الشجر الملتف.

(٢) يغدو يخرج أول النهار فى طلب الصيد. يلحم يطعم أشباله اللحم. الضرغامين يقصد بها شبلية. معفور ملقى فى التراب. وصفه بذلك لكثرته وعدم اكتراثه به لشبعه. خراديل قطع صغار.

(٣) يساور يواثب. مفلول مكسور مظلوم.

(٤) الأراجيل الجماعة من الرجال. وهى جمع أرجال. وأرجال جمع رجل ورجل اسم جمع لراجل.

(٥) أخو ثقة الشجاع الواثق بشجاعته. البز السلاح. الدرسان بضم الدال أخلاق الثياب جمع دريس.

فقد نافق (١) والعباس عم النبي قد حزن واكتأب حين أشاع الناس فى مكة أن النبي غُلِبَ فى فتح جُنَيْد وأسر ، وإنما حزن عصبية لابن أخيه ، لأنه كان وقتذاك على شركه لم يسلم (٢) . ثم هو بعد ذلك يجير أباسفيان يوم الفتح ، ويغضب له ، حين يلح عمر فى قتله ، فيرد عليه قائلا : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من بنى عَدِىٍّ بن كعبٍ ما قلت هذا ، ولـكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف (٣) . وأجار كثير من المسلمين بعض أقربائهم من أهل مكة يوم الفتح (٤) . واحتمى معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بعثمان ابن عَفان فى المدينة بعد وقعة أحد ، فجهزه بعد أن سأل رسول الله فيه (٥) . ولقى ضرار بن الخطاب يوم أحد عمر بن الخطاب ، فى الجولة التى جالها المسلمون ، وكان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فضربه بعارضة سيفه وقال انج يابن الخطاب لاأقتُلنك (٦) .

وأمر النبي سعد بن عبادة فى فتح مكة أن يدخل ببعض الناس فى كداء ، فسمعه بعض المهاجرين يقول وقد مضى لوجهه : اليومَ يومُ المَلْحَمَة . اليَوْمَ تُستَحَلُّ الحُرْمَة . ! فذهب بها إلى رسول الله ، وشكا إليه خوفه على أهل مكة منه ، فعزل النبي سعد بن عبادة ، وولى مكانه عليا (٧) ودخل خالد بن الوليد على بنى جذيمة (من كنانة) بعد الفتح ، فنال منهم بغير إذن النبي ، وكان قد بعثه داعيا للإسلام ، ولم يأمره بقتال . وإنما قتلهم بثأر قديم لعمه الفاكه بن المغيرة . وقد برىء رسول الله من عمله ، واستقبل القبلة قائما شاهرا يديه يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد . وأرسل عليا لتلافى الأمر ، ومعه ديات القتلى ، وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم ، وانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك (٨) .

---

(١) السيرة ٢ : ٢٨١

(٢) السيره ٢ : ٣٦١

(٣) السيرة ٤ : ٤٥

(٤) السيرة ٤ : ٥٣

(٥) إمتاع الأسماع ١ : ١٦٦

(٦) ابن سلام : ٩٨

(٧) السيرة ٤ : ٤٩

(٨) السيرة ٤ : ٧٢

وقد ظل التنافس قائما بين المهاجرين والأنصار قبل الفتح وبعده . ولم يزل حسان يفتخر فى شعره بقومه ، وبنصرهم الرسول ، وبأيامهم معه ، ومجدهم قبل ذلك فى جاهليتهم ، فلما نال من قريش حين قال :

أمسىَ الجلابيبُ قد عزُّوا وقد كَثُرُوا
وابنُ الفُرَيْعَة أضحى بَيْضةَ البَلَد

انطلق إليه صفوان بن المُعَطَّل وجُعَيْلُ بن سُراقة ، فضربه صفوان حتى كاد يقتله . واشتكى حسان إلى النبى ، فأمر بحبس صفوان ، وأن يُقاد بحسان إن مات . ثم مشى سعد بن عبادة بين قومه حتى عفوا عنه ، تقربا إلى النبى[١] وخاصم المسلمون كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك ، فظل خمسين يوما لا يكلمه منهم أحد . فلما تاب الله عليه ورُد إليه اعتباره ، لم يقم إليه من المهاجرين مهنئا إلا طلحة بن عبيد الله[٢] وظهرت آثار هذا التنافس واضحة بعد موت النبى ، فى انحياز الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، وانحياز المهاجرين إلى أبى بكر[٥] . وأرسل ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى فى طلب حسان ليناشداه ويذاكراه ، فظلا ينشدانه ، حتى إذا غلا كالمرجل ، قعدا على رواحهما . فشكاهما حسّان إلى عمر ، فردهما عليه ، وأمره أن ينشدهما مثل ما أنشداه[٦] . وروى صاحب العقد أن رجلا من اليمن دخل الكوفة ، فأتى المسجد ، فإذا عَمّار بن ياسر ، ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص ، وهو يقول — أَلْصِقْ بالعَجُوزَيْن . فقال له اليمنى : سبحان الله ! أتقول هذا وأنتم أصحاب الرسول ؟ قال : إن شئت فاجلس ، وإن شئت فاذهب . فجلس الرجل . فقال : أتدرى ما كان يقول لنا رسول الله لما هجانا أهل مكة ؟ فقال : لا أدرى . قال : كان يقول لنا « قولوا لهم مثل ما يقولون لكم »[٧] .

---

(٣) إمتاع الأسماع ١ : ٢١١
(٤) السيرة ٤ : ١٨٠
(٥) السيرة ٤ : ٣٠٦
(٦) ابن سلام ٩٤
(٧) العقد الفريد ٦ : ١٤٦

كل هذا يثبت بشكل قاطع ، أن النزعة العصبية لم تفتر بظهور الإسلام ولم تضعف ، بل استمرت حاده عنيفة ، وإنما ضبطها ومنعها أن تشذ فتفسد الدعوة ، شخصية النبي القوية ، وبعد نظره ، وحسن تدبيره للأمور .

وقد أثار الإسلام فى العرب حركة فكرية عنيفة لا عهد لهم بمثلها ، وصور القرآن جانبا منها فيما روى من حِجاج الكفار ورده عليهم . كان النضر بن الحارث إذا جلس رسول الله فى مجلس ، فذكَّر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسبنديار — وكان قد قدم الحيرة فتعلمها بها — ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟[1] وجلس رسول الله يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير واحد من قريش ، فتكلم رسول الله ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم (إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لو كان هؤلاء آلِهَةً ما وَرَدُوهَا . وكُلٌّ فيها خالدون . لهم فيها زَفِيرٌ وهُمْ فيها لايسمعون) ثم قام رسول الله ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعرى :أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا ، أكُلٌّ مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ! فعجب الوليد ومن كان فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم[2] .

---

(١) السيرة ١ : ٣٢١ (٢) السيرة ١ : ٣٨٤

وقد أدرك النبي قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما تترك من أثر فى نفوس الناس ، فنظم الدعاية حول الدين ، وعنى بالرد على شعراء قريش ، نادبا لذلك بعض الشعراء من المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين فى نشر الدعوة ، كما يقول حسان :

لنـا فى كل يوم من مَعَـــدٍ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجـــاء
فنُحكِم بالقوافى من هجـــانا ونَضرِبُ حين تختلِط الدماء

كان النبي يختار الشعراء الذين يذودون عن الدعوة بنفسه . نادى عبد الله ابن رواحة فقال له : كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين ! فقال قصيدته (١).

فخَبِّرُونِيَ أثْمَانَ العَبَاءِ متى كُنْتُمْ بَطارِيقَ أو دَانتْ لكمْ مُضَرُ؟

ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب ، قال رسول الله صلى عليه وسلم . إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى، ويهجونكم، فمن يحمى أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال: أنا.فقال: إنك لحسن الشعر . ثم قام كعب فقال :أنا . فقال : وإنك لحسن الشعر (٢) . وروى عن النبي أنه قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال : وأحسن ، وأمرت حسان فشَفَى واشْتَفَى (٣) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب كعب بن مالك ، فخرج فأنشده ، ثم قال : إيه ! فأنشده . ثم قال : إيه ! فأنشدة . ثلاث مرات . فقال رسول الله : هـذا أشدُّ عليهم من وقع النبل (٤) .

وقد قام النبي بنفسه على الشعر يشرف عليه ويصلحه . قال لكعب بن مالك فى قصيدته (مُجَالَدُنا عَنْ جِذْمِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ) أيصلح أن

(١) ابن سلام ٨٧
(٢) الأغانى ١٥ : ٣٠
(٣) الأغانى ١٥ : ٢٩٠
(٤) الآغانى ١٥ : ٣٠

تقول (مُجَالَدُنا عن دِينِنا) قال : نعم . فقال الرسول : فهو أحسن [١] . وعلم ما يحدث شعر الكفار من أثر فى نفوس المسلمين إذا تكرر سماعهم له، فنهاهم عن الجلوس إليهم والاستماع لقولهم (وإذا رأيتَ الذين يَخُوضُونَ فى آياتنا فأعرضْ عنهم حتى يَخُوضُوا فى حديثٍ غَيْرِه . وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فلا تَقْعُدْ بعد الذِكْرَى مع القَوْمِ الظالمين — الأنعام ٦٨) وأبطل رواية بعض الشعر . قال صاحب الخزانة إن النبى نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت :

(ماذا بِبَدْرٍ فالعَقَنْقَلِ من مَرَازِبَة جَحَاجِح)

التى يحرض فيها قريشا بعد وقعة بدر [٢] .وقد رواها ابن هشام ، وأولها.

ألا بَكَيْتَ على الكِرَام بنى الكِرَام أولى المَمَادِحْ .

وقال فى آخرها : تركنا منها بيتين ، نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] . ونهى عن رواية الشعر الذى هُجِى به أصحابهُ . قال صاحب الخزانة بعد أن روى أبياتا من قصيدة الأعشى :

شاقتك من قَتْلَةَ أطلالها ∴ بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حَاجِرِ

وهى التى يهجو فيها علقمة بن علاثة ، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل ، فى المنافرة المشهورة التى كانت بينهما . قال بعد أن روى من القصيدة أبياتا : وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة ، ولهذا لم أذكرها كلها [٤] . وأهدر النبى صلى الله عليه وسلم دم بعض الهجائين من المشركين ، فمن أمر بقتله عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، كانت تعيب الإسلام وتحرض على النبى ، وتقول فى ذلك شعرا ، قتلها عمير بن عدى بن

(١) السيرة ٣ : ١٤٣ ، الأغانى ١٥ : ٣٠
(٣) خزانة الأدب ١ : ١٨٢
(٣) السيرة ٣ : ٢١
(٤) خزانة الأدب ٢ : ٣٦٦

خرشة [١] وكذلك أبو عفك اليهودى ، قتله سالم بن عمير بن ثابت [٢] ، وكعب بن الأشرف اليهودى ، كان يهجو النبي وأصحابه ، ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ، ثم خرج إلى مكة بعد بدر ، فجعل يرثى قتلى بدر ، ويحرض قريشا ، وعاد إلى المدينة ، فقال النبي : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ، فى إعلانه الشر ، وقوله الأشعار . ثم قال : من لى با ابن الأشرف ، فقد آذانى ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا به يا رسول الله ، وأنا أقتله . قال : فافعل [٣] . ولما جاءت اليهود للنبي تشكو قتله ، قال لهم ، لو فرّ كما قد فر غيرُه ممن هو على مثـــل رأيه ما اغتيل ، ولـكنه نال منا الأذى ، وهجانا بالشعر ، ولم يفعل ذلك أحد منكم إلا كان السيف [٤] .

وكان ممن أمر الرسول بقتله عند الفتح عبد الله بن خطل ، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما معا ، فقتلت إحداهما ، وفرت الأخرى حتى استؤمن لها النبي فأمنها [٥] . ولم يقف تشجيع النبي للحركة الأدبية عند الشعراء ، بل تعداهم إلى الخطباء . قال الجاحظ يُـعَـدّ من الخطباء من الأنصار ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي [٦] . وهو الذى تولى الرد على خطيب تميم حين قدموا على النبي يفاخرونه [٧] .

وقد كان أثر هذه العناية بالدعاية للدين واضحا فى نمو فن الهجاء وعنفه ، ولـكنه لم يترك أثرا واضحا فى أسلوب هذا الفن ، فقد ظل كما كان جاهليا فى صميمه ، معتمدا على الأنساب ، والتعيير يضعف العصبية ، وخمول الذكر ، والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للمهاجمين من الأعداء ، والقعود عن

---

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٢ ، السيرة ٤ : ٢٨٦
(٢) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٣
(٣) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٨
(٤) إمتاع الأسماع ١ : ١١٠
(٥) السيرة ٤ : ٥٢ ، العمدة ١ : ١٠
(٦) البيان والتبيين ١ : ٢٣
(٧) السيرة ٤ : ٢٠٧

الثأر ، إلى أمثال هذه الخصال التى تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر بالمثل الدينية الجديدة فى قليل أو كثير . ولم يحرص النبى على توجيه الهجاء هذه الوجهة الجديدة ، فهو يدل حسان على أبى بكر ، ليعينه فى أنساب قريش ، ويدله على عوراتهم . وهو يقول لشعراء المسلمين : قولوا لهم مثل مايقولون لكم . [1] ذلك لأنه قصد إلى التأثير فى الجماهير ، ولم يكن التعيير بالشرك ، وعبادة مالا يعقل ، ومخالفة الخلق القويم ، ليصنع فى هذا المقام شيئا ، فالهجاء فن يعتمد على الواقع ، وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما يتصورها العصر . قال صاحب الأغانى . كان يهجو قريشا ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم ، حسان بن ثابت ، وكعب من مالك ، وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر . فكانوا فى ذلك الزمان أشدَّ شيء عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام . كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة . [2] والواقع أننا لا نظفر بالهجاء الدينى بالمعنى الدقيق إلا فى القرآن .

ونحن لا نأتى بجديد ولا ندعى شيئا خطيرا ، حين نقول إن فى القرآن هجاء . فالعرب أنفسهم نظروا للآيات التى تعرضت لهم ولآلهتهم بالتسفيه على أنها هجاء . روى صاحب السيرة أن أم جميل بنت حرب بن أمية قصدت إلى رسول الله ، حين نزل قوله تعالى (تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبّ . ما أَغْنَى عنهُ مَالُهُ وما كَسَبَ . سَيَصلَى نَاراً ذاتَ لَهَبٍ . وامرأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَب ، فى جِيدِهَا حَبْلٌ من مَسَدَ) فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهْرِ فاه .

---

(١) العقد الفريد ٦ : ١٤٥

(٢) الأغانى ١٥ : ٢٩

أما والله إنى لشاعرة ، ثم قالت : مذمّماً عصَينا . وأمره أبَيْنا . ودِينه قَلَيْنا . ثم انصرفت [١] .

وقال صاحب العقد : قال الله تبارك وتعالى فى هجو المشركين (والشُّعَراءُ يتَّبِعُهُم الغاوون . ألم ترَ أنَّهُمْ فى كلِّ وادٍ يَهِيمون ، وأنَّهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتَصروا من بعدما ظُلِموا . وسَيعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون .) فأرخص الله للشعراء بهذه الآية فى هجائهم لمن تعرض لهم [٢] .

وروى صاحب السيرة أن سورة براءة ، كانت تسمى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبعده المُبَعْثِرَة ، لما كشفت من سرائر الناس [٣] .

نقول إن الهجاء الذى لازم الدعوة قد ظل معتمدا على المثل الجاهلية ، وأن الهجاء فى القرآن هو وحده الذى يقوم على مثل دينية إسلامية . فهو لا يهدد الكفار بغارة تسيل فيها الدماء ، وتسبى فيها النساء ، ولا يخوفهم بشعر شرود ، يتحدث به الركبان ، ويذيع فى كل مكان ، ولكنه ينذرهم نارا وسعيرا ، وعذابا أليما ، وألوانا من النكال ، تنتظرهم حين ينقلبون إلى ربهم . وهو لا يعيرهم الضعف والفقر وخمول الأحساب ، ولكنه يعيرهم الكفر والضلال وقصر النظر وانطماس البصيرة .

فمما هُجِىَ به عبد الله بن أبى بن سلول وصحبه من المنافقين ، وكان رأسهم إليه يجتمعون ، وكانوا يدسون إلى بنى النَّضير حين حاصرهم رسول الله ، أن اثبتوا وتمنعوا فإنَّا لا نُسلِمُكم :

(إذا جاءَكَ المنافقون قالوا نَشْهَد إنَّكَ لرَسولُ الله ، واللهُ يعلم إنك لرَسولهُ ، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيْمانَهم جُنَّة

---

(١) السيرة ١ : ٣٨١
(٢) العقد الفريد ٦ : ١٤٥
(٣) السيرة ٤ : ١٩٩

فَصَدُّوا عن سبيل الله (١) ، إنهم سَاءَ ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كَفَرُوا فَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون (٢) . وإذا رأيتهم تُعجبُك أجسامُهُمْ ، وإن يقولوا تَسْمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدة ، يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحة عليهم ، هم العَدُوُّ فاحذَرْهُم ، قاتَلَهُم الله أنَّى يُؤْفَكُون . وإذا قيل لهم تَعَالَوا يستغْفِرْ لكم رسولُ الله لوَّوْا رءوسهم ، ورأيتهم يَصُدُّون وهم مستكبرون . سَوَاءٌ عليهم أسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفر لهم ، لَنْ يغفرَ اللهُ لَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى القومَ الفاسقين . هم الذين يقولون لا تُنْفقوا على مَنْ عِنْدَ رسولِ الله حتى يَنْفَضُّوا ، ولله خزائنُ السماوات والأرض ، ولكنَّ المنافقين لا يفقهون . يقولون لئنْ رَجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل (٣) ، ولله العِزةُ ولِرَسُوله ولِلْمُؤمنين ، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون (سورة المنافقون ١ — ٨) .

* * *

ومما هُجى به المنافقون من الأوس والخزرج :

(ومِنَ الناس من يقول آمَنّا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين . يُخَادعون اللهَ والذين آمنوا وما يَخْدَعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مَرَضٌ فزادهم اللهُ مرضا (٤) ، ولهم عَذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تُفْسِدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ،

(١) أى اتخذوا شهادتهم للرسول بالرسالة وقاية لهم من القتل والأسر . يحلفون لك لتصدقهم .

(٢) الطبع الختم . طبع على قلوبهم أى ختم عليها . يصور قلوبهم فى عدم قبولها للنصح كأنها قد أغلقت وختم عليها ، حتى ما ينفذ إليها شىء .

(٣) قال ذلك عبد الله بن أبى بن سلول فى غزوة بنى المصطلق .

(٤) فى قلوبهم مرض . صور الشك الذى فى قلوبهم مرضاً .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١) . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٢) . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (٣) ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٤) ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (٥) . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — بقرة ٨ — ٢٠) .

* * *

ومما هجى به أهل النفاق فى يوم الخندق :

---

(١) وإذا خلوا إلى شياطينهم . يقصد بالشياطين أنصار هؤلاء المنافقين من اليهود .

(٢) يعمهون أى يتحيرون والعمه الحيرة .

(٣) أى لا يبصرون الحق . يشبههم بالذى يوقد النار ليهتدى بها ، فلما أضاءت النار عمى هو ، فلم يستفد من ضوئها . وإنما يهتدى بها المبصرون .

(٤) صم بكم عمى عن الخير . فهم لا يرجعون إلى الهدى .

(٥) الصيب المطر من صاب يصوب مثل السيد من ساد يسود والميت من مات يموت . هذا مثل آخر صور به حالهم فى كفرهم وحيرتهم وخوفهم من أن ينكشف أمرهم للمسلمين فيقتلوهم . فهم كالذى يخبط فى هذا الجو المخيف وقد أظلمت السماء وأرعدت وأبرقت . فانكمش واضعاً أصابعه فى أذنيه لا يدرى أين يذهب ، لايكاد يلمع البرق فيسير فى ضوئه خطوة أو خطوتين ،حتى يعود الجو إلى حلكته الشديدة وظلامه المطبق ، فيقف فى مكانه حائراً متخوفا .

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ، إذ جاءتكم جُنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودًا لم تَرَوْها ، وكان اللهُ بما تعملون بصيرا [١] . إذ جاءوكم من فَوْقِكُمْ ومن أسْفَلَ منكم [٢] ، وإذْ زاغَت الأبصار ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونا . هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلوا زِلْزالاً شديدا [٣] . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ : ما وَعَدَنا اللهُ ورسوله إلا غُرورا . وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يَثْرِبَ لامُقَامَ لكم فارجعوا . ويَسْتأْذِنُ فريقٌ منهم النبيَّ ، يقولون إن بيوتنا عَوْرةٌ ، وماهي بعَوْرَة ، إنْ يُريدُونَ إلا فِرَارا [٤] . ولو دُخِلَتْ عليهم مِنْ أقطارِها ثم سُئِلُوا الفتنةَ لأتَوْها ، وما تَلَبَّثُوا بها إلا يسيرا [٥] . ولقد كانوا عاهدوا الله من قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأدْبار ، وكان عهدُ اللهِ مَسئولا . قُلْ لن يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُم من المَوْت أو القَتْل ، وإذًا لا تُمَتَّعُون إلا قليلا . قُلْ مَن ذا الذى يَعصِمُكم من الله إن أرادَ بكم سُوءًا أو أرَادَ بكم رحمة ؟ ولا يَجدون

(١) الجنود قريش وغطفان وبنو قريظه . قريش وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد يهاجمون المدينة من جهة ، ويهود بنى قريظة وقد نقضوا عهدهم مع الرسول يريدون اغتنام الفرصة للقضاء عليه يهاجمونه من جهة أخرى .

(٢) الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان .

(٣) ابتلى المؤمنون امتحن صبرهم وثباتهم . وذلك أن الأمر قد أشتد على المسلمين بخيانة اليهود لهم وحصار عدوهم لبلدهم ، ووقوعهم بذلك بين بلاءين ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، وهم الرسول أن يصالح بنى غطفان على ثلث ثمار المدينة لولا اعتراض سعد بن معاذ . وعظم بذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وتزعزع إيمان الناس . وظهر النفاق ، حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأ كل كنوز كسرى وقيصر . وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب للغائط) .

(٤) يصور بذلك تزعزع الايمان فى قلوب المنافقين والمرتابين ، الذين أخذوا يثبطون الناس ، ويستأذنون النبى فى الرجوع إلى بيوتهم لحمايتها . زاعمين أن أهلهم معرضون العدو .

(٥) الأقطار الجوانب واحدها قطر . رلو سئلوا الفتنة أى الرجوع إلى الشرك .

لهم من دون الله وَلِيًّا ولا نصيرا . قد يَعلَمُ اللهُ المُعَوِّقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ، ولا يَأتُونَ البَأسَ إلا قليلا (١) . أشحَّةً عليكم ، فإذا جاءَ الخوفُ رأيتَهم يَنظُرونَ إليك تَدُورُ أعيُنُهم كالذى يُغشَى عليه من الموت (٢) فإذا ذهَبَ الخَوفُ سَلَقُوكم بألسِنَةٍ حِدادٍ ، أشحةً على الخَير. أولئك لم يُؤمِنُوا فأحبط اللهُ أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ، يَحسَبُون الأحزاب لم يذهبوا (٣) ، وإن يَأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لو أنهم بَادُونَ فى الأعرَابِ يَسألُون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا — الأحزاب ٩ إلى ٢٠) .

* * *

ومما هجى به اليهود فى إعراضهم عن النبي ، وكانوا يتحدثون قبل ذلك بأن نبيا يُبعَث ، قد حان وقته ، فلما جاء كفروا به . وهم هنا يُعَيَّرون عبادتهم العِجل بعد أن جاءهم نبيهم موسى بالبينات ، ثم قتلهم عيسى بعد ذلك ، ثم مخالفتَهم دينهم ، فى تَحَزُّبِ فريقٍ منهم للأوس ، وتحزب فريق آخر للخزرج . فهم يقاتلون معهم فى حروبهم ، فيسفكون بينهم دماءهم ، ويخرج بعضهم البعض من ديارهم ، وقد حُرِّم عليهم ذلك فى كتابهم :

(أفَتَطمَعُون أن يُؤمِنُوا لكم ، وقد كان فَريقٌ منهم يَسمَعُون كلامَ الله ، ثم يحرفونه من بَعدِ ما عَقَلُوه ، وهُمْ يَعلَمُون (٤) ! وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمَنَّا ، وإذا خلا بعضُهم إلى بَعضٍ ، قالوا

---

(١) البأس القتال . لا يأتون البأس إلا قليلا يحاربون بغير نية صادقة ، إقامة للعذر عند من يراهم .

(٢) يخافون الموت لضعف إيمانهم ولأنهم لا يوقنون بالجنة وبثواب الشهداء .

(٣) الأحزاب هم المهاجمون من قريش وغطفان . انهزموا وتفرق شملهم ، ولكن هؤلاء المنافقين يتصوورون أنهم لا يزالون قائمين لشدة ذعرهم . وشبيه بذلك قول جرير :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم ... خيلا تكر عليكم ورجالا

(٤) يسمعون كلام الله ثم يحرفونه يعنى التوراة التى نزلت على قوم موسى .

أتُحَدِّثُونَهُم بما فَتَحَ اللهُ عليكم لِيُحاجُّوكُمْ به عند رَبِّكُم ؟ أفلا تَعْقِلُون ؟ أولا يَعْلَمُون أن اللهَ يعلَمُ ما يُسِرُّونَ ، وما يُعلِنون ! ومنهم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ امانِىَّ ، وإن هُمْ إلا يَظنُّون (١) . فَوَيلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عِندِ الله ، لِيَشْتَروا به ثمناً قليلا ، فويلٌ لهم مما كَتَبَتْ أيديهم ، وَوَيلٌ لهم مما يَكسِبُون . وقالوا لن تَمَسَّنَا النارُ إلا أياماً معدودة . قل أتَّخَذْتُم عند الله عَهداً فلن يُخلف اللهُ عهده ؟ أم تقولون على الله مالا تَعْلَمُون (٢) ؟ بَلَىَ ! من كَسَبَ سيئةً وأحاطَتْ به خَطِيئَتُهُ فأولئك أصحابُ النارِ ، هُمْ فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئك أصحابُ الجَنَّة ، هُمْ فيها خالدون .

وإذ أخَذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل ، لا تَعْبُدُونَ إلا اللهَ ، وبالوالدَيْنِ إحساناً ، وذِى القُرْبَى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناسِ حُسْناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم تولَّيْتُمْ إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون. وإذ أخَذْنا ميثاقَكُم لاتَسْفِكُون دِماءَكم ، ولاتُخرِجُون أنفسَكُمْ من دِيارِكُمْ ، ثمَّ أقرَرْتُمْ وأنتم تَشهَدُون . ثم أنتم هؤلاء تَقْتُلون أنفسَكم ، وتُخرجُون فريقاً منكم من ديارهم ، تَظاهَرون عليهم بالإثم والعُدْوان ، وإن يأتُوكُمْ أسَارَى تُفَادُوهُم ، وهُوَ محرَّمٌ علَيْكُمْ إخْراجُهُمْ . أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتابِ وتَكْفُرُون .

(١) لا يعلمون الكتاب إلى أمانى : إلا قراءة . يقول إنهم لا يعلمون الكتاب الا أنهم يقرءونه . فعلمهم به ظن وليس يقينا .

(٢) كان اليهود يقولون إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة . وإنما يعذب الله الناس بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحدا فى النار من أيام الآخرة ، وانما هى سبعة أيام ثم ينقطع العذاب .

ببعض (١)؟ فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلكَ منكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب، وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا هم يُنْصَرون. ولقد آتينا موسى الكتاب، وقَفَّيْنا من بَعْدِه بالرُّسل، وآتينا عيسى بنَ مريم البيِّنات، وأيَّدْناهُ بروحِ القُدُس (٢) أفكُلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُكم استكبرتم؟ فَفَريقاً كذبتم؟ وفريقاً تَقْتُلون؟ وقالوا قُلُوبُنا غُلْف (٣). بَلْ لَعَنَهُم اللهُ بكُفْرِهِمْ، فَقَليلاً ما يؤمنون. ولما جاءهم كتابٌ مِنْ عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون على الذين كَفَرُوا (٤). فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به، فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافرين.

بِئْسَ ما اشتروا به أنفسَهم، أَنْ يَكْفُروا بما أنزلَ اللهُ، بَغْياً أن يُنَزِّلَ اللهُ من فضله على من يشاء من عباده (٥)، فباءوا بغضبٍ على غضب، ولِلْكافِرينَ عذابٌ مُهين. وإذا قِيلَ لهم آمنُوا بما أنزلَ

---

(١) حرم الله على اليهود فى التوراة أن يقتل بعضهم بعضا، وافترض عليهم فداء أسراهم، ولكنهم خالفوا أمر التوراة، فحالف فريق منهم الخزرج وحالف فريق آخر الأوس، فكانوا إذا اقتتل الأوس والخزرج قاتلوا معهم، فتسافكوا دماءهم بينهم، مخالفين كتابهم، فاذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم عملا بما فى التوراة. والقرآن يبكتهم ويعجب لتناقضهم قائلا (أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟) تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان أى تعينون عليهم من يشرك بالله ويعبد الأوثان ممن ليسوا بأهل كتاب ولا أصحاب دين، وهم الأوس والخزرج.

(٢) وآتينا عيسى بن مريم البينات من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله، وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب ما يدخرون فى بيوتهم.

(٣) قلوبنا غلف أى فى غلاف محجبة.

(٤) يستفتحون أى يستنصرون. كان الأوس والخزرج ظاهرين على اليهود فى المدينة. فكان اليهود يقولون لهم: إن نبيا سيظهر فنكون معه ونذلكم. فلما تبع الأوس والخزرج النبى كفرت به اليهود

(٥) كان اليهود يرجون أن يكون النبى منهم لأنهم أصحاب كتاب. فلما ظهر من غيرهم كفروا به. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الله ، قالوا نُؤمِنُ بمـا أُنزِلَ علينا ، ويَكفُرُونَ بما وَرَاءه ، وهو الحق مُصَدِّقاً لمـا معهم . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلونَ أنبِياءَ الله من قَبْلُ إن كنتم مؤمنين (١) ؟ ولقد جاءَكُمْ موسى بالبَيِّنات . ثُمَّ أتَّخذتُم العِجّلَ مِن بَعدِهِ وأنتُمْ ظالمون (٢) . وإذْ أخذْنا مِيثَاقكُمْ ورَفَعْنا فوقكم الطُّورَ ، خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بقُوةٍ واسْمَعُوا . قالوا سَمِعْنا وعَصَيْنا . وأُشرِبُوا فى قُلوبِهم العِجْلَ بكفرهم . قُلْ بئس ما يأمُرُكم به إيمَانُكم إن كُنْتم مؤمنين .

قل إن كانَتْ لكم الدارُ الآخِرَةُ عندَ الله خَالِصَةً من دُونِ النَّاسِ فتَمنَّوا المَوْتَ إن كنتم صادقين (٣) . ولن يتمنَّوه أبداً بما قدَّمت أيديهم ، والله عَلِيمٌ بالظالمين . ولَتَجِدَنَّهم أحْرَصَ الناسِ على حياةٍ ، ومن الذين أشركُوا ، يَوَدُّ أحدُهُم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنة ، وما هو بمُزَحزِحه من العذاب أن يُعَمَّر ، والله بَصيرٌ بما يعملون . قُلْ مَنْ كان عَدُوّاً لجِبْرِيلَ فإنه نَزَّلَهُ على قَلْبِك بإذْنِ الله ، مُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَيْه ، وهُدىً وبُشْرَى للمؤمنين (٤) . مَنْ كان عَدُوًّا لله وملائكته ورُسُلِه وجِبْريلَ ومِيكالَ فإن اللهَ عَدُوٌّ للكافرين . ولقد أنزلنا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وما يَكْفُرُ بها إلا الفاسِقون . أَوَكُلَّما عَاهَدُوا

---

(١) يشير إلى قتل اليهود عيسى من قبل . ويبين أنهم أهل شقاق ومكابرة دائما .

(٢) يشير إلى مافعلوا بعد انصراف موسى عنهم من عبادة العجل ، حين صنع لهم السامرى من الحلى عجلا من الذهب وأغراهم بعبادته فاتبعوه مرتدين إلى الكفر . والقصة مذكورة فى سورة طه فى الآيات ٩٢ — ٩٨ .

(٣) فتمنوا الموت : أى ادعوا بالموت على أى الفريقين هو أكذب عند الله . ولن يفعلوا ذلك لأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

(٤) كان اليهود يقولون للنبى إن جبريل لنا عدو ، فهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء . ولولا ذلك لاتبعناك .

عهداً نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقاً لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان (١)، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت (٢). وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله . ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق . ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون — البقرة ٧٥ الى ١٠٢) .

✡ ✡ ✡

ومما هجى به يهود بنى قينقاع . وعبد الله بن أبىّ ، فى ولائه لهم ، ووقوفه دونهم ، حين حاصرهم الرسول ، لأنهم حلفاؤه فى الجاهلية :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم ، فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، (٣) فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء

---

(١) كان أحبار اليهود يقولون حين ذكر النبى سليمان فى المرسلين : ألا تعجبون من محمد ؟ يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ! والله ماكان إلا ساحرا .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن هاروت وماروت ملكان عصيا الله تعالى ، فعذبهما بأن علقهما من شعورهما فى بئر ببابل . فجعلا يعلمان الناس السحر .

(٣) دائرة أى حادثة تنقلب بها الحال وتدور . فيصيرون إلى الذل والهزيمة .

الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم إنهم لمَعَكُم ؟ حَبِطَتْ أعمالُهم فأصبحوا خاسرين (١).

يا أيها الذين آمنو من يَرْتَدَّ منكم عن دِينه فَسَوْفَ يأتى اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويُحِبونه ، أذِلَّةٍ على المؤمنين ، أعِزَّةٍ على الكافرين ، يُجاهِدون فى سبيل الله ولا يَخافون لَوْمَةَ لائم . ذلك فَضْلُ الله يُؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . إنما ولِيُّكُم اللهُ ورسولُه ، والذين آمنو الذين يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤتون الزكاةَ وهم راكعون . ومن يَتَوَلَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنو فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتَّخَذُوا دِينَكُم هُزُواً ولَعِباً من الذين أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ والكفارَ أولياءَ . واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتَّخَذُوها هُزُواً ولَعِبا ، ذلك بأنَّهُمْ قومٌ لا يَعْقِلُون .

قل ياأهلَ الكتابِ هل تَنْقِمُون (٢) مِنَّا إلاأنْ آمَنَّا باللهِ وماأُنزِلَ من قبلُ وأنَّ أكثَرَكم فاسقون ؟ قل هل أنبئكم بِشَرٍّ من ذلك مَثُوبَةً عند الله (٣) ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه ، وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطاغوت (٤) أولئك شرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ عن سَواءِ السبيل . وإذا جاءوكم قالوا آمَنَّا ، وقد دَخَلُوا بالكُفْر ، وهُمْ قد خَرَجُوا به . والله أعلَمُ بما كانوا يَكْتُمون . وترى كثيراً منهم

---

(١) حبطت أعمالهم بطلت .   (٢) تنقمون تكرهون .

(٣) بشر من ذلك مثوبة أى ثواباً . والمثوبة فى أصل استعمالها للاحسان ، ولكنها مستعملة هنا فى معنى العقوبة . وذلك مثل استعمال التبشير فى موضع آخر من القرآن حيث يقول (فبشرهم بعذاب أليم).

(٤) الطاغوت كل رأس فى الكفر .

يُسَارِعون فى الإِثْمِ والعُدوان وأكلِهِم السُّحْت (١) ، لَبِئْسَ ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الرّبانيُّون والأحبارُ (٢) عن قولهِم الإثم وأكلِهم السُّحْت ! لَبِئسَ ما كانوا يَصْنَعُون . وقالت اليهودُ يَدُ الله مَغْلُولة ، غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا (٣) ! بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطتان يُنْفِقُ كيف يشاء . ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليكَ من ربك طُغْياناً وكفرا . وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة ، كُلَّمَا أوقَدوا ناراً للحرب أطفأها الله . ويسعَوْن فى الأرض فساداً ، واللهُ لا يحب المُفْسِدين . ولو أن أهل الكتاب آمَنُوا واتقَوا لكفَّرنا عنهم سَيِّئَاتِهم ولأَدْخلْنَاهم جَنَّاتِ النعيم . ولو أنهم أقاموا التَّوْراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقِهم ومِنْ تحتِ أَرْجُلِهِمْ . مِنْهُم أُمَّةٌ مُقْتَصِدَة ، وكثيرٌ منهم سَاءَ ما يَعْمَلُون — المائدة ٥١ الى ٦٦) .

* * *

هذا أسلوب جديد فى الهجاء ، يتميز مما سبق تميزاً واضحا . فيه أولا هذا النقاش الذى يحاول إقامة الحجة ، ويلزم الخصم الدليل ، ويظهره بمظهر السفيه اللئيم ، أو المكابر المتعجرف ، أو المنافق المتلون .

وهو يسلك فى هذا النقاش سبيلين يختلفان فى أسلوبهما ، وإن كانا ينتهيان إلى غاية واحدة . يناقش حججهم تارة بالدليل العقلى وبالمنطق ، فيورد أقوالهم ثم ينقضها عليهم ، مبينا تفاهتها ، وضعف ما تستند إليه . فيروى مثلا مايزعم اليهود من أن الله لا يعذب الناس إلا أياما معدودة ، بمقدار يوم عن كل ألف سنة ، ثم يسخر منهم ، ويستخف بزعمهم قائلا : من أين لكم هذا ؟

(١) السحت الحرام والرشوة .

(٢) الربانيون الزهاد ، والأحبار هم العلماء .

(٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة أى شحيحة بخيلة .

(أتَّخَذْتُمْ عند اللهِ عهداً ؟ أمْ تقولونَ على اللهِ ما لا تعلمون ؟) .
ومن أمثلة هذا الأسلوب ما يصور من تناقضهم . فقد حرم عليهم دينهم أن يقاتل بعضهم بعضا ، وفرض عليهم أن يتعاونوا فى افتداء أسراهم . ومن عجب أنهم يتقاتلون ويتنابذون ، وقد حرمت عليهم التوراة ذلك ، ثم يفتدون أسراهم ، إقامة لما أُمِروا به . ويعقب القرآن على ذلك متعجبا من أمرهم فيقول (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتابِ وتكفرونَ ببعضْ ؟ فما جزاءُ من يَفعَل ذلكَ مِنْكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يردون إلى أشَدِّ العذاب ؟) ومن أمثلته أيضاً ما يروى عن زعمهم أن الدار الآخرة لهم من دون سائر الناس . ثم يتحداهم أن يسألوا الله إنزال الموت على أى الفريقين هو أكذب وأضل ، إن كانوا واثقين من أنهم سينقلبون إلى الجنة بعد الموت . ويعقب على ذلك قائلا (ولن يتمنوه أبداً بما قَدَّمَتْ أيديهم والله عليم بالظالمين) .

هذا أسلوب من النقاش يعتمد على المنطق والعقل . وهناك أسلوب آخر يعتمد على التاريخ ، يروى منه ما يكسو خصومه العار ، ويصور أن ضلالتهم وعنادهم ليس بالشىء الجديد . يقول لهم تارة : ألم يأخذ عليكم الله ميثاقا أن لا تعبدوا غيره ، وبالوالدين إحسانا ، وذى القُربَى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ؟ ثم توليتم إلا قليلا منكم ؟ وتارة يقول لهم : ليس تكذيبكم محمدا ومعاندته بالشىء الجديد . فقد أرسلنا لكم النبيين من قبل فقتلتموهم . ثم يعقب على ذلك قائلا (أَفَكُلَّمَا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون ؟) بل هو يقص عليهم من تاريخهم ما يثبت خلافهم لنبيهم نفسه ، حين انصرف عنهم إلى حين ، فلما عاد رآهم عاكفين على عبادة عجل من ذهب اتخذوه إلٰهـا . ثم يقول : فهل كان ذلك مما يأمركم به ما تزعمون لأنفسكم من الإيمان ؟ (قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)

ويعود إلى التاريخ ، ليستخرج منه فضيحة أخرى لهؤلاء الفسقة المكابرين ، فيروى ما كان من انصرافهم عن كتابهم إلى السحر يتعلمونه ، وقد علموا أنه ضلالة لا يقصد به إلا الشر والإيذاء .

وهذا الأسلوب التاريخى شبيه بما رأينا من اعتماد الهجاء السياسى فى فى ذلك العصر على التاريخ . ولكن القيم التى يعتمد عليها ، تختلف تماما عن القيم التى كان يعتمد عليها ذلك الهجاء . فهذا الهجاء يستخلص من التاريخ ما يصور به سفه هؤلاء القوم ومكابرتهم وضلالهم القديم . أما ذاك ، فهو يستخلص منه ما يصور به الضعف وخمول الآباء والأجداد .

وأحيانا يعتمد القرآن على تصوير الحال ، وإبرازه واضحا مجسما . وله فى ذلك مسلكان . فهو تارة يعمد إلى التمثيل ، فيقدمهم فى صور ساخرة مضحكة ، وتارة أخرى يلقى الضوء على ما يتآمرون به فى الظلام ، ويكشف الستر عما يدبرون فى الخفاء ، فيربكهم بإظهار حقيقتهم التى يحرصون على كتمانها ، ويفضح دسائسهم التى يلقون عليها حجبا كثيفة من الرياء والنفاق .

فمن التصوير الساخر قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمعْ لقولهم ، كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة ، يَحْسَبُون كل صَيْحَةٍ عليهم ، هم العدوّ ، فاحذرهم . قاتَلَهُم اللهُ أنَّى يُؤْفَكُون !) إذا مر القارىء بصدر الآية تفاءل خيرا ، ولم ير بأسا . ولكنه لا يكاد يمضى ، حتى تأخذه المفاجاة القاسية ، بعد هذا الثناء على الأجسام . فالقرآن لا يرضى أن ينزل بهم إلى مرتبة الحيوان . بل هو يسلبهم أدنى قدر من العقل ، فهم جماد لا يحس ولا يعقل . وهم لا يقومون على أرجلهم إلا كما تقوم هذه الخُشُب ، قد صُفَّتْ صفا ، وأسندت إلى جدار . وهم مريبون ، يتوقعون فى كل لحظة أن ينكشف عنهم الستر فيؤخذوا بذنوبهم . لا يصيح صائح إلا أخذ الرعب قلوبهم ، فكأنهم هم المقصودون . ثم يوالى القرآن

لطمهم بهذه الجمل القصيرة المتداركة فيقول (هم العدو . فاحذرهم) وتهدأ الآية بعد هذه العاصفة ، وبعد هذه اللطمات المتتالية ، لتختم تلك الصور ، ولتجمل ما فصلت ، بما يشبه حديث المتحدث إلى نفسه (قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ !) .

ولعل حسان قد نظر إلى صدر الآية حين قال :

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض   جسم البغال وأحلام العصافير

ولعل ابن الرومى قد تأثر بها وببيت حسان حين قال :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب   فليس يَحْسُنُ إلا وهو مصلوب

ومن قول القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) أخذ جرير قوله :

حملت عليك حماة قيس خيلها   شعثا عوابس تحمل الأبطالا
تركوك تحسب كل شىء بعدهم   خيلا تكر عليكم ورجالا

ومنه أخذ الشاعر قوله :

كأن بلاد الله وهى عريضة   على الخائف المطلوب كفة حابل
يُؤَدَّى إليه أن كل ثَنِيَّةٍ   تَيَمَّمَهَا ترمى إليه بقاتل

ومن هذا التصوير الساحر تشبيه القرآن المنافقين من الأوس والخزرج ، وقد أضاء لهم نور الحق فى ظلمة الضلال فلم يهتدوا به ، بالذى يلتمس النار ليهتدى بها ، فلا تكاد تضىء حتى ينطمس بصره ، فلا يدركها ولا يستطيع الاستفادة منها . (مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب اللهُ بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ، فهم لا يَرْجِعُونْ .) ولا يكاد القرآن ينتهى من هذه الصورة ، حتى يقدم صورة جديدة لما هم فيه من الحيرة والضلال ، وشدة الخوف من أن ينكشف أمرهم فيأخذهم المسلمون . فهم كالذى يخبط فى جو عاصف ، اشتد فيه المطر ، وأظلمت جوانب الأرض ، وتجاوبت الرعود عاصفة ، فهو يسد آذانه بأطراف أصابعه ، متوقعا أن تأخذه الصواعق بين لحظة وأخرى . بل هو

هو يود لو جعل كل أصابعه فى آذانه ، حتى لا يصل إليه دوى الرعود المخيف .. ويسطع البرق بين الحين والحين ، فينخلع له قلبه ، ويبهر عينيه ضَوْؤُه الخلاّب . ولكنه فى حيرته وذهوله ، يخطو متثاقلا فى هذه اللحظات القصيرة من الضوء ، كالذى يبغى الخلاص مما هو فيه من البلاء ، ولكنه لا يدرى إلى أين . ولا يكاد هذا الضالُّ المذعور يخطو خطوة أو خطوتين ، حتى يعود الجو إلى ظلامه الرهيب ، فيظل فى حيرته قائما . (أو كصَيِّبٍ من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق . يَجْعَلون أصابعَهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير .) .

أما كشف الستر عن دسائسهم ، وما يدبرون فى الظلام ، فسبيل القرآن فيه أن يهتك أسرارهم وما يخفون فى أنفسهم ، فيذيع أقوالهم التى يرددونها فى مجالسهم الخاصة من وراء ظهور المسلمين ، ليبين لهم أنه عالم بكيدهم وما يضمرون . ثم يعقب على أقوالهم بإجابة قصيرة ، تبين جهلهم وانطماس بصائرهم . ومن أمثلته ما يقول القرآن فى عبد الله بن أُبىّ ، وفى أصحابه من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .) ثم يعقب على ذلك بقوله (ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون .) ومنه قوله فيهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ .) ويعقب على ذلك بقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكنّ المنافقين لا يعلمون .) ومنه قوله فيهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنّـا معكم ، إنما نحن مستهزءون .) ثم يعقب على ذلك بقوله (الله يستهزئ بهم ويَمُدُّهم فى طغيانهم يَعْمَهون .) ومنه

قوله تعالى فى تصوير حال المنافقين ، حين اشتد عليهم حصار العدو فى وقعة الخندق (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفه منهم يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم فارجعوا . ويستأذن فريقٌ منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عَوْرَةٌ . وما هى بعَوْرَة . إنْ يريدون إلا فرارا .) ويعقب على ذلك بعد أن يمضى فى وصفهم بقوله (قل لن ينفعكم الفرار من الموت إن فررتم من الموت . وإذن لا تُمتَّعون إلا قليلا .) ومنه قوله فى المنافقين من اليهود (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض . قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم ؟) ثم يعقب على قولهم هذا ساخرا من تفكيرهم السقيم . فهم لا يريدون أن يناقشوا المسلمين ، حتى لا يتعلموا منهم ماخصَّهم الله به من علم ، فيقيموا به الحجة عليهم عند الله يوم القيامة ! يقول معقبا على هذا التفكير السقيم (أفلا تعقلون ؟ أَوَلا يعلمون أن الله يعلم مايُسِرُّون وما يُعْلِنون ؟) .

وظاهرة أخرى نصادفها فى هذا الهجاء القرآنى ، هى اعتماده على التهديد والوعيد ، يختم به ما يسوقه من نقاش ، أو يروى من تاريخ ، أو يقدم من صور . فهو إذا بين تناقض اليهود ، إذ يأخذون بعض مافى كتابهم ، ويتركون بعضه الآخر ، ختم ذلك بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب ؟ وما الله بغافل عما تعملون .) وإذا روى انصرافهم عن كتابهم إلى السحر ، ختم ذلك بقوله (ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ماله فى الآخرة من خَلاق . ولَبِئْسَ ما شَرَوا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون .) وإذا شبَّهَهُمْ فى حَيْرَتهم بالذى يسير فى جو عاصف ، ورعد قاصف ، ختم ذلك بقوله (والله مُحِيطٌ بالكافرين .) ثم قوله (ولو شاء الله لذَهَبَ بسمعهم وأبصارهم . إن

الله على كل شيء قـــدير .) وإذا شبههم بالخشب المسنَّـــدة ، ختم ذلك بقوله (هم العُـدوّ ، فاحــذَرْهُـمْ . قاتَـلَـهمُ اللهُ أنّى يُـؤْفَـكـُون) .

هذه جملة من خصائص الأسلوب الهجائى فى القرآن . وهى تلتقى من من بعض النواحى مع أسلوب الهجاء السياسى فى الشعر ، مثل اعتمادها على التـاريخ ، وعلى التصوير والتهديد . ولـكنها تخالف كل ما عرف العرب ، فى نـَظْـمها ، وفى ما تستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية جديدة .

حســـــــان

شهرة حسان فى الأدب العربى تستند إلى أنه شاعر النبى . وأكثر ما يعرف الناس عنه دفاعه عن الدعوة الإسلامية ، وشعره الكثير فى هجاء من ناهضها . والواقع أن حسان لم يدخل فى الإسلام إلا وقد أسن وفارقه شبابه . فقد عاش فيما يحدثنا الرواة ستين سنة فى الجاهلية ، ومثلها فى الإسلام. وهذا خبر قد لا يخلو من المبالغة والتزيد ، ولكنه لا يبعد كثيرا عن الحقيقة. فهو إذن لم يبدأ حياته الإسلامية ، إلا وقد مضى الشطر الخِصب المحبَّب إلى النفس من عمره .

وُلِد حسان بمدينة يثرب ، فى بيت من أعرق بيوت بنى النجار — وهم من أظهر بطون الخزرج — قبل مبعث النبى بنحو من أربعين عاما . ونشأ والنزاع بين الأوس والخزرج قديم . يرجع إلى عهد جده المنذر بن حِرام ، الذى حاول أن يصلح بين الحيين . وكان لبنى النجار خاصة فى هذا النزاع شأن ظاهر . وقد اشتهر أمر حسان فى هذه الأيام بشعره القوى ، الذى سجل فيه مفاخر قومه ، مشيدا بنصرهم ، فكان على رأس شعراء الخزرج ، بينما كان قيس بن الخطيم فى طليعة شعراء الأوس . ولكن هذا كان يشارك بسيفه ولسانه ، أما حسان فقد قنع بالشعر ، ولم نعرف أنه أخذ بنصيب من القتال فى هذا النضال . ولعل حسان كان يعرف من نفسه أنه على الهجاء والشعر ، أقدر منه على القتال ، حين قال :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما وَيَبلُغُ ما لا يبلغ السيف مِذْوَدى[1]

وحين يقول فى موضع من شعره :

---

(١) مذوده لسانه الذى يذود به ، أى يدفع به عن نفسه وعن قومه .

لِكُلِّ أُناسٍ مِيسَمٌ يعرفونه ومِيسَمُنا فينا القوافى الأوابد (١)
متى ما نَسِم لا يُنكر الناسُ وَسْمنا ونَعْرفْ به المجهول ممن نُكايدُ
تَلُوحُ به تَعْشُو إليه وُسومُنا كما لاح فى سُمر الرِمتان المَوارد (٢)
فَيَشْفِين من لا يُستطاعُ شِفاؤُه ويَبْقَين ما تَبقَى الجبالُ الخوالد (٣)
ويُشْقِين من يَغْتالُنا بعداوةٍ ويُسْعِدْن فى الدنيا بنا من نُساعِدُ
إذا ما كَسَرنا رُمْحَ رايةِ شاعرٍ يَجيشُ بنا ما عندنا فنُعاوِدُ (٤)

ومنذ أحس حسان بمواهبه ، وعرف من نفسه مكانه فى الشعر ، رحل إلى الغساسنة ، متكسبا عندهم بالمدح ، متقربا إليهم بنسبه فى اليمن . وفى ربوع الشام ، وبين جنانها وقطوفها ، وعلى ضفاف بَرَدَى ، وفى أحضان الجبال الخضراء المكللة بالثلوج ، قضى حسان أجمل فترات حياته ، مطمئنا إلى هذه الحياة المترفة الناعمة ، مفتونا بالمناظر الطبيعية الساحرة ، التى لا عهد له بها فى الجزيرة القاحلة ، وقد أطلقت الخمرُ لسانه ، ورقق الجمال حسه ، فسخت نفسه بأحسن ما قال من شعر ، ووصله الغساسنة بأجزل ما نالت يداه من صـــلات .

وامتدت هذه الفترة الجميلة من حياته ، فلم تنته إلا بدخوله فى الإسلام ، وقد جاوز الشباب ، فبلغ الستين فيما يحدثنا الرواة ، أو قارب الخمسين على أقل تقدير كما يحدثنا هو نفسه بذلك فى بعض شعره الغسانى ، من قصيدة له يبدأها بقوله :

---

(١) الميسم فى الأصل المكواة الذى توسم به الدواب . وقد يسمى أثر الوسم ميسما أيضا . وهو يقصد هنا الشعر وأثره الباقى فى المهجو ، كأنه أثر الكى لا يزول .

(٢) تلوح به تبدو وتظهر . تعشو إليه تقصد وتتبعه أينما وجد . عشا النار وعشا إليها رآها ليلا من بعيد فقصد إليها . سمر المتان الرماح . الموارد جمع موردة أى الموارد المهلكة .

(٣) يقول إن هذه القوافى الأوابد تشفى من الجهل من لا يستطاع شفاؤه ، أى تردعه عن التمادى فى عداوتنا .

(٤) الجيشان صوت الغليان والاضطراب الذى يصحبه .

تَطاوَلَ بالخَمّانِ(١) لَيْلِى فلم تَكَدْ   تَهُمُّ هَوادِى نَجْمِهِ أنْ تَصَوَّبا
أَبيتُ أُراعيها كأنِّى مُوَكَّلٌ   بها لا أُريدُ النومَ حتى تَغَيَّبا

إِلى أن يقول :

وكِدتُ غَداةَ البَيْنِ يَغْلِبُنى الهوى   أُعالِجُ نفسى أن أقومَ فأرْكَبا
وكيف ولا يَنْسَى التَّصابِى بَعْدَما   تَجاوَزَ رأْسَ الأربعينَ وجَرَّبا
وقد بانَ ما يأْتى من الأمرِ واكتَسَتْ   مَفارِقُهُ لوناً من الشَّيْبِ مُغْرَبا

ولكن هذه السنين الطوال مرت سراعا كالحلم ، وكأن هذا العهد وقد تقطع وتصرم لم يكن .

فَلَبِثْتُ أَزْماناً طِوالاً فيهم   ثم ادَّكَرْتُ كأنَّنى لم أفعَلِ(٢)

كان شعر حسان فى هذا القسم الطويل من حياته صورة حية للجمال الذى استخف نفسه ، والنعمة التى غرق فيها حسه ومشاعره ، فجاء مغايرا لكل ما نعرف من الشعر الجاهلى . جاء قطعة من هذه الجنان الظليلة الحالمة ، بعيداً كل البعد عن رمال الصحراء المُضلة ، وجبالها الغبراء العابسة .

هذه هى العيس تحمل صاحبته الناعمة شَعْثاء ، وقد اكتست الرَّيْط ، وبدا وجهها الأبيض الجميل كالبَرْد الناصع ، يتراءى من خلفها جبل قد كساه الثلج ، وانتثرت من فوقه قطع السحاب .

انظُرْ خليلى ببَطْنِ جِلَّقَ هل   تُؤنِسُ دونَ البَلْقاءِ مِنْ أحدِ(٣)

(١) الخمان قرية قريبة من دمشق. هوادى النجوم أوائلها . تصوبها غروبها .
(٢) ما هنا زائدة . والمعنى إن ترى رأسى تغير لونه . الشمط بياض شعر الرأس يخالطه السواد الثغام بفتح الثاء نبت ينبت فى الجبال يكون أخضر ثم يبيض إذا يبس . وله سنمة غليظة ولا ينبت إلا فى قنة سوداء ولذلك شبه به الشيب .
(٣) موعدوه أعداؤه . قصر دومة هو حصن دومة الجندل مابين الحجاز والشام كان لأكيدر السكونى الذى قتله خالد بن الوليد . سواء الهيكل وسطه . والهيكل بيت النصارى يعظمونه .
(٤) ادكرت تذكرت ما كنت فيه فوجدت كأنه شىء لم يكن ولم يبق الا الأحاديث والذكر .
(٥) جلق اسم لكورة الغوطة أوهى دمشق نفسها أوقرية من قراها. البلقاء كورة من أعمال دمشق .

جمالُ شعثاءَ وقد هَبَطْنَ من المَحْـ ـبَس بين الكُثْبَانِ فالسَنَد (١)

يحْمِلن حُوًّا حُورَ المَدَامِعِ فى الرَيْطِ وبيضَ الوجوه كالبَرَد (٢)

مِن دُونِ بُصْرَى وخَلْفَهَا جبلُ الثَّلْـ ـجِ عليه السحاب كالقَدَد (٣)

ثم يمضى فيقسم لها برب الإبل، وما قطعت من مفاوز بعيدة الأرجاء، وعرة المسالك، وما قُرِّبت لمَنْحَرِها البُدْن (٤)، أنه لم يتغير عن عهده، ولم يحبب كحبها أحدا. ويحلو له أن يتذكر حديث صاحبته، حين كانت تنهاه عن الإكثار من الخمر والغلو فيها.

تقول شعثاءُ لو تُفِيقُ من الكأ س لأُلفِيتَ مُثْرِىَ العَدَد

ثم لا يجد ما يعتذر به عن نفسه، إلا أن يقول فى بساطة مؤثرة، ملؤها الحنين المستسلم للذة.

أهْوَى حديثَ النَدْمَانِ فى فَلَق الصبح وصوتَ المُسامِر الغَرِد

✡ ✡ ✡

وهذه هى دور الغساسنة، قد تعلقت بأعلى الجبال، تحوطها الثلوج التى تتساقط من حولها، حتى تتجمع فتتدافع إلى الوديان، تُذْرِى بالأشجار، وقد نبتت الكروم فى الأفنية والساحات، فوق هذه المنحدرات. أين هذه الجبال التى جملها الله، من صحراء العرب الموحشة، تضرب فيها الشاء، يتتبع رعاؤُها مواقعَ السيل!

أجِدَّكَ لم تَهْتَجْ لرَسْمِ المَنَازِل ودارِ ملوكٍ فوقَ ذاتِ السَّلاسِل (٥)

(١) شعثاء صاحبته والمحبس والسند موضعان.

(٢) الحوة سمرة الشفة وكانوا يحبون فى الشفة أن يضرب لونها الى السواد. الحور اشتداد بياض العين وسوادها. الريط جمع ريطة وهى الثوب الأبيض اللين الرقيق.

(٣) بصرى قرية معروفة بالشام باقية للان. القدد جمع قدة وهى القطعة من الشىء.

(٤) البدن جمع بدنة وهى من الأبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة.

(٥) أجدك يعنى أبجد هذا منك؟ ذات السلاسل موضع.

تجود الثُّرَيَّا فوقها وتَضَمَّنَتْ لها بَرَداً يُذْرِى أُصُولَ الأسافِلِ (١)
إذا عذرَاتُ الحى كان نِتَاجُها كُرُوماً تدلّى فوق أعْرَفَ ماثلِ (٢)
ديارٌ زَهَاها اللهُ لم يَعْتَلِجْ بها رِعاءُ الشَّوِىِّ من وراء السوائلِ (٣)

وهو يشبه ريق صاحبته شعثاء بخمر الشام أو تفاحة آونة حين يقول :

لشعثاء التى قد تيّمَتْه فليس لقلبه منها شِفاء
كأن سَبِيئَةً من بَيْتِ رأسٍ يَكون مِزاجُها عَسَلٌ وماء (٤)
على أنيابها أو طَعْمَ غضٍ من التفاح هَصَّرَهُ الجَناء (٥)

ويشبهه آونة أخرى بخمر الشام ، قد عتقت فى الخيام ، ثم شُجَّت بغدير بارد يجرى فى ظل الجبل ، مسترقا بين الحجارة المتراصة ، وقد أظله الغمام .

جِنِّيةٌ أرّقنى طيفُها تذْهَبُ صُبحاً وتُرى فى المَنامْ
هل هى إلا ظبيةٌ مُطْفِلٌ مَأْلفُها السِّدْرُ بنَعْفَىْ بَرَام (٦)
تُزَجِّى غزالا فاتراً طَرْفُه مُقارِبَ الخطْوِ ضعيفَ البُغام (٧)
كأن فاها ثَغَبٌ بارد فى رَصَفٍ تحتَ ظلال الغمام (٨)
شُجَّتْ بِصَهْبَاءَ لها سَوْرَةٌ من بَيتِ رَأْسٍ عتِّقت فى الخيام (٩)

(١) يقول إن المطر الذى يسقط من نوء الثريا — وهو نجم — قد تضمن بردا يعصف بالشجر. الأسافل أسافل الأودية

(٢) عذرات الحى أفنيتها وساحاتها . أعرف ماثل جبل مرتفع قائم منتصب

(٣) زهاها الله جملها وزينها . اعتلج القوم اصطرعوا وتقاتلوا . الشوى جمع شاة . السوائل جمع سيل .

(٤) السبيئة الخمر سميت بذلك لأنها تستبى أى تشترى . بيت رأس موضع بالأردن مشهور بالخمر

(٥) هصره الجناء أماله . يصف التفاح بأنه قد نضج . الجناء الجنى وهو كل ثمر يجتنى لنضجه

(٦) ظبية مطفل أى معها طفل . ولذلك فهى وادعة هادئة يتمثل فيها الحنان . برام واد . نعفاه جانباه .

(٧) يستمر فى وصف هذه الظبية المطفل التى يشبه بها صاحبته . تزجى تسوق . البغام صوت الظبية

(٨) الثغب بفتحات الغدير فى ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه . الرصف الحجارة المتراصة المتدانية .

(٩) شجت مزجت . الصهباء الخمر . السورة الحدة .

عَتَّقَهَا الحانوتُ دَهْراً فقد ... مرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعَامْ(١)

ونمضى مع الشاعر بعد ذلك ، وقد نسى صاحبته ، وهام فى أحلام الثمل النشوان . فهو يشرب الخمر صرفا تارة ، وممزوجة أخرى ، ثم ينطلق وقد استخفته ، مغنيا فى قصور شيدت من رخام ، تدب فى جسمه دبيب النِمال فى كثيب من رمال . خمرٌ تحُطُّ من الشيخ شيخوخته ، وما أوقره من أثقال كهولته ، فيرتد غلاما عابثا لاهياً . وكيف لا ترد الشيخ غلاما ، وهى من خمر بيسان ، وقد تخيرها حسان ، فهى كالترياق للأحزان ، تسرع فتر العظام ! وهذا هو الساقى ، يسعى إليه بها فى لباسه الأحمر ، وقلنسوته الطويلة ، وقد شد وسطه بحزام ، وتضمخ بالطيب خلف أذنيه ، وقد وقف وكل انتباهه للشرب ، يخف للدعوة عند أدنى حركة ، ملبياً فى خفة ونشاط .

نَشْرَبُها صِرْفاً وممزوجة ... ثم نُغَنِّى فى بُيوتِ الرُّخَامْ

تَدِبُّ فى الجسم دبيباً كما ... دَبَّ دباً وسط رَقاقٍ هَيَامْ(٢)

كأساً إذا ما الشيخُ والىَ بها ... خَمْساً تَرَدَّى فى رداء الغلام

من خمر بَيْسَانَ تَخَيَّرتُها ... تِرْيَاقةٌ تُسْرِعُ فَتْرَ العِظام

يَسْعَى بها أحمرُ ذو بُرْنُسٍ ... مختَلَقُ الذِّفْرَى شديدُ الحِزام(٣)

أروعُ للدعوة مُسْتَعْجِلٌ ... لم يَثْنِه الشأنُ خَفيفُ القِيَام

ويصف الخمر فى مجلس صالح بن عِلاط ، أحد أشراف بنى سليم ، وقد أحاط به شَرْبٌ كرام بيض الوجوه ، تفرقت بينهم القيان النواعم ، فى

---

(١) الحانوت الخمار الذى يبيع الخمر ، أو بيته .

(٢) الدبا أصغر النمل . رقاق هيام يقصد رملا مستويا لينا . يشبه دبيب الخمر فى الجسم بدبيب النمل فى الرمال . ومنه أخذ الأخطل قوله

تدب دبيبا فى العظام كأنه ... دبيب نمال فى نقى يتهيل

(٣) الذفرى العظم الشاخص خلف الأذن وهو أول مايعرق من الانسان . يقول إن هذا الموضع مطلى بالخلوق وهو ضرب من الطيب

ثيابهن البيض الرقاق ، وقد خفق الشرطان[1] فى السماء آخر الليل ، ودارت عليهم الخمر النبطية الخالصة ، حمراء تضرب للسواد . ودعا صالح بن عِلاط بقيانه ، فانطلقن فى العزف ، بين سكون وتثن ، كأنهن الظبـاء وقد أوين للكناس ، أو ثنين الجيد متطاولات ، يتناولن من أوراق الأشجار . ثم طفن بين الشرب بالكئوس ، فوق بسط رقيقة الخَمَل ، مهدت للجالسين . حتى إذا استخفهم الشراب ، أمر صالح بجواريه ، فتفرقن بين الندماء بددا ، يستمتعون منهن بما يشاءون .

رُبَّ لَهْوٍ شَهِدْتُه أمَّ عمرٍو — بين بيضٍ نواعمٍ فى الرِّياطِ
مَعْ ندَامَى بيضِ الوجوه كرامٍ — نُبِّهوا بعد خَفْقَة الأشراط
لكُمَيْتٍ كأنها دَمُ جَوفٍ — عُتِّقَتْ من سُلافَة الأنباط
فاحتواها فَتَىً يُهِينُ لها الما — لَ ونَادَمْت صالحَ بنَ عِلاط
ظلَّ حولى قِيانُهُ عازفاتٍ — مثلَ أُدمٍ كَوانسٍ وعَواطِ[2]
طُفْنَ بالكأس بين شَربٍ كرامٍ — مَهَّدُوا خُرَّ صالحِ الأنْماط
ساعةً ثم قال هُنَّ بِدادٌ — بينكم غَيرَ سُمعَةِ الإختلاط

ومن أجمل ماوصف به الشارب ، وقد أثقلته الخمر ، حتى فتر ، وخَفَت صوته ، وجفّ حلقُه ، فتوقف عن الشراب ، ومضى هو يلح عليه مقسما أن يستزيد منه .

ومُستَرِقِ النُّخامةِ مُستَكِينٍ — لوَقْعِ الكأْسِ مُختَلِس البَيان
حَلَفْتُ له بما حَجَّتْ قريش — وكلِّ مُشَعْشَعٍ م الخَمْرِ آن

---

(١) الشرطان نجمان

(٢) أدم كوانس وعواط أى ظباء مستكنة فى الكناس وهو البيت الذى تتخذه فى أصول الأشجار . عواط من العطو وهو التناول وذلك حين ترفع يديها لتتناول من الشجر بفمها . يشبههن فى رقصهن وتثنيهن بالظباء فى هاتين الحالتين .

لتَصطَبِحَنْ وإنْ أعرَضْتَ عنها ولو أنِّي بحَيْبَتِه سَقَانِى (١)
فطَافَتْ طَوْفَتَيْنِ فقالَ زِدْنى وذبَّتْ فى الأخَادِعِ والبَنَانِ (٢)
فلَمْ أعْرِفْ أخى حتى اصطَبَحْنا ثلاثاً فانبرى خذِمَ العنَانِ (٣)
فلان الصوتُ فانبَسطتْ يداه وكان كأنه فى الغُلِّ عانِ
وَرَاحَ ثِيابه الأولى سِوَاهَا بلا بَيْع أمَيمُ ولا مُهَانِ

✡ ✡ ✡

كانت هذه الفترة هى اللب الخالص من حياة حسان الفنية ، أنشأ فيها أجمل شعره فى الغزل والخمر والمدح والفخر . وكان مخلصاً فى مدحه لآل غسان ، لأنه كان متعصبا ليمنيته ، فهو يراهم أهله وعشيرته ، ومادة فخره ، وموضع اعتزازه واعتداده ، ولأنه قد أحب الشام ، وتعلق بكل ما فيها .

انظر إليه كيف يذكرهم مفتخرا فى قصيدته .

أجْمَعَتْ عَمْرَةُ صرْماً فابتَكِرْ إنما يُدْهِنُ للقَلْبِ الحَصِرْ

حين يفتخر بنفسه وبقومه ، فيقول — مشيرا إلى ما كان لهم من مجد قديم . أزاله الدهر الذى لا يؤمن —

مَنْ يَغُرُّ الدَّهْرُ أو يأمَنُهُ من قَبِيلٍ بعد عَمْرٍو وحُجُرْ
مَلَكَا من جَبلِ الثلجِ إلى جانِبَيْ أيْلَةَ مِنْ عبدٍ وحُرْ
ثم كانا خَيرَ من نال الندى سَبَقَا الناسَ بإقْساطٍ وبِرْ

ويمضى فى الإشادة بهم . فيذكر غزوهم للفرس ، وصبرهم على قتالهم . ويختم ذلك بأن يخلط نفسه وقومه بهم ، فيقول إنهم يصبرون فى القتال ، لأن من شيمة قومى الصبر .

---

(١) الاصطباح شرب الخمر صباحا . الحيبة الحال . يقول لو كنت مكانه وفى حاله لسقانى كما أسقيه أنا الان .

(٢) ذبت أسرعت . الأخدعان عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . والأخادع الجمع .

(٣) خذم منقطع ، يريد انه أكثر الكلام والهذر لما سكر وخلع عذاره

ولقــد يَعلَمُ مَنْ حارَبَنَا ... أننا نَنْفَعُ قِـدْماً ونَضُرّْ
صُبُرٌ للموت إنْ حَلَّ بنا ... صادقو البَأسِ غَطاريفٌ فُخُرْ
وأقام العِزُّ فينا والغِنَى ... فلَنَا منه على الناس الكُبُرْ
منهُمُ أصْلِى فمن يَفْخَرْ به ... يعْرِفِ الناسُ بفَخْرِ المُفْتَخِرْ

فحسان إذن حين يمدح آل غسان ، لا ينسى نفسه وعشيرته ، فهو يراهم أهلا وأبناء عم ، تجمع بينهم اليمنية . وقد كانت هذه القرابة مادة خصبة لفخره واعتداده بنفسه وقومه ، وداعية إلى رضاه عن نسبه واعتزازه به . فأكثر من الفخر والمباهاة ، أقوى ما يكون الفخر ، وجمع فى آن واحد بين شخصيتين ، شخصية شاعر البلاط عند الغساسنة ، وشاعر الوطن السياسى بين قومه . ومن أحسن ما قال فى الغزل والفخر فى هذا الطور قصيدته :

لِمَنْ منزلٌ عافٍ كأنَّ رُسُومَه ... خَياعيلُ رَيْطٍ سابرىٍّ مُرَسَّمِ (١)
خَلاءُ المَبادىء مابه غيرُ رُكَّدٍ ... ثلاثٍ كأمثالِ الحمَائم جُثَّمِ (٢)
وغيرُ شَجيجٍ ماثِلٍ حالفَ البِلَى ... وغيرُ بقايا كالسَّحيقِ المُنَمْنَمِ (٣)
تُعَلُّ رِياحُ الصيفِ بالى هَشيمه ... على ماثِلٍ كالحوْض عافٍ مُثَلَّمِ (٤)
كَسَتْهُ سَرابيلُ البِلَى بعد عَهده ... وجَوْنٌ سَرَى بالوابِلِ المُتَهزِّمِ (٥)
وقد كان ذا أهلٍ كبيرٍ وغِبْطَةٍ ... إذا الحبْلُ حَبلُ الوصل لم يَتصرَّمِ
وإذ نحن جيرانٌ كثيرٌ بغِبْطَةٍ ... وإذ ما مَضَى من عَيْشِنا لم يُصَرَّمِ

---

(١) خياعيل جمع خيعل وهو درع يخاط أحد شقيه تلبسه المرأة كالقميص . الريط الثياب اللينة . السابرى من الثياب الرقاق نسبة إلى سابور

(٢) المبادى الظواهر . ركد ثلاث يقصد بها الأثافى وهى الأحجار التى ينصب عليها القدر يشبهها بثلاث حمائم بيض جاثمة .

(٣) يريد بالشجيج الوتد . ماثل قائم منتصب . السحيق الثوب الخلق الذى انسحق وبلى . المنمنم المخطط

(٤) الهشيم النبت اليابس المتكسر . يقول إن الرياح تعتاده مرة بعد مرة . ماثل بارز قائم يقصد النؤى وهو الحوض الصغير الذى يتخذ حول الخباء لدفع المطر عنه وتصريفه .

(٥) الجون السحاب الأسود . الوابل أشد المطر . يقول إن هذه الرياح وتلك الأمطار أبلته

وكُلُّ حَثِيثِ الوَدْقِ مُنْبَعِقِ العُرَى متى تُزجِهِ الريحُ اللواقحُ يَسجُمِ (١)
ضعيفِ العُرَى دانٍ من الأرضِ بَرْكه مُسِفٍّ كمثلِ الطودِ أكظمَ أسحمِ (٢)
فإنْ تكُ ليْلى قد نأتْكَ ديارُها وضَنَّتْ بحاجاتِ الفؤادِ المُتيَّمِ
وهمَّتْ بصَرْمِ الحبلِ بعد وِصالِهِ وأصغتْ لقولِ الكاشحِ المتزعِّمِ
فما حَبْلُها بالرَّثِّ عندى ولا الذى يُغَيِّرُهُ نأْىٌ وإن لم تَكَلَّمِ
لَعَمْرُ أبيكِ الخَيْرِ ما ضاعَ سِرُّكم لدَىَّ فتجزيني بِعادًا وتَصْرِمِى
وما حبُّها لو وكَّلتْنى بوصلهِ ولو صَرَّمَ الخلانُ بالمُتَصَرِّمِ
ولا ضِقْتُ ذَرْعًا بالهوى إذ ضمِنْتُهُ ولا كَظَّ صدرى بالحديثِ المكتَّمِ (٣)
ولا كان مما كان مما تَقَوَّلُوا علَىَّ ونَثُّوا غيرَ ظَنٍّ مُرَجَّمِ (٤)
فإن كُنْتِ لما تَخْبُرينى فسائلى ذوى العلمِ عنّا كى تُنَبَّى فتعلمى
متى تسألِى عنا تُنَبَّىْ بأننا كرامٌ وأنا أهلُ عِزٍّ مُقَدَّمِ
وأنا عَرانينٌ صقورٌ مَصَالِتٌ نَهُزُّ قناةً متنُها لم يُوَصَّمِ
لعمرُكَ ما المُعْتَرُّ يأتى بلادَنا لنَمْنَعَهُ بالضائعِ المُتَهضَّمِ (٥)
وما السيِّدُ الجبَّارُ حين يريدنا بكَيْدٍ على أرْمَاحِنا بمُحَرَّمِ
ولا ضيفُنا عند القِرَى بمُدَفَّعٍ ولا جارُنا فى النائباتِ بمُسْلَمِ
نُبِيحُ حِمَى ذى العزِّ حين نَكِيدُهُ ونحمِى حِمَانا بالوَشِيجِ المقوَّمِ
ونحن إذا لم يُبْرِمِ الناسُ أمرَهم تكونُ على أمرٍ من الحقِّ مبرَمِ

---

(١) الودق المطر . الحثيث السريع . منبعق العرى كثير الصب . تزجيه الريح تسوقه . يسجم يسيل وينصب

(٢) ضعف عراه كناية عن تحلله بالماء ، بركه معظمه وصدره . أكظم ممتلئ . أسحم أسود

(٣) ولا كظ صدرى يقول إن صدرى لا تبهظه الأسرار فيعجز عن كتمانها

(٤) النث نشر الحديث الذى يحق كتمانه . وظن مرجم غير يقين

(٥) المعتر المعتفى الذى ينتاب سائلا . المتهضم المظلوم

ولو وُزِنَتْ رَضْوَى بحِلْمِ سَراتِنا ... لمال برضوى حِلمُنا ويلملَمِ (١)
ونحن إذا ما الحربُ حُلَّ صِرارُها ... وجادتْ على الحلاب بالموت والدم (٢)
ولم يُرجَ إلاَّ كلُّ أروعَ ماجدٍ ... شديدِ القُوى ذى عزَّة وتكرم
نكون زِمامَ القائدينَ إلى الوَغَى ... إذا الفَشِلُ الرِّعديدُ لم يتقدَّمِ
فنحن كذاك الدهرَ ما هبَّت الصَّبا ... نعود على جُهَّالِهِمْ بالتَّحلُّمِ
فلو فَهِموا أو وُفِّقوا رُشْدَ أمرِهِم ... لعُدْنا عليهم بعد بُؤْسى بأنْعُم
وإنا إذا ما الأُفقُ أمسَى كأنما ... على حافَتَيْهِ مُمْسِيًا لونُ عَنْدَمِ (٣)
لَنُطْعِمُ فى المَشْتَى و نَطعَنُ بالقنا ... إذا الحربُ عادَتْ كالحريق المُضَرَّمِ
وتَلْقَى لَدَى أبياتِنا حين نُجْتَدَى ... مَجالسَ فيها كلُّ كَهْلٍ مُعَمَّمِ

رفيعِ عِمادِ البَيْتِ يَسْترُ عِرضَه ... من الذَّمِّ مَيْمُونِ النَّقِيبةِ خِضْرِمِ (٤)
ضَرُوبٍ بأعْجازِ القِداحِ إذا شَتَا ... سريعٍ إلى داعى الهِياجِ مُصَمِّمِ
أشمَّ طويلِ السَّاعِدَيْنِ سَمَيْدَعٍ ... مُعيدٍ قِراعَ الدَّارعين مُكَلَّمِ (٥)

---

(١) رضوى ويلملم جبلان

(٢) الصرار خيط يشد فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها . وكانت العرب تصر ضلوع الحلويات إذا أرسلوها للمرعى فاذا عادت فى العشى حلت تلك الأصرة وحلبت : شبه حسان الحرب بالناقة إذا حل صرارها فحلبت درت . ولكنها لاتدر لبنا وإنما تدر موتا ودما

(٣) أراد باحمرار الأفق الجدب والقحط . العندم شجر أحمر يصبغ به . يقول إنهم يجودون فى وقت الجدب والقحط

(٤) ميمون النقية مبارك النفس مظفر فيما يحاول . خضرم جواد . رفيع عماد البيت سيد . وبيوت السادة مرتفعة العمد . أما بيوت الفقراء فهى منخفضة قصيرة العمد لاصقة بالأرض

(٥) سميدع كريم . مكلم مجرح لأنه يخوض الحرب .

ونسدل الستار عن هذه الأيام ، وندع حسان فى هذا الشباب المترقرق، الذى يفيض لذه وشعرا ، لنستقبله مرة أخرى ، وقد تقدمت به السن ، ودخل فيما دخل فيه قومه من أمر هذا الدين الجديد . يأتى الإسلام فإذا حسان شاعر كبير له شهرة ونفوذ ، وهو محتاج إلى لسان قوى ، وصوت نافذ ، يدفع عنه هذه الهجمات التى تأتيه من كل مكان ، وقد تألبت عليه الجزيرة ، وأغرت به محاربيها وشعراءها على السواء . فيتألفه النبى ، ويخصه بعطفه ، ولا يجد حسان بدا من يكون شاعر قومه فى الإسلام كما كان شاعر فى الجاهلية ، فيمضى فى هذا التيار الجديد ، مسجلا حروبهم فى سبيل نصرة جارهم . الذى أخذوا على أنفسهم حمايته ، ولكنه يظل جاهليا فى صميمه ، بعيدا عن التأثر الصادق بالإسلام ، فهو إذا رثى النبى ، وجدت رجلا يبكى ما ضاع من رزقه ورزق عياله .

وما فقد الماضون مثلَ محمد ولا مثلهَ حتى القيامة يُفقَد
أعفَّ وأوفى ذِمةً بعد ذمةٍ وأقرب منه نائلاً لا يُنكَدُ
وأبذَلَ منه للطريف وتالدٍ إذا ضَنَّ معطاءٌ بما كان يُتلِدُ

ويقول فى قصيدة أخرى .

نَبٌّ المساكينُ أنَّ الخيرَ فارَقهُم
مع النبى تَولَىَ عنهم سَحَرا
من ذا الذى عنده رَحْلِى وراحلتى
ورِزْقُ أهلى إذا لم يُؤنِسوا المطرا

ويقول بعد أن يقف بآثار الرسول فى يثرب .

ظِلَتْ بها أبكى الرسول فأسعَدَتْ
عيونٌ ومِثْلاها من الجَفْن تُسْعِدُ

تَذَكَّرُ آلاءَ الرسول وما أرى
لها مُحصِياً نفسى فنفسى تَبَلَّدُ
مُفَجَّعةٌ قد شَفَّها فَقْدُ أحمد
فظلَّت لآلاء الرسول تُعَدِّدُ

ويقول فى قصيدة رابعة يرثيه:

مُصَدِّقاً للنبيين الأُلى سَلفُوا
وأَبْذَلَ الناس للمعروف للجَادِى (١)
يا أفضل الناس إنِّى كنتُ فى نَهَرٍ
أصبحتُ منه كمِثْلِ المُفْرَدِ الصَّادِى

ثم يريد أن يصور حزن نساء النبى ، فلا يجد غير صورة الراهبات فى مسوحهن .

أمسى نساؤُك عَطَّلْن البيوتَ فما
يَضْرِبْن فوق قَفَا سِتْرٍ بأوتاد
مثلَ الرواهب يلبَسْنَ المُسوحَ وقد
أيقَنَّ بالبؤس بعد النعمة البادى

✡ ✡ ✡

قارىء شعر حسان فى هذا الطور من حياته ، يلمس فيه ظاهرتين بارزتين ، عصبيته اليمنية وفتور عاطفته وتكلفه فيما يمس النواحى الإسلامية .

أما عصبيته فلم يكن حسان ليدعها بحال ، ولم يستطع الإسلام أن ينسيه إياها . فهو يمنى أولا ، ثم هو مسلم بعد ذلك . فهو يكثر من الفخر بقومه ، جامعا بين مجدهم اليمنى القديم ، ومجدهم الإسلامى الجديد . فهم ملوك الجاهلية ، وحماة الإسلام ، لجأ إليهم النبى حين ضاقت به الدنيا ، فعز بجوارهم واشتد . يقول حين وفد وفد تميم على النبى :

---

(١) الجادى المجتدى الذى يطلب جدواه أى عطاءه .

هل المَجْدُ إلا السؤددُ العَوْدُ والندى
وجاهُ المـلوكِ واحتمالُ العظائم (١)

نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ محمـدا
على أنفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغم

بِحَيٍّ حَرِيدٍ أصلُه وذمارُه
بجابيةِ الجَوْلان وسْطَ الأعاجم (٢)

نصرناه لما حلَّ وسْطَ رِحَالِنا
بأسيافنا من كل باغٍ وظالم

جعلْنا بَنِينَا دونه وبناتِنا
وطِبْنا له نفساً بفَيْءِ المَغانم (٣)

ونحن ضَرَبْنا الناسَ حتى تَتَابَعُوا
على دِينِه بالمُرْهَفَات الصوارم

ويقول فى موضع آخر :

أتانا رسولُ الله لما تَجَهَّمَتْ
له الأرض يرميه بها كل مُوفِقِ

تُطَرِّدُه أفناءُ قيسٍ وخِنْدِفٍ
كتائبُ إن لا تَغْدُ للرَّوْع تَطْرُقِ

فكُنَّا له من سائر الناس مَعْقِلا
أشَمَّ مَنِيعاً ذا شَمَاريخ شُهَّق

---

(١) السؤدد العود القديم الذى يتكرر مع الزمان

(٢) حى حريد منفرد معتزل عن جماعة القبيلة لايخالطهم فى حلهم وترحالهم لاعتزازه بنفسه . جابية الجولان موضع بالشام يريد حسان الغساسنة . يقول هؤلاء أهلى المقيمون وسط الأعاجم يعنى الروم .

(٣) يقول قد طبنا له نفسا بالفىء وهو مايحصل عليه المسلمون من غنائم فى غير الحرب . يقول أعطينا له ذلك عن طيب نفس لم نكره عليه .

كان حسان يكره المضرية ، ويبغض هذا النفر من المهاجرين ، لا يراهم إلا مستضعفين قد لجئوا إليهم محتمين . فهو ينفس عليهم ما يصيبون من خير ، وما يستمتعون به من عطف النبي وحبه . وهذا هو رسول الله ، يقسم المغانم يوم الفتح فى قريش وفى قبائل العرب من عدنان ، فيكثر اللغط بين الأنصار ، ويقول قائلهم : لقد والله لقى رسول الله قومه . فيرتفع صوت حسان ، معبرا عن سخطهم ، معددا أياديهم عند النبي ، وقديم صنيعهم فى الإسلام .

عَلامَ تُدعَى سُلَيْمٌ وهى نازِحَةٌ
قُدَّامَ قومٍ هُمُ آوَوا وهم نَصَروا
سَمَّاهم اللهُ أنصاراً لنصرهِمْ
دِينَ الهدى وعَوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ
وسارَعُوا فى سبيل الله واعتَرَفُوا
للنائباتِ وما خاموا ولا ضَجِرُوا
والناسُ إلْبٌ علينا فيكَ ليس لنا
إلا السيوفَ وأطرافَ القنا وَزَرُ (١)
ولا يَهِرُّ جنابَ الحَرْبِ مَجْلِسُنا
ونحن حين تَلَظَّى نارُها سُعُرُ (٢)
وكم رَدَدْنا ببدرٍ دون ما طلبوا
أهلَ النفاقِ وفينا أُنزِل الظَّفَرُ
ونحن جُندُك يومَ النَّعْفِ من أُحُدٍ
إذ حَزَّبَتْ بَطَراً أشياعَها مُضَرُ

---

(١) الناس إلب علينا فيك مجتمعون على عداوتنا بسببك . وزر ملجأ . يوم لم يكن لنا ملجأ نلجأ إليه إلا سيوفنا ورماحنا

(٢) هر الشيء يهره هريرا كرهه . الجناب الناحية . يقول إننا لانكره الحرب ولا نملها

فما ونَيْنَـا وما خِمْنَـا وما خَـبَرُوا

منا عِثاراً وجُلُّ القـوم قد عَثـروا

ويجمع النبي هذا الحي من الأنصار ، وقد خشى الفتنة فيلاطفهم مترضيا ، ويعتذر إليهم بأنه إنما تألَّـفَ من تألَّـفَ بالشاة والبعير وعرض الدنيا ليسلموا ، ووكلهم إلى إسلامهم وإلى ثواب الله . فينصرف القوم راضين (١)

ولقد بلغ من جفاء حسان أن يتهم عائشة زوج النبي بصفوان بن المعطل فى حديث الإفك ، حتى يكثر فى ذلك اللغط ، ويشك النبي فى إخلاصها . ثم ينزل القرآن ببراءتها ، ويُحَـدُّ حسان فيما جاء به من الإفك ، ويوصف بأنه هو الذى تولى كِبْرَه (إنّ الذين جاءوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ منكم لا تَحْسَبُوه شرًّا لكم ، بل هو خيرٌ لكم . لكل أمرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثْـم . والذى تَـوَلَّىَ كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم .) .

ويجلس حسان يوما إلى أُطُـمِـه فارع ، ومن حوله أصحاب له قد مد لهم بساطا ، ويرى كثرة من يقبل على النبي من المهاجرين ، فيهزأ بهم قائلا :

أمسى الجَـلابيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُروا

وابنُ الفُـرَيْعَةِ أمسَى بيضةَ البَـلَدِ (٢)

جاءت مُزَيْنَـةُ من عَمْقٍ لتُخرِجَنى

اخسَئْ مُـزَيْنُ وفى أعناقكم قِدَدِى (٣)

يَمشون بالقول سِرّاً فى مُهادنَـة

يهدِّدُونى كأنى لستُ من أحَـدِ

---

(١) السيرة ٤ : ١٤٢

(٢) الجلابيب جمع جلباب وهو الازار كنى بذلك عن الذلة يقصد القرشيين . الفريعة أم حسان. بيضة البلد منفردا كالبيضة المتروكة فى الصحراء .

(٣) مزينة هم بنو عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر نسبوا لأمهم . خسأ الكلب طرده فهو خاسىء مبعد صاغر . القدد جمع قد وهو السير من الجلد . شبههم بالكلاب فى أعناقهم القدد .

قد ثَـكِلَتْ أُمُّـه من كنتُ واجدَهُ
وباتَ مُنْتَشِباً فى بُرْثُنِ الأســـد

ما البحرُ حين تهُبُّ الريحُ شَـــاميةً
فَـيَغْطَئِلُّ ويَرمِي العِبْرَ بالزَبَـد (١)

يومـاً بأغلبَ منى يومَ تُبْصِرنى
أَفْرى من الغيظ فَرْىَ العارضِ البَرِدِ (٢)

ما للقتيـل الذى أسمـــو فآخُـذُه
من دِيَةٍ فيه يُعْطاها ولا قَوَدِ (٣)

ويغتنم صفوان بن المعطل هذه الفرصة ليشفى منه نفسه ، فينطلق إليه بسيفه ، ويضرب به قائلا :

تَلَقَّ ذُبابَ السيفِ مِنى فإننى غلامٌ إذا هُوجيت لستُ بشاعر

ويتعصب قوم حسان له ، فيثبون على صفوان . ثم يرضى النبى حسان ، بأن يهب له سيرين أخت مارية القبطيـة (وهى أم ولده عبد الرحمن) ، ويُقطعه حديقة باعها بعد ذلك لمعاوية .

كان النبى يعرف من حسان هذا التعصب البغيض ، ولـكنه كان يغضى عنه ، لأنه لا يريد أن يثير قومه من الأنصار ، فيبعث فى المدينة فتنة ، تنتهى بتفريق كلمة المسلمين وضعف أمرهم . ثم هو محتاج إلى لسانه وإلى شعر صاحبيه الخزرجيين ، عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . وهو يعرف لقومه بعد ذلك فضلهم فى إيوائه ونصرته ، حين ناصب قومه العداء .

أما فتور عاطفة حسان وضعف شعره الإسلامى ، فشىء معروف قد لاحظه القدماء من قبل . كان الأصمعى يقول (الشعر نَـكِدٌ بابه الشر . هذا حسان

---

(١) يغطئل يركب بعضه بعضا لتلاطم الأمواج . العبر جانب البحر أو النهر .

(٢) العارض السحاب . البرد الذى فيه برد .

(٣) يقول ليس للقتيل الذى أقتله دية أو قود . والقود القصاص وقتل القاتل بالقتيل .

ابن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره)

والواقع أن الحياة الإسلامية لم تحرك من حسان عاطفة ، ولم تمس من قلبه وتراً . فهو رجل قد شب وشاب فى الجاهلية ، ثم دخل فى الإسلام وقد تم تكوينه الخلقى والفنى ، واتخذ مزاجه شكلا لا سبيل إلى تحويره أو تعديله . قطع الإسلام ما بينه وبين الشام ، وكان يحبها ويتعلق بها . وحرمه عطاء ملوكه ، وكان وافراً جزلا . وحال بينه وبين هذه الحياة اللاهيه المترفة ، التى لم يزده البعد عنها إلا شوقا إليها .

بين يدينا شعر إسلامى كثير ينسب لحسان ، ربما كان شطر كبير منه قد أضيف إليه وحمل عليه كما يقول ابن سلام . ولكن هذا الشعر فى جملته ، لا يصور عاطفه صادقة ، ولا يظهر فيه أثر للحياة الإسلامية الجديدة ، ولا يبدو أن صاحبه قد تأثر بها أدنى تأثر . ففيه كثير من الضرورات التى تصور شعراً مرتجلا أنشىء على عجل ، لم يعن صانعه بإحكامه ، ولم يكلف نفسه عناء مراجعته .

والأمثلة على هذه الضرورات كثيرة . منها وصل همزة القطع فى مثل قوله :

وأنت ابنَ المغـــيرة عبدُ شَوْلٍ   قد اندَبَ حبْلَ عاتِقكَ الوِطَاب[1]

وقوله :

إن الفَرافِصَةَ بن الاحْوصِ عنده
شَجَنٌ لأمك من بَنَاتِ عُقَاب[2]

وقوله :

جعلتم فَخْرَكُمْ فيه لعَبْد
من الأمِ من يَطا عَفَرَ التُراب

---

(١) ابن المغيرة هو الوليد بن المغيرة . الشول جمع شائلة والشائلة من الابل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها . ويقصد بعبد شول راعى إبل . الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن أو الزق الذى يكون فيه اللبن يعلقه الراعى فى عاتقه . الندوب آثار الجراح .

(٢) عقاب هذا كانت بناته إماء للفرافصة بن الأحوص الكلبى . يقول للحارث بن هشام بن المغيرة إن الفرافصة عنده من خبركم ما يحزن أمك ويخزيها . وعقاب عبد كان لبنى تغلب تزوج جد الحارث لأمه احدى بناته .

ومنها تسهيل الهمزة فى مثل قوله :

مَشُوم لَعِين كان قِدْماً مُبَغَّضاً تبيَّن فيه اللؤمَ من كان يهتدِى

وقوله :

كفرتُم بالقُرَان وقد أُتيتُم بتصديق الذى قال النذير

ومنها ترك إشباع الضمير وتسكينه فى مثل قوله :

أبلغْ رَبيعَةَ وابن أُمِّهْ نوفلا أنى مُصِيبُ العَظْمِ إن لم أصفح

كان حسان يأخذ معانى القرآن ، فيديرها فى رأسه ، ثم يرسلها نظماً فاتراً بعيداً كل البعد عن أن يكون قد قد مر بقلبه ، أو امتزج بنفسه . يقول فى يوم أحد .

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتجوا قتلَ النبي ومَغْنَمَ الأسلاب

وغدَوا علينا قادرين بأيْدِهِمْ رُدُّوا بغيظِهِمُ على الأعقاب

بِهبوب مُعصِفَةٍ تُفرِّق جَمْعَهم وجُنُود ربِّك سَيِّدِ الأرْباب

وكفى الالهُ المؤمنين قتالَهم وأثابهم فى الأجر خيرَ ثواب

فهو نظم لقوله تعالى (وَرَدَّ اللهُ الذين كفَرُوا بغَيظِهِمْ لم ينالوا شيئا وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القتال) ولكنه نظم سقيم يحشو فيه الألفاظ حشواً . فقوله (بأيْدِهِمْ) فى البيت الثانى زائد لا مكان له . وإسناد رب إلى ضمير المخاطب فى البيت الثالث غير حسن ، فهو رَبٌّ كل الناس . وقوله بعد ذلك (سيد الأرباب) سخيف ، يفهم أن هناك أربابا آخرين هو سيدهم . وقوله فى البيت الرابع (الإله) يشعر بشىء من التنكير ، لا نجده فى لفظ الجلالة (الله) .

والأمثلة على هذا النظم الفاسد لآيات القرآن وألفاظه كثيرة ، لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده الإسلامية الطوال . ومع ذلك فقد نظفر بشعر إسلامى جيد لحسان . ولكنا إذا تفحصنا مثل هذا الشعر ، وجدناه خلوا من كل إشارة للإسلام أو تأثر بتعاليمه . فهو ينشئه على طريقة الجاهلية ،

مسجلا مفاخر قومه ، وشدة بطشهم بأعدائهم من قريش . ومن الأمثلة على هذا الشعر القوى ، قصيدة له فى يوم أحد ، يبدأها بغزل رقيق ، لا يلبث أن ينتقل منه إلى الفخر بنسبه وبقومه ، وما لهم من قديم ، ثم يتناول أعداءهم من قريش ، متشمتاً بما لحقهم من هزيمة على يد قومه . ونحن نسوق هذه القصيدة ، لنرى الفرق البعيد بينها وبين الأبيات السابقة ، التى أُنشِئت فى الموضوع نفسه .

يبدأ حسان بذكر صاحبته ، وما ينتابه من هموم ، إذا أقبل العشاء ، وتغوَّرَت النجوم ، وامتنع عليه النوم ، من ذكرى حبيب أصاب قلبه بالسقم ، ويعجب من أمره وإياها ، كيف يقتل مثلها مثله وهى واهنة البطش والعظام ! ويمضى فى تصوير صاحبته . فهى ناعمة مترفة ، هَمُّها العطر والفراش ، يزينها حلى من فضة ولؤلؤ منظوم ، لو دَبَّ الذَّرُّ على جلدها الرقيق لأندبه بالكلوم . يالها من رائعة الحسن ! لم تكن شمس النهار لتفوقها روعة (غَيْرَ أنَّ الشبابَ ليس يدوم !) .

ويمضى حسان فى الفخر بنفسه وبآبائه . فخاله خطيب جابية الجولان عند النعمان ، وأبوه السيد الشريف الذى ارتضى الأوسُ والخزرجُ حكومته يوم التقت فى سميحة الخصوم . وهو الصقر عند باب النعمان ، إذ يشفع فى إطلاق فلانٍ وفلانٍ من قومه فتُحْطَمُ عنهم الأغلال . فهو أوسط قومه شرفا ، وأرفعهم مجدا . وكم من حِلْمٍ أضاعه عدم المال ، وكم من جهل وخمول غطى عليه النعيم !

وينتقل من ذلك إلى التعريض بأعداء قومه من قريش ، وما يزجى إليه شعراؤهم من هجاء ، فيقول : ما أبالى نبيب تيوسهم ، ولا أهْتَمُّ لشتم لؤمائهم بظهر الغيب . فهذه أفعالنا تدل علينا ، وفعل الزِّبَعْرَى خامل مذموم وإنما وَلِىَ البأسَ منهم يوم القتال بنو عبد الدار بن قُصَىٍّ ، إذ يتبادل منهم اللواءَ تسعةٌ وسط القنا المسجور ، فيتساقطون واحداً تلو الآخر. ثم تَوَلى

الجمعُ وقد أبيدوا ، فكلهم مُذَممٌ مدحور ، تسيل كلُومهم دماً أحمر . ولقد كان من الحفاظ أن يُقيموا (إنَّ الكَرِيمَ كريم) بَلَى قد أقاموا ! ولكنهم أُزِيروا شَعُوبا ، والقنا فى نحورهم محطوم . تلوذ منا قريش لِوَاذاً ، وقد خَفَّت منهم الحلوم ، ووهن العزم ، فلم تُطِق عواتقهم حمل اللواء ، (وإنما يَحْمِل اللواءَ النُّجُومُ) .

منع النومَ بالعشَاء الهُمُومُ وخيالٌ إذا تَغُور النجومُ

يقول بعد الغزل والفخر :

ما أُبالى أَنَبَّ بالحَزْن تَيْسٌ أم لحانى بظَهْر غَيْبٍ لئيمُ
تلك أفعالُنا وفعلُ الزِّبَعْرَى خاملٌ فى صديقه مذموم
ولِىَ البأسَ منكم إذحضرتم أُسْرةٌ من بنى قُصَىٍّ صميم
تِسْعَةٌ تحمل اللواءَ وطارت فى رَعَاعٍ من القنا مخزوم [1]
لم يُوَلُّوا حتى أُبيدوا جميعاً فى مَقَامٍ وكلهم مذموم
بدمٍ عاتكٍ وكان حِفَاظاً أن يقيموا إن الكريمَ كريمُ
وأقاموا حتى أُزِيرُوا شَعُوبا والقنا فى نحورهم محطوم [2]
وقريشٌ تلوذ منا لِوَاذاً لم يقيموا وخفَّ منها الحُلُوم
لم تُطِقْ حَمْلَه العَوَاتقُ منهم إنما يحمل اللواءَ النُّجُومُ

شعر حسان فى هذا الطور الإسلامى قوى ، حين يترك نفسه الجاهلية على سجيتها ، فإذا تكلف مبادىء الإسلام ، وحاول أن يتأثر فى شعره معانى القرآن ، تبلد طبعه ، وضعف شعره ، وبدا وكأنه يصدر عن آلة صماء ، تحكى ألفاظا باردة ، ليس فيها حرارة أو حياة . . . .

---

(١) يريد التنويه ببنى عبد الدار بن قصى إذ صبروا يوم أحد ، ويريد التشهير ببنى مخزوم إذ انهزموا . البأس الحرب . صميم خالصة النسب . الرعاع الضعفاء . من القنا أى خوفا من القنا .

(٢) شعوب اسم للموت وهو بفتح السين .

كانت مكانة حسان الشعرية فى هذا الطور تقوم على الهجاء الموجع ، الذى يرمى به أعداء الإسلام . وقد كان هجاؤه موجعا ، لأنه لا يقوم على هذه المثل الإسلامية ، التى يهزأ بها القوم ، ولا يضيرهم أن يعيروا بإنكارهم لها ، وخروجهم عليها .

كان حسان يوجع أعداءه بالهجاء المفحش الذى يلائم جفاء البدو وخشونة طبعائهم ، فيتردد على ألسن الرواة ، ويتندر به الأعراب فى أسمارهم ، لما فيه من صور بارعة ، تضحك هذه الأذواق الغليظة ، التى لم ترققها الحضارة ، ولم يهذبها التثقيف والتعليم . وهذا الفحش هو فى حقيقة الأمر لون من الصراحة العارية من اللياقة ، وإمعان فى الواقعية ، يأباه الذوق الحضرى المهذب ، ولكنه يعجب البدوى الفظ ، الذى يتعلق بالفاقع الصارخ من الألوان ، ولا تستخفه النكتة الرقيقة الخفية الدلالة . فهو لا يرى الشاتم قد أبلغ وأوجع ، حتى يخوض فى الآباء والأمهات ، والأعراض والعورات . ولا يرى المتهزىء الساخر قد أجاد وأسمع ، حتى تملأ نكتته الأشداق بالضحك الصاخب .

ولا نرانا قد بلغنا من تصوير حسان ما نريد ، حتى نقدم أمثلة من هذا الشعر الفاحش ، وإن كان الباحثون يفضلون فى مثل هذه الحالات أن يمروا بهذا الشعر مرورا هينا ، ويشيرون إليه من بعيد ، متحرجين من روايته . والواقع أنه لا يكفى أن يقال إن لحسان شعرا مفحشا . فهذا الفحش . لا يمكن أن يعرف نوعه ومقداره ، حتى تقدم منه صور . وهذا الفحش ناحية من حسان ، ولا بد لدارسه أن يعرفه كما هو على حقيقته ، بخيره وشره . ولماذا نتحرج نحن فى الأدب من رواية مثل هذا الشعر ، والفقهاء لا يتحرجون فى مثل هذه الظروف من التفصيل والتطويل ، حين يحتاج إليهما التفسير والتوضيح ؟

من أوضح ما يصور هذا اللون فى هجاء حسان قصيدته فى هند أم معاوية يوم أحد :

أشرَتْ لَكاعِ وكان عادَتَها ... لؤُم إذا أشِرَتْ مع الكُفْرِ

لَعَنَ الإلهُ وزوجَها معها ... هندَ الهُنودِ طويلةَ البَظْرِ

أخرَجْتِ مُرقِصةً إلى أُحُدٍ ... في القوم مُعنِقَةً على بكْرِ (١)

بَكْرٍ ثَفَالٍ لا حَرَاكَ به ... لا عَنْ مُعاتبةٍ ولا زَجْرِ (٢)

وعصاكِ إسْتُكِ تَتَّقِينَ به ... دَقَّ العُجَايَةِ عارِىَ الفِهْرِ (٣)

قَرِحَتْ عَجيزَتُها ومَشْرَجُها ... من نَصِّها نَصًّا على القَهْرِ (٤)

ظلَّتْ تُداويِها زَميلَتُها ... بالماء تَنْضحُه وبالسِّدْرِ

أقبَلْتِ زائرةً مُبادِرَةً ... بأبيك وابنك يوم ذى بَدْرِ (٥)

ونسيتِ فاحشةً أتَيْتِ بها ... ياهندُ ويحَكِ سُبَّةَ الدهرِ

فرَجَعْتِ صاغِرةً بلا تِرَةٍ ... مما ظَفِرتِ به ولا وِتْرِ

زَعَمَ الولائدُ أنها وَلَدَتْ ... ولداً صغيراً كان من عُهْرِ

بل هو يتهمها فى موضع آخر، بأنها كانت تحمل سفاحا ، فتدفن أولادها سرًّا فى الصحراء ، سَتْراً للعار :

لِمَنْ سَوَاقِطُ صبيانٍ مُنَبَّذَةٍ ... باتَتْ تَفَحَّصُ فى بطحاءِ أجيادِ

باتَتْ تَمَخَّضُ ما كانت قَوَابِلُها ... إلا الوُحُوشَ وإلا جِنَّةَ الوادى

---

(١) مرقصة ترقص البعير وذلك حين تسرع فى السير . معنقة مسرعة كذلك .

(٢) ثفال بطىء . الزجر حث البعير على السير . يقول إن البكر الذى يحملها كان بطيئا وليس ذلك لأنه لم يزجر ويستحث ولكن لأنها ثقيلة عليه .

(٣) العجاية عصب فيه فصوص كانوا إذا جاعوا دقوه وأكلوه وكانوا يدقونه بين فهرين والفهر الحجر يملأ الكف يدق به الجوز وغيره . يقول لها حسان إن استك هو عصاك التى تدفعين بها يدقه خشب الرحل كما يدق الفهر العجاية .

(٤) النص التحرك على الدابة لحثها على السير . العجيزة الدبر . المشرج العصبة بين الدبر والفرج . يقول إن عجيزتها ومشرجها قد تقرحا من كثرة حركتها على البكر لحثه على السير.

(٥) أبوها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة قتلا يوم بدر . وابنها حنظلة بن أبى سفيان قتل كذلك يوم بدر وأخوها الوليد بن عتبة قتل كذلك يوم بدر .

فيهم صَبِيٌّ له أمٌّ لها نسَبٌ في ذِرْوَةٍ من ذرى الأحساب أيَّادِ
تقول وهْنًا وقد جدَّ المَخَاضُ بها ياليتني كنتُ أرعى الشَّوْلَ للغادى
قد غادروه لِحُرِّ الوجهِ مُنْعَفِراً وخالُها وأبوها سيِّدُ النَّادِى

ويقول في هجاء بني سهم ، وفي هجاء عمرو بن العاص بن وائل ، (وأمه النابغة امرأة من عَنَزَة) .

أما ابنُ نابغةَ العبدُ الهجينُ فقد
أنحى عليه لساناً صارماً ذَكَرا
ما بال أُمِّكَ راغتْ عند ذى شَرَفٍ
إلى جُذَيْمَةَ لمَّا عفَّت الأَثَرا (١)
ظَلَّتْ ثلاثاً ومِلْحَانٌ مُعانِقُها
عند الحُجُونِ فما مَلاَّ ولا فَتَرا (٢)
يا آل سَهْمٍ فإني قد نصحتُ لكم
لا أَبْعَثَنَّ على الأحياءِ من قُبِرا
أمَّا هِشَامٌ فَرَجلاً قَيْنَةٍ مَجَنَتْ
باتَتْ تُغَمِّزُ وسْطَ السَّامِرِ الكَمَرا (٣)
لولا النبيُّ وقولُ الحقِّ مُغضِبةٌ
لما تَرَكْتُ لكم أنثى ولا ذكرا

ولست أدرى أى شيء قد ترك حسان إكراماً للنبي ؟ وماذا كان عساه قائلا لولاه !

---

(١) راغت مالت عن القصد . ذو شرف موضع . جذيمة اسم رجل . يقول له هلا خبرتني خبر أمك انحرفت عن الطريق الى ذلك الرجل معفية آثار أقدامها على الرمال خشية أن تتبع .

(٢) ملحان عبد لخزاعة : الحجون جبل بمكة .

(٣) الماجن الذى يرتكب المقابح المخزية ولا يبالى العذل والتقريع . الكمر جمع كمرة وهو رأس الذكر ، الغمز العصر والكبس باليد .

وقال لسلامة بن رَوْح بن زِنْبَاع الجُذَامى — وكان يلى عشورَ الروم بالشام .

سلامةُ دُمْيَةٌ فى لَوْحِ باب　　هُبِلتَ ألا تُعِزُّ كما تُجِيرُ
تَقَلَّدَ أَيْرَ زِنْبَاعٍ ورَوْحٍ　　سلامةُ إنه بئس الخَفِيرُ
ولا ينفكُّ ما عاش ابنُ رَوْحٍ　　جُذَامىٌّ بذِمَّتِهِ خَتُورُ

ويقول فى هجاء بنى سُلَيْم بن أشجع :

ولو شهِدَتْنى من مَعَدٍّ عصابةٌ
سِوَى نَاكَةِ المِعْزَى سُلَيم بن أشجعِ
بنوعمٍّ دارِ الذُّلِ لُؤْماً ودِقَّةً
وأحلامُ تَيْسٍ يَمَّمَ الدارَ أسفعِ

ويقول فى هجاء بنى المغيرة :

هلاَّ منعتم من المَخْزاةِ أمَّكُمُ
عند الثَّنِيَّةِ من عَمْرِو بن يَحْمُوم
أسلمتُمُوها فباتَتْ غَيرَ طاهرةٍ
ماءُ الرجالِ على الفَخْذَيْنِ كالمُومِ (١)

ويقول فى هجاء قوم :

ذهبَتْ قريشٌ بالعَلاءِ وأنتُمُ
تَمْشُونَ مَشْىَ المومساتِ الخُرَّعِ
فذَرُوا التخَاجُؤَ وامنَعُوا أستَاهَكمُ
وامشوا بمَدْرَجَةِ الطَريقِ المَهْيَعِ
أنتُم بَقِيَّةُ قوم لوطٍ فاعلموا
وإلى خِنَاثِكم يُشَارُ بإصبَعِ

---

(١) الموم الشمع .

هذا إمعان فى الفحش ، لا نجد له مثيلا فى الشعر الجاهلى ، ولا نكاد نعرف له نظيرا إلا فى نقائض جرير والفرزدق . ونحن لا نريد أن نمضى فى التحليل والاستنتاج ، لأنا لا نعرف كم من هذا الشعر المفحش الكثير تصح نسبته لحسان ، وكم منه قد أضيف إليه وحمل عليه . ولكنا نلاحظ أن المنسوب له فى ديوانه من هذا الشعر كثير ، لا يعد له فى الشعر الجاهلى شىء . ومن الحق أنا لانزال نجد أمثلة من هذه الدعابات النابية ، والنكت العارية ، فى مجالس العامة ، وفى الطبقات التى لم تنل حظاً من الثقافة . ولكن هذا القدر الكبير من الشعر الفاحش ، إن صحت نسبته لحسان ، فهو يصور إلى جانب جفاء الطبع ناحية نفسية خاصة ، تغلب عليها الشهوة الجنسية ، وتميل بطبيعتها للفحش ، لأنها تجد فيه راحة لاذة . ولقد بلغ من غلظ طبع حسان أن يطلق امرأة تزوجها من أسلم ، ثم يُتْبِعُها وقومَها بالهجاء . فيعيرها بأنه كان يفعل بها ويفعل .

قد غَضِبُوا أَنْ زَعَمُوا عنى بأختهم ... وفى الذُّرَى نسبى والمجدُ مرفوعُ

ويلُ امِّ شَعْثَاءَ شيئاً تَسْتَغِيثُ به ... إذا تجَالَلَهَا النَّعْظُ الأفاقيعُ (١)

كأنه فى صَلاَهَا وهى بارِكَةٌ ... ذِراعُ آدمَ من نَطَّاءَ مَنْزُوعُ (٢)

وهذا الفحش منافٍ للآداب الإسلامية التى تحرص على الأعراض ، وتمنع من قذفها ، وتعاقب على ذلك بالجلد . ولكن حسان لم يكن حريصا على الآداب الإسلامية ، فهو يذكر الخمر فى مواضع كثيرة من شعره الإسلامى ، مع أن الدين قد حرمها .

يقول فى يوم الفتح من قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجِواءُ ... إلى عذراء منزلها خلاء

كأن سبيئةً من بيت رأسٍ ... يكون مِزَاجها عسلٌ وماء

(١) الأفاقيع الذى يتفقع وتسمع له صوتا من تفقيع الأصابع وهو صوتها إذا فرقعت .
(٢) الصلا وسط الظهر من الانسان .

على أنيابها أو طَعْمُ غَضٍّ   من التفاح هَصَّرَهُ الجناء
إذا ما الأشرِبَاتُ ذُكِرْنَ يوماً   فهُنَّ لطيِّبِ الراحِ الفِداءُ
نُوَلِّيهَا المَلامَةَ إن أَلِمْنَا   إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحَاء
ونشربها فتتركنا ملوكا   وأسداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاء

ويقول فى يوم بدر :

تَبَلَتْ فؤادكَ فى المنام خريدةٌ   تسقى الضجيعَ ببارِدٍ بسَّام
كالمسك تخلطه بماء سحابة   أو عاتقٍ كدم الذبيح مدام

ويقول من قصيدة يفتخر فيها بمجد قومه فى الجاهلية وفى الإسلام :

وفيها اشتهوا من عصير القِطافْ   وعَيْشٍ رَخِيٍّ علىَ غيرهم

نقول إن حسان لم يكن حريصا على الآداب الإسلامية . ورجل يقول فى زوجته ماقال بعد أن يطلقها ، ورجل يسىء الظن بزوج النبى ويجهر باتهامه لها ، ورجل يحن إلى حياة اللهو العابثة هذا الحنين بعد إسلامه ، خليق أن يمارس لذته الفاحشة ، فى الباب الوحيد الذى تركه له الإسلام مفتوحا ، وهو الهجاء .

بقيت خاصة من خصائص حسان الفنية فى الهجاء ، قد أشرنا إليها فى حديثنا عن الحطيئة ، وهى براعته فى خلق الصور الفنية وابتكارها . وهذه موهبة تتيح للهجائيين بنوع خاص كثيراً من الشهرة والذيوع . فهى تصور إلى جانب الذكاء بصيرة هجائية ، وروحا فكهة ، لا تنظر إلى الأشياء إلا لتسخر منها ، وترى فيها شبها قريبا بألوان مضحكة من الصور .

يقول فى هجاء رجل من بنى عابد بن عبد الله المخزومى :

فإن تَصْلُحْ فإنَّكَ عابِدِىٌّ   وصُلحُ العابدىِّ إلى فَساد
وإن تَفسُدْ فما أُلفيتَ إلا   بعيداً ما علمتُ من السَّداد
على ما قام يَشْتِمُنِى لئيمٌ   كخنزير تمرَّغَ فى رماد

وقال فى هجاء رجل من المنافقين اسمه الضحاك :

أبلِغْ أبا الضحاك أن عُروقه ... أعيَتْ على الإسلام أن تتَمجَّدا

أتُحِبُّ يُهدَانَ الحِجاز ودِينهم ... كَبِدَ الحِمارِ ولا تُحِبُّ محمدا

وقال لسعد بن أبى السرح (واسم أمه مهانة) :

ووالله ما أدرى وإنى لسائل ... مَهانةُ ذاتُ الخَيْفُ ألأم أم سعد

أعبدٌ هَجينٌ أحمرُ اللونِ فاقِعٌ ... مَوتَّرُ عِلباءِ القفا قطط جعْدُ(١)

وقال فى هجاء بنى عابد :

سألتُ قريشاً كلَّها فشِرارُها ... بنى عابد شَاهَ الوجوهُ لعابد

إذا قعَدُوا وسْطَ النَّدِىِّ تجَاوبوا ... تجَاوُبَ عدَّان الربيعَ السَّوافد(٢)

وما كان صَيفِىٌّ ليوفى بذمةٍ ... قَفَا ثعلبٍ أعيَى ببعضِ المَوارِد

وقال يهجو الحارث بن كعب ، رهط النجاشى الشاعر :

حَارِ بنَ كعبٍ ألا الأحلامُ تزجركم

عنَّا وأنتم من الجُوفِ الجمَاخِيرِ(٣)

لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ

جِسْمُ البغال وأحلامُ العصافير

ذَرُوا التخَاجُؤ وامشوا مِشْيةً سُجُحاً

إن الرجالَ ذوو عَصْبٍ وتذكير(٤)

---

(١) الهجين الذى ولد من أمة . والعرب تسمى الهجين أحمر اللون تشير إلى أنه غير عربى . العلباء عصب العنق . قطط جعد قصير .

(٢) الندى النادى وهو مجلس القوم للسمر . عدان أصله عتدان جمع عتود وهى الجدى الذى استكرش . السوافد من السفاد وهو نزو الذكر على الأنثى .

(٣) الجوف جمع أجوف . الجماخير جمع جمخور وهو الواسع الجوف والمراد الضعفاء المستريحون

(٤) التخاجؤ التباطؤ فى المشى أو التبختر . العصب شدة الخلق . المشية السجح السهلة .

كأنكم خُشُب جُوف أَسافله
مثقَّبٌ فيه أرواحُ الأعاصير

ألا طِعَانٌ ألا فُرسانُ عَادِية
إلا تَجَشُّؤُكُمْ حولَ التَّنَانِير ! (١)

وقال فى هجاء بنى سهم بن عمرو بن هصيص :

والله ما فى قريشٍ كلِّها نفر
أكثر شيخاً جباناً فاحشاً غمرا

أَذَبُّ أصلعُ سِفسِير له ذَأَب
كالقِرْدِ يَعجمُ وسطَ المجلسِ الجُمُرا

هُذْرٌ مشائيم محروم ثويُّهُم
إذا تَرَوَّحَ منهم زُوِّد القَمَرا (٢)

وقال فى هجاء بنى الحماس :

أما الحِماسُ فإنى غيرُ شاتِمِهم
لاهُمْ كِرام ولا عِرْضى لهم خَطَرُ

كأن ريحَهُم فى الناس إذ بَرَزُوا
ريحُ الكِلابِ إذا ما بَلَّها المطر

أولادُ حامٍ فلن تلقى لهم شَبَها
إلا التُيُوسَ على أكتافها الشَّعَر (٣)

---

(١) التجشؤ تنفس المعدة عند الامتلاء . التنانير جمع تنور وهو نوع من الأفران . يقول إنكم لستم أصحاب قتال وهمكم أن تجلسوا إلى مواضع الطعام تتجشؤن وأنتم تطيفون حولها .

(٢) يقول إن ضيفهم يبيت محروما فاذا رحل لم يزودوه غير القمر أى لم يزودوه شيئا .

(٣) أولاد حام حبش سامى . نفاهم من العرب .

شِبهُ الإماءِ فلا دِين ولا حَسَب

لو قامروا الزَّنجَ عن أحسابهم قُمِروا

تلقَى الحِمَاسِيَّ لا يمنعْك حُرمتَه

شبْه النَّبِيط إذا استعْبدتهم صَبرُوا

هذه الصور الساخرة المضحكة ، التى لا تخلو من إفحاش ناب فى كثير من المواضع ، وهذه الألفاظ المختارة لمثل هذه الصور ، هى التى أكسبت حسان مكانته الخاصة ، وأتاحت له الذيوع العريض ، وجعلته أشد على أعداء الإسلام من وقع النبل ، كما قال النبي . وأكثر ما يكون شعر حسان لاذعا قارصا ، حين يقصر فلا يتجاوز الأبيات ، مثل أبياته فى هجاء المغيرة ابن شعبة :

لو ان اللؤمَ يُنسَبُ كان عبداً　　قبيحَ اللون أعورَ من ثقيف

تركتَ الدينَ والإسلامَ جهلا　　غداةَ لقيتَ صاحبة النَّصِيف

وراجعْتَ الصبا وذكرتَ لهواً　　من الأحشاءِ والخَصْرِ اللطيف

ومثل أبياته فى هجاء أبى سفيان ، فى قتل صهره أبى أزيهر الدوسى (قتله هشام بن الوليد بن المغيرة [١] .

غدَا أهلُ حِضْنَى ذى المَجَازِ بسُحْرَةٍ

وجَارُ ابنِ حَربٍ بالمُحَصَّبِ ما يَغدُو [٢]

---

(١) كان أبو أزيهر رجلا من الأزد . وإنما سمى الدوسى نسبة لأخواله . وكان حليفا لأبى سفيان ابن حرب . ثم زوج بناته فى قريش . زوج إحداهما لأبى سفيان ، والأخرى نعتبة بن ربيعه ، وزوج الثالثة للوليد بن المغيرة ، ثم أمسكها عنه ، لما بلغه من سوء خلقه ، ولم يرد إليه المهر . فانتهز أبناء الوليد غرة من أبى أزيهر ، فقتلوه فى سوق ذى المجاز . فجعل حسان يقول الشعر ليستثير أباسفيان للاخذ بثأره ، فتقع الحرب بين القرشيين ، وتذهب ريحهم . وكان ذلك عقب وقعه بدر . وقد كادت الحرب تقع بين الفريقين حين سمع يزيد بن أبى سفيان شعر حسان ، فحمى لصهر أبيه ، ولكن أبا سفيان تدارك الأمر فكف الناس ، وقد أدرك ماقصد اليه حسان بشعره .

(٢) ذو المجاز موضع بمنى أو عند عرفات ، كان يقام فيه سوق فى الجاهلية . وفيه قتل أبو أزيهر الدوسى . حضناه أى جانباه . السحرة بضم السين والسحر بفتحتين آخر الليل قبيل الصبح . جار ابن حرب هو أبو أزيهر . لايغدو لأنه قتل . فهو مقيم فى هذا المكان الذى دفن به .

كساكَ هِشامُ بنُ الوليد ثيابَه
فأبْلِ وأخلِفْ مثلَها جُدَدًا بَعْدُ (١)
قضى وطراً منه فأصبحَ غاديًا
وأصْبَحْتَ رِخوًا ما تَخُبُّ ولا تَعْدو (٢)
فلو أن أشياخًا بَبَدْرٍ شهودُه
لَبَلَّ مُتُونَ الخيلِ مُعْتَبَطٌ وَرْدُ
فما مَنعَ العَيْرُ الضَّرُوطُ ذِمَارَهُ
وما مَنَعَتْ مَخْزَاةَ والدِها هِنْدُ

ويمتد هذا الطور من حياة حسان عشر سنوات تنتهى بموت النبي ، فيرثيه حسان بشعر كثير ، فيه وفاء ، ولكن فيه حزنا على ما ضاع من مكانته ومن منزلة الأنصار ، الذين طغت عليهم عصبية المضريين بعد الفتح ولم يعد نفوذهم يستند إلا على ما يُدلُّون به من سابق إيوائهم للنبي :

مَنْ ذا الذى عنده رَحْلِى وراحلتى
ورزقُ أهلى إذا لم يُؤْنِسُوا المَطَرا
أم من نُعاتِبُ لا نَخْشَى جَنادعَه
إذا اللسانُ عتا فى القول أو عَثَرَا
كان الضِيَاءَ وكان النورَ نَتْبَعُهُ
بعدَ الإله وكان السمعَ والبصرا
فليتنا يوم واروْه بملحده
وغَيَّبُوهُ وألقَوا فوقَه المَدَرا

(١) يسخر منه . يقول أبل وأخلف ما أكلت ولبست من دية قتيلك .

(٢) الوطر الأرب والحاجة . أصبح غاديا أى أن قاتل أبي سفيان قد أصبح آمنا يروح ويغدو غير مكترث . الخبب السرعة . يقصد أن أبا سفيان أصبح لايستطيع أن يفعل شيئا .

لم يَتْرُكِ اللهُ منَّا بعدَه أَحَدًا
ولم يُعِشْ بعدَه أنثى ولا ذكرا
ذَلَّتْ رِقابُ بنى النجَّار كلِّهم
وكان أمراً من امرِ اللهِ قد قُدِرا

ويظل حسان على عصبيته لليمنية وللأنصار خاصة ، ويظل المهاجرون والمضرية على كرههم له ، ولكنهم يدارونه ويكرمونه ، لسابق منزلته عند الرسول . يمر به عمر وهو ينشد الشعر فى المسجد ، فينتهره قائلا « أَرُغاءٌ كرُغاءِ البعير ؟ » ولكن حسان يمضى فى إنشاده ، ويجيبه قائلا : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لَتَعلَمُ أنى كنت أُنشدُ فى هذا المسجد من هو خيرٌ منك . وينزوى حسان ، فلا نكاد نسمع عنه شيئا ، إلا هذا الشعر الذى قاله فى رثاء عثمان ، مظهرا ولاءه لمعاوية ، محملا عليا تبعة قتله . وتثقل عليه الشيخوخة بعد أن يصاب فى بصره — وربما كان ذلك فى خلافة عمر ، كما تصوره قصة جبلة بن الأيهم — فيعتزل السياسة ، عاكفا على هذا الماضى الطويل الحافل ، تهيجه الذكرى ، فيحن إلى أيام شبابه متحسرا .

إنَّ شرخَ الشبابِ والشَّعَرَ الأسودَ ما لم يُعاصَ كان جُنونَا
ما التَّصابِى على المَشيب وقد قلَّبتُ من ذاكَ أَظهُراً وبُطُونا؟
إن يكُن غثَّ من رَقاشَ حديثٌ فبما نأكُلُ الحَديثَ سمينا (١)
وانتَصَينا نواصِىَ اللهوِ يوماً وبعثْنا جُناتَنا يَجتَنونا
فجَنَوْنا جَنىً شهيًّا حَليًّا وقضَوا جوعَهم وما يأكلونا

(١) رقاش علم على كل امرأة . بما نأكل الحديث أى ربما . يقول إن أكن قد هرمت، ولم يعد لحديث النساء فى نفسى حلاوة ، فلقد نعمت بهن فى شبابى ، وكنت أرى حديثهن حلوا طيبا .

وأمينٍ حدَّثتُه سِرَّ نفسى فرعاه حِفْظَ الأمينِ الأمينا
مُخْمرٌ سِرَّه إذا ما التقينا ثَلِجَتْ نفسُه بأن لا أخونا

ويتذكر الشام وملك بنى غسان إبان ازدهاره ، وقد أوحشت منهم الديار مجيلا خياله فى مغانيهم التى كان يرتادها فى شبابه وفى أيام لهوه ، يتتبعها متنقلا من مكان إلى مكان ، مجملا هذه الذكريات الحلوة فى ترديد مواضعها ، تاركا لأسماء الأماكن وحدها أن تثير فى نفسه ما تثير من صور وأحلام .

لِمَن الدار أوحشَتْ بمعَان بين أعلا اليرموك فالخمَّان
فالقُريَّات من بلاسَ فدارَيَّا فسكَّاءَ فالقصورِ الدَّوانى
فقفا جاسمٍ فأوديةِ الصُّفَّـر مَغْنَى قبائلٍ وهِجَان
تلك دارُ العزيزِ بعدَ أنيسٍ وحلولٍ عظيمةِ الأركان

ولا يزال يرفع الأستارَ عن هذا الماضى البعيد ، حتى يتخيل عيد الفصح وقد دنا ، فمضى الولائد الحسان يتهيأن لاستقباله بنظم أكاليل المرجان ، وسحنَ بين الجنان ، فى قمصان رقيقة من الكتان ، وقد شددن إلى خصورهن مآزر رقيقة بيضاء ، يجمعن فيها زهور الزعفران . ثم يعود إلى نفسه فيقول: أين هذه الجوارى الحسان ، من اللائى يجتنين صمغ المغافِر وينقُفن الحنظل ؟

ذاك مَغْنىً من آل جفنة فى الدهـر وحقٌّ تعاقُب الأزمان
قد أرانى هناك حَقَّ مكين عند ذى التاج مجلسى ومكانى

ومن أجمل ما قال فى هذه الفترة الأخيرة على ذكرى أيامهم قصيدته :

أسألتَ رَسْمَ الدار أم لم تَسْأل بين الجوابى فالبُضَيْع فحَوْمَل

يجول بخياله فى مغانيهم ، مرددا أسماء الأماكن التى كان له فيها ذكريات ، ويختم ذلك بقوله :

دارٌ لقومٍ قد أراهم مَرَّةً فوقَ الأعِزَّةِ عِزُّهُمْ لم يُنْقَلِ

ويثور فى نفسه الحنين المُلِحّ إلى هذه الأيام ، وإلى هؤلاء الصحاب والندمان ، فى ذاك الزمان البعيد ، فيقول :

لله دَرُّ عِصابةٍ نادمتُهم يوماً بجِلَّقَ فى الزمان الأوَّلِ
يَمشُونَ فى الحُلَلِ المضاعَفِ نَسْجُها مَشْيَ الجمالِ إلى الجمالِ البُزَّلِ
الضاربون الكَبْشَ يَبرُقُ بَيْضُه ضرباً يَطِيحُ له بَنانُ المَفْصِلِ
أولادُ جفنةَ حَوْلَ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهم لا يَسْأَلون عن السوادِ المُقْبِلِ
يَسقُون من وردَ (البَرِيصَ) عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلْسَلِ

تثير هذه الذكريات فى نفسه الضيق الشديد بمقامه فيقول : أين هذا العيش الحلو الرقيق ، من عيش هؤلاء الأعراب الخشن الضنين ، وأين نساؤهن الجميلات من ولائد الأعراب اللائى ينقفن الحنظل ؟ يالها من أيام حسان مرَّت وكأن لم تكن !...

يُسْقَوْنَ دِرْياقَ الرحيقِ ولم تكن تُدْعَى ولائدُهم لنَقْفِ الحنظلِ
فلبِثْتُ أزْمَاناً طِوالاً فيهمُ ثم ادَّكَرْتُ كأننى لم أفْعَلِ

نعم . مرت سراعا كالحلم ، ولم يعد إليها من سبيل ، فقد تغير الشباب والشعر ! ولكنه يستطيع فى شيخوخته وضعفه وعيشه الراكد أن يحلم بها ، ويستعيد بعض صورها . . .

إمَّا تَرَىْ رأسى تَغَيَّرَ لونه شَمَطاً فأصبح كالثَّغامِ المُحْوِلِ
فلقد يرانى موعِدِىَّ كأننى فى قصرِ دَوْمَةَ أو سواءِ الهيكلِ
ولقد شربتُ الخمرَ فى حانوتها صهباءَ صافيةً كطعمِ الفُلْفُلِ
يسعَى علَىَّ بكأسها مُتَنَطِّفٌ فيعلُّنى منها وإن لم أنهلِ

إن التى ناولتَنى فقَتَلْتَها قُتِلت قُتِلْتَ فهاتها لم تُقتل
كلتاهما حَلَبُ العصير فعاطِنى بزجاجةٍ أرخاهُما للمِفْصَلِ
بزجاجة رقَصَتْ بما فى قعرها رَقْصَ القلوصِ براكبٍ مستعجل

ويصله عطاء جبلة بن الأيهم فى خلافة عمر وقد فر إلى الروم مرتدا إلى النصرانية فيقول فى ذلك أبياتا يلومه عليها بعض الحاضرين من مزينة قائلا — أتذكر قوما كانوا ملوكا فأبادهم الله وأفناهم ؟ فيجيبه حسان (أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقتك طوق الحمامة) ثم يقبل على الرجل الذى جاء من عند جبله بهديته فيقول — ماذا قال لك جبلة ؟ فيقول — قال لى إن وجدته حيا فادفعها إليه ، وإن وجدته ميتا فاطرح الثياب على قبره ، وابتع بهذه الدنانير بدنا فانحرها على قبره . فيقول حسان فى أسى ظاهر وحزن عميق . ليتك وجدتنى ميتا ففعلت ذلك بى ! ويظل حسان فى عزلته حتى توافيه منيته فى أوائل ملك معاوية .

(انتهى القسم الأول فى عصر الجاهلية)

المراجع

نصوص :

القرآن الكريم

ديوان زهير	. . . .	طبع دار الكتب
« امرىء القيس	. . .	« السندوبى مصر
« النابغة الذبيانى	. . .	« مصر ١٩١١ م
« حسان بن ثابت	. . .	« مصر ١٣٤٧ هـ ، ط . أوروبا
« الحطيئة	. . . .	« الشنقيطى مطبعه التقدم
« الشماخ بن ضرار	. . .	« الشنقيطى ١٣٢٧ هـ
« عبيد بن الأبرص	. . .	« أوروبا
« عامر بن الطفيلى	. . .	« «
« علقمة الفحل	. . .	« «
« الأعشى	. . . .	« «
« طرفة بن العبد	. . .	« «
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهلين		« «
المعلقات السبع للزوزنى	. . .	« مصر ١٣٥٢ هـ
المعلقات العشر للتبريزى	. . .	« مصر ١٣٥٢ هـ
مختارات ابن الشجرى	. . .	« مصر ١٣٤٤ هـ
ديوان الحماسة	. . . .	« مصر
شرح ديوان الحماسة للتبريزى	.	« مصطفى محمد . مصر

المفضليات . . . طبع هارون مصر ١٣٦١ هـ

جمهرة أشعار العرب . . » مصر ١٣٤٥ هـ

شعراء النصرانية . . . » اليسوعيين بيروت

نقـــد :

العمدة لابن رشيق . . . طبع مصطفى محمد مصر

الموازنة للآمدى . . . » صبيح مصر

ديوان المعانى للعسكرى . . » مصر ١٣٥٢ هـ

الصناعتين للعسكرى . . » الأستانه ١٣١٩ هـ

الوساطة للجرجاوى . . » مصر ١٣٦٤ هـ

الموشح للمرزبانى . . . » مصر ١٣٤٣ هـ

نقد الشعر لقدامة . . . » مصر ١٩٣٤ م

نقد النثر لقدامة . . . » الجامعة المصرية

أدب :

نهاية الأرب للنويرى طبع دار الكتب

العقد الفريد لابن عبد ربه . . » مصر ١٩٤٠ م

البيان والتبيين للجاحظ . . » السندوبى ١٩٢٦ م

الكامل للمبرد . . . . » مصر ١٣٥٥ هـ

الامالى للقالى . . . . » دار الكتب

تراجم وطبقات :

الأغانى للأصبهانى . . . { طبع دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى، وطبع بولاق فيما يليها

وفيات الأعيان لابن خلكان . طبع بولاق ، طبع مصر (فريد رفاعى)
الشعر والشعراء لابن قتيبة . « مصر (السقا) ١٩٣٢ م
طبقات الشعراء لابن سلام . « مصر (السعادة)
خزانة الادب للبغدادى . . « مصر (الحلبى) ١٩٣٠ م
الفهرست لابن النديم . . « مصر ١٣٤٨ هـ
معجم الشعراء للمرزبانى . . « مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ
المؤتلف والمختلف للآمدى . . « « «
الطبقات الكبرى لابن سعد . « أوروبا

تاريخ :

سيرة ابن هشام . . طبع مصر (الحلبى) ١٩٣٦ م
تاريخ الطبرى . . . . « مصر ١٩٣٩م
تاريخ ابن الاثير . . . « مصر (المنيرية) ١٣٤٨ هـ
مروج الذهب للمسعوى . . « ١٣٤٦ هـ
إمتاع الأسماع للمقريزى . . « مصر (لجنة التأليف) ١٩٤١ م
معجم البلدان لياقوت . « مصر
نسب عدنان وقحطان للمبرد . « مصر (لجنة التأليف) ١٩٣٦ م
الإنباه على قبائل الرواه لابن عبدالبر « مصر (السعادة) ١٣٥٠ هـ
شرح نقائص جرير الفرزدق . « أوروبا
مقدمة ابن خلدون . . . « مصر ١٩٣٠ م
النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى « مصر

معـــاجم :

لسان العرب . لابن منظور
القاموس المحيط . . . للفيروزبادى

أساس البلاغة . . . للزمخشرى
مجمع الأمثال . . . للميدانى
شرح القاموس . . . للزبيدى
المعرب . . . . للجواليقى
دائرة المعارف الإسلامية . . .
دائرة المعارف الإنجليزية . . .
دائرة المعارف الفرنسية . . .

كتب حديثة :

بلوغ الارب للألوسى . . طبع مصر ١٩٢٤ م
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان » مصر (الهلال) ١٩٢٤ م
تاريخ التمدن الإسلامى » » مصر (الهلال) ١٩٢٦ م
تاريخ آداب العرب للرافعى . » مصر ١٣٥٩ هـ
النصرانية وآدابها لشيخو . . » بيروت (اليسوعيين)
الروائع للبستانى . . . » بيروت (اليسوعيين)

The writers of Rome . . . . } J. W. Duff.
A litterary history of Rome . . . } J. W. Duff.
Roman Satire . } J. W. Duff.
The writers of Greece . . Norwood.
Some principles of litterary Criticism . Wenchester.
Juvinal and Persius . . G.G. Ramsay.
Pope's Poetical works . . . London 1908
Manual of English litterature . . . . Arnold.

فهرس

ماهـــو الهجاء

الخصائص الفنية للشعر الهجائى

الهجاء والسحر

(ص ٤٦ — ٦٠)

(٤٦) الأطوار التى مر بها الكلام حتى استوى شعرا : مدلول الشعر عند الجاهليين يختلف عن مدلوله عندنا اليوم ، القرآن والأمثال وبعض الخطب والأسجاع كان فى عرفهم شعرا ، لم يكن الشعر مستقيم الأوزان فى كل الأحيان ولكن الرواة أصلحوا كثيرا منه، غلبة الطويل والبسيط على أشعارهم ومشابهة هذين البحرين لوزن الـ hexameter عند اليونان واللاتين . (٥٢) الشعراء يعالجون صناعتهم ليلا ، التباس أمرهم بالسحرة والكهنة ، تصوير القرآن لخلط العرب بين الشعر والسحر والقرآن . (٥٧) فن الهجاء أقرب الفنون الشعرية للارتباط بالسحر : شياطين الشعراء ، وجه الشبه بين الهجاء والسحر ، زى الشاعر فى الهجاء ، خوف العرب من الهجاء .

الشاعر والقبيلة

(ص ٦١ — ٦٥)

(٦١) الشعراء يكونون جزءا مهما من النظام القبلى : الشعراء يتزعمون قبائلهم فى بعض الأحيان ، أمثلة للشعراء الذين سادوا فى قبائلهم ، الشعر لا يضع من قدر الأشراف ولكنه يعزز مكان صاحبه من قبيلته ، اعتماد القبائل على شعرائها فى الحروب والخصومات . (٦٤) غلبة الحماسة على الشعر الجاهلى ، الشعر الجاهلى مزاج من الحماسة والغضب يصور المثل العليا للحياة إيجابا وسلبا . (٦٥) ضعف شخصية الفرد ، الشاعر مؤرخ وقصاص ، اعتماد الشعر على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب فى الجاهلية

(ص ٦٦ — ٨٣)

(٦٦) القوة هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه ، صور من القوة فى شعرهم وحياتهم : زهير ، طرفة ، سعد بن ناشب ، مجمع بن هلال

القطامى ، جرير ، قريط بن أنيف ، عبد الملك وجعيل بن علقمة التغلبي ، تميم ابن أبي بن مقبل والنجاشي . (٦٩) المغتصب بطل مادام يسعى جهرة ولا يدب متسترا ، لايستغيث بالسلطان إلا العاجز . (٧٠) الصعاليك والمثل العربية : عروة ، تأبط شرا ، أبو النشناش . (٧٢) المكان الأول للفارس المقاتل وللسوقة حياة الصناعة والزراعة . (٧٣) أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه. (٧٤) العرب يحبون كثرة النسل ويعتزون به ، كره العرب للسمن فى الرجال وحبهم له فى النساء . (٧٦) العربي إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها. (٧٧) الصبر والتجلد للمكاره والخطوب . (٧٨) الحب عندهم ضرب من الفخر بامتلاك اللذة وبالشباب. (٨٠) موازنة بين شعر الخمر والغزل الجاهلي وشعر الخمر والغزل فى العصر العباسى ، الكرم مظهر للسيادة والاستعلاء والثقة بالنفس . (٨٢) قوة البيان نظير قوة السيف ، كل ما يهجى به العربي يرجع إلى الضعف والخور.(٨٢)حياة الجاهلية صريحة واضحة تعترف بالقانون الطبيعى الأزلى « البقاء للأصلح »

أقدم صور الهجـــاء

(ص ٨٤ — ٩٤)

(٨٤) المنافرات هى أقدم صور هذا الفن ، المنافرة لغة . (٨٥) وصف المنافرة . (٨٦) عكاظ ، أسلوب المنافرة وقيمتها الأدبية : خليط من الشعر والنثر ، الارتجال غالب عليها ، تصويرها لقيم العصر الأخلاقية والاجتماعية. (٨٧) الحكام . (٨٨) المنافرة بين رجلين من قبيلة واحدة ، عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة .(٩٣) المنافرة بين رجلين من قبيلتين كل يمثل قبيلته ، جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الكلبي .

الهجـــاء الشخصى

(ص ٩٥ — ١٠١)

(٩٥) الهجاء فن واقعى والهجاء الشخصى أحط درجات هذه الواقعية ، المشاركة فى الشعور بين القارىء والشاعر ضعيفة . (٩٦) المعانى فى الهجاء

الشخصى محدودة تتكرر عند كل شاعر ، المزرد بن ضرار الذبيانى . (٩٧) ولكنه لايخلو فى بعض الأحيان من شعر جيد ، ذو الإصبع العدوانى .(٩٨) افتراء الكذب فى الهجاء الشخصى . (٩٩) الهجاء الشخصى يوجه للقبيلة كلها فى بعض الأحيان ، تلخيص قصيدة الأعشى .

الحطيئـــة

(ص ١٠٢ — ١١٣)

(١٠٢) نشأته الأولى وأثرهـا فى مزاجه . (١٠٣) انصرافه إلى الشعر. ارتزاقه بالمدح وبالهجـاء . (١٠٤) عمر والحطيئة . (١٠٥) إشفاق القبـائل والأشراف من هجائه : الحطيئة وخالد بن سعيد بن العاص ، الحطيئة وحسان. (١٠٦) الحطيئة أعرابى جافى الطبع : فساد دينه ، نفاقه ، موقفه فى الردة ، ضيقه بعمر ، دفاعه عن الوليد بن عقبة حين حد فى الخمر . (١٠٩) اعتماده فى هجائه على التفضيل والمقارنة ، دخوله بين بغيض بن شماس والزبرقان بن بدر. (١١١) براعته فى خلق الصور وابتكارها ، توفقه لاختيار ألفاظه الهجائية .

الهجـــاء السيـاسى

(ص ١١٤ — ١٣٣)

(١١٤) ما هو الوطن عند الجاهليين : جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب، مفهوم العصبية يضيق ويتسع حسب الظروف . (١١٥) هجـاء يصور النزاع بين القبـائل : اختلاط الغضب بالحمـاسة ، عبد الله بن عنمة الضبى . (١١٧) الاعتماد على التاريخ والأنساب : أبو بكر ودغفل ، الحارث بن حلزة . (١٢٤) هجاء يصور النزاع بين القبائل والملوك : جابر بن حنى التغلبى ، يزيد ابن الخذاق الشنى ، المتلمس ، طرفة ، الحارث بن ظالم الذبيانى .

الأعشى

(ص ١٣٤ — ١٦٢)

(١٣٤) تصوير القدماء للأعشى . (١٣٥) نشأته وتلمذه على خاله المسيب بن علس . (١٣٦) الأعشى من فتيان الجاهلية : الأعشى صاحب لذة ، حرصه على اللذة جعله فى حاجة دائمة للمال ، رحلته إلى الأشراف وإلحافه فى السؤال. (١٣٩) ولـكنه مع هذا ظل شاعر القبيلة المخاص لمصالحها ، موازنة بينه وبين الحطيئة . (١٤٠) يوم ذى قار . (١٤٢) جولاته السياسية فى الخصومة بين فروع بكر وقبائلها ، الأعشى ويزيد بن مسهر الشيبانى ، بين الأعشى وبين بعض بطون قومه « بنو عبدان » ، ترفقه فى الهجاء وتراوحه بين الغضب والحنين والإباء والوفاء . (١٥١) نصوص من شعره .

الهجـــاء الدينى

(ص ١٦٣ — ١٩٥)

(١٦٣) للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية : خطط الرسول السياسية ، رحلته عن مكة ، توحيد صفوف حزبه ، نشاطه السياسى ، التخلص من اليهود ، بدء سياسته الخارجية ، مكة أول أهدافه ، ما فى صلح الحديبية من كسب سياسى ، لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، اصطناع الأحزاب السياسية واختيار دعاتها من الشعراء ، النهى عن رواية الشعر القديم بعد الفتح ، لا ثبات للإسلام مع قيام دولتى الفرس والروم على أطراف الجزيرة العربية ، توحيد الديانة فى الجزيرة ، توحيد المسلمين فى الدين وفى القوانين المدنية ، التدرج فى التشريع ، الاعتماد على التقاليد القديمة وتهذيبها وتوجيهها . (١٦٥) الإسلام دين واقعى يقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحيـاة : الإسلام يطلب من المسلم أن يكون قويا مستعداً للقتال ، تـكفيره من دعى للجهـاد فقعد عنه ، الإسـلام يحث على الرحمة

والإحسان ولكنه يطلب من المسلم أن يكون قادراً على الرحمة والإحسان فالعفو لا يكون إلا من القوى القادر على الانتقام. (١٦٧) العرب فى معظمهم لم يسلموا عن إيمان واقتناع : كانوا يفهمون النبوة على أنها نوع من الملك، لم يفرقوا بين الزكاة والإتاوة، إسلام ثقيف، وفد بنى عامر ووفد تميم، الشعراء يمدحون النبي بما تمدح به الملوك والسادة، العصبية الجاهلية لم تفتر فى حياة النبي. (١٧٤) الإسلام قد أثار حركة فكرية قوية لا عهد للعرب بمثلها : تنظيم الدعاية للإسلام، النبي يشرف بنفسه على الشعراء ويقوم شعرهم، نهيه عن الاستماع إلى الكفار وإبطال رواية الشعر الذى يهاجم المسلمين، إهدار دم بعض الهجائيين ممن يهاجمون الدعوة. (١٧٧) أثر العناية بالدعاية للدين فى نمو فن الهجاء وعنفه، الهجاء الديني ظل جاهليا فى صميمه. (١٧٨) القرآن وهجاء أعداء الدعوة : الهجاء فى القرآن يقوم على قيم أخلاقية واجتماعية جديدة، هجاء أبى بن أبى سلول وصحبه من المنافقين، هجاء المنافقين من الأوس والخزرج، هجاء أهل النفاق فى يوم الخندق، هجاء اليهود فى إعراضهم عن النبي وانحرافهم عن دينهم، هجاء يهود بنى قينقاع وعبدالله بن أبى فى حمايته لهم حين هاجمهم الرسول. (١٨٩) أسلوب القرآن فى الهجاء : مناقشة حجج الكفار بالدليل العقلى وبالمنطق، الاعتماد على التاريخ فى تصوير ضلالة المعارضين ومكابرتهم، تصوير حال المعارضين بالتمثيل وبالصور الهجائية الساخرة، كشف الستر عن دسائس الكفار ومؤامراتهم، التهديد والوعيد، الهجاء القرآنى يوافق من بعض النواحى ما عرف الجاهليون من هجاء سياسى ولكنه يخالفه فيما يستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية.

حسان

(ص ١٩٦ — ٢٣٠)

(١٩٦) نشأته : النزاع بين الأوس والخزرج، اشتراكه فى هذا النزاع بشعره (١٩٧) رحلته إلى الغساسنة، فتنته بالشام. امتداد هذا القسم من

حياته إلى دخوله فى الإسلام ، شعره فى هذا القسم قطعة من هذه الجنان بعيد عن الصحراء ، ثلوج وكروم وأنهار ، مجالس اللهو والخمر ، إخلاصه فى مدح الغساسنة ، قوة فخره ، الجمع بين شخصيتى شاعر البلاط وشاعر القبيلة . (٢٠٧) دخوله فى الإسلام وقد تقدمت به السن اتباعا لقبيلته : حسان شاعر قومه فى الإسلام كما كان شاعرهم فى الجاهلية ، النبى يتألف حسان بالمال والعطاء . (٢٠٨) فتور عاطفته الإسلامية فى شعر الطور الثانى وقوة عصبيته اليمنية . (٢١٠) حسان يمثل الساخطين من الأنصار يوم الفتح ، حسان وحديث الإفك ، كراهية حسان للمهاجرين تعصبا لقومه . (٢١٣) كثرة الضرورات الشعرية وشيوع الركاكة فى شعره الإسلامى . (٢١٥) قوة شعره حين يترك نفسه على سجيتها الجاهلية وضعفه حين يتكلف نظم معانى القرآن (٢١٧) مكانته فى هذا الطور تقوم على هجائه الموجع ، إفحاشه فى هجائه ، الفحش مظهر البداوة وجفاء الطبع . (٢٢١) مجافاته لتعاليم الإسلام بهذا الإفحاش ، عدم حرصه على تعاليم الإسلام ، ذكر الخمر فى شعره بعد إسلامه. (٢٢٢) براعته فى خلق الصور الهجائية وابتكارها . (٢٢٥) أكثر ما يكون هجاؤه لاذعا حين يكون قصيراً . (٢٢٦) ينتهى هذا الطور الثانى من حياة حسان بعد عشر سنوات بوفاة النبى . (٢٢٧) إقامته على عصبيته اليمنية ، اعتزاله السياسة ، حنينه إلى عصر شبابه فى الشام . (٢٣٠) وفاته

تصويب للأخطاء المهمة

ساصحح فيما يلى الأخطاء التى قد يترتب على تركها خطأ فى الفهم أو غموض ، وأترك غيرها مما يستطيع القارىء أن يهتدى للصواب فيه بغير دليل . وسأثبت الصواب الذى ينبغى أن يقرأ بدل الخطأ المكتوب ، مشيراً إلى الصحيفة (ص) والسطر (س) .

ص	س		ص	س	
٣	٢	الاستنجاز	١٥٢	٢	خَفَيْدَدَا
٣١	٥	تستعجل	١٥٥	٧	حَلَّتْ
٣٩	١٢	ولا يَرِدُون	١٥٧	١	يُقَرِّبُ
٤٤	٢	خَرَّتْ	١٥٩	١٣	الأقواما
٤٤	٢٠	خَصِىْ بَرَاذِينِ	١٦٠	٣	النضيح
٥٣	٢١	فَلْيَأْتِنا	١٦١	١	لِمَيْثاءَ
٦٧	١٠	بِبَارِحِ	١٦٢	٢	قتيلُها
٨١	١٤	سَبْرَة	١٦٢	٦	ومُحُولُها
٩٤	١٧	لى	١٦٥	١٧	دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم
هامش ١١١	١	رَكْنه	١٦٥	١٢	ما اقتَتَلُوا
١١٦	٦	وهم من مالك الضبى	١٨٨	١١	اتَّخَذُوها
هامش ١٢٢	١	غنمه	١٩٩	٨	مُثْرِىَ